الجزء الثاني من

رسالة الترغيب والترهيب

لذي المفاخر والمآثر، والسر العجيب، البركة الأنور،
والفاضل الأشهر، ذي الأحوال الربانية، والتجليات العرفانية،
الطود الشامخ، والجبل الراسخ، العالم العامل، والعارف الكامل،
ذي الفضائل والفواضل، والفيض الرباني،

الشريف مولانا سيدي العربي ابن سيدي إدريس العلمي اللحياني

خليفة القطب المكتوم، والبرزخ المختوم، الغوث الهمام، ممد الخاص والعام

أبي العباس مولانا أحمد التجاني

رضي الله عنهما ورزقنا بجاههما نيل الأماني
آمين يا رب العالمين

قال المؤلف: هذا بحول الله وقوته، وفضله وكرمـــه، أول الجـــزء الثـــاني من الرســـالة المـــذكورة، وأفتتحـــهُ بشـــروط وآداب وحقـــوق الأخوة والصداقة، فأقول والله يحقق المـأمول: فصل

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

فصل

في شـــروط الصـــحبة والأخـــوة، وآدابها، وحقوقهـا، والـترغيب فيهـا والحض عليها.

قال الغـزالي رضـي اللـه عنـه في وظـائف الصحبة ما نصه: منها أن يحذر مجالسة الأغنيـاء وأهل الغفلة، ويكـثر مجالسـة المسـاكين، فإنـه إذا أكـثر مجالسـة أهـل الغفلـة ينقص من دينـه بكل جلسة شيء، ولو أخذ من لحيته وثوبـه في كل جلسة سلك أو شعرة يخاف أن يصـير على القرب منتوف اللحية، مكشوف العورة. فالحذر لأجل الدين أولى. اهـ.

وفي الحلية عن داود الطائي رضي الله عنه: من علامة المريدين الزاهدين في الدنيا ترك كل جليس لا يريد ما يريدون.

وأخرج الحاكم وصححه: «**أَقِلُّوا الدُّخُولَ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ**».

وقد أنزل الله في بعض كتبه كما في الفشني: تارك الصلاة ملعون وجاره إن رضي به ملعون، أي يوم القيامة.

ويحكى أن عيسى عليه السلام مرَّ على قرية كثيرة الأشجار والأنهار، فأكرمه أهلها، فتعجب من حسن طاعتهم، ثم مرَّ عليها بعد ثلاث سنين فرأى الأشجار يابسة والأنهار ناشفة، فتعجب من ذلك، فأوحى الله إليه: قد مرَّ على القرية رجل تارك الصلاة فغسل وجهه في عينها فنشفت ويبست الأشجار فخربت القرية، يا عيسى لما كان ترك الصلاة سببا لهدم الدين كان سببا لخراب الدنيا.

وقال السمرقندي: قال رجل في الزمن الأول لإبليس: أحب أن أكون مثلك، قال: اترك الصلاة ولا تحلف صادقا.

وفي الحديث أن جبريل وميكائيل عليهما السلام قالا: قال الله تعالى: من ترك الصلاة فهو ملعون في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان.

وفي بعض الآثار كما في الغزالي: من كانت له زوجة أو أمة أو عبد أو بنون لا يصلون

وسامحهم في ذلك، فإنه يحشر يوم القيامة مع تارك الصلاة، وإن كان مصليًا. اهـ.

ومثل ذلك الأصحاب والإخوان، بل ورد كما في العلوم الفاخرة عن أبي هريرة مرفوعا: **«إِنَّ الرَّجُلَ يَتَعَلَّقُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَعْرِفُهُ فَيَقُولُ لَهُ: مَا لَكَ مَا رَأَيْتُكَ قَطُّ، فَيَقُولُ: بَلْ رَأَيْتَنِي يَوْمًا عَلَى مُنْكَرٍ وَلَمْ تُغَيِّرْهُ عَلَيَّ»**.

وكذا قال الغزالي في كتاب الأربعين له: كل من شاهد منكرا وسكت عليه فهو شريك فيه. اهـ.

وروى أبو يعلى مرفوعا: **«مَنْ كَثَّرَ سَوَادَ قَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ، وَمَنْ رَضِيَ عَمَلَ قَوْمٍ كَانَ شَرِيكَ مَنْ عَمِلَ بِهِ»**.

وروى أصحاب السنن الأربعة، وصححه ابن حبان مرفوعا: **«إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْـمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعَذَابٍ»**.

وعند الإمام أحمد بسند حسن مرفوعا: **«إِنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْـخَاصَّةِ حَتَّى يَرَوُا الْـمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ، فَلَا يُنْكِرُونَهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ اللهُ الْـخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ»**.

وعند ابن أبي الدنيا عن إبراهيم بن عمرو الصنعاني قال: أَوْحَى اللهُ إِلَى يُوشَعَ بْنِ نُونٍ أَنِّي مُهْلِكٌ مِنْ قَوْمِكَ أَرْبَعِينَ أَلْفًا مِنْ خِيَارِهِمْ،

وَسِتِّينَ أَلْفًا مِنْ شِرَارِهِمْ، قَالَ: يَا رَبِّ، هَؤُلَاءِ الْأَشْرَارُ، مَا بَالُ الْأَخْيَارُ؟، قَالَ: «إِنَّهُمْ لَمْ يَغْضَبُوا لِغَضَبِي، وَكَانُوا يُؤَاكِلُونَهُمْ وَيُشَارِبُونَهُمْ».

وقال مالك بن دينار: أَوْحَى اللهُ إِلَى مَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَنِ اقْلِبْ مَدِينَةَ كَذَا وَكَذَا عَلَى أَهْلِهَا، قَالَ: فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنَّ فِيهِمْ عَبْدَكَ فُلَانًا لَمْ يَعْصِكَ طَرْفَةً، قَالَ: اقْلِبْهَا عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ، فَإِنَّ وَجْهَهُ لَمْ يَتَمَعَّرْ فِيَّ سَاعَةً قَطُّ.

وقال أبو طالب مكي رحمه الله: قد صار المعروف منكرا والمنكر معروفا، وصارت السنة بدعة والبدعة سنة.

وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال: «**كَيْفَ بِكَ يَا حُذَيْفَةُ إِذَا تَرَكْتَ بِدْعَةً قَالُوا: تُرِكَتْ سُنَّةً**».

وفي الحلية عن سفيان بن عيينة رضي الله عنه قال: أوحى الله إلى موسى عليه السلام إن أول من مات إبليس وذلك أنه أول من عصاني وأنا أعد من عصاني من الموتى. اهـ.

وقال أبو حامد الغزالي رحمه الله: واعلم أن الناس ثلاثة أقسام: أصدقاء، ومعارف، ومجاهيل.

-فإن بليت بالعوام المجهولين: فأدب مجالسة العوام ترك الخوض في حديثهم، وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم، والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم، والاحتراز عن كثرة لقائهم

والحاجة إليهم، والتنبيه على منكراتهم باللطف والنصح عند رجاء القبول منهم.

-وأما الأصدقاء فعليك وظيفتان: إحداهما: أن تطلب أولا شروط الصحبة والصداقة، فلا تؤاخ إلا من يصلح للأخوة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**».

إلى أن قال: والناس ثلاثة: أحدهم مثل الغذاء، والآخر مثل الدواء يحتاج إليه في وقت دون وقت، والثالث مثل الداء لا يحتاج إليه قط.

وقال قبله: والأخوة ثلاثة: أَخٌ لِآخِرَتِك فَلَا تُرَاعِ فِيهِ إلَّا الدين، وأخٌ لدنياك فَلَا تُرَاعِ فِيهِ إلَّا السَّلَامَةَ مِنْ شَرِّهِ وخبثه.

ثم قال: الوظيفة الثانية، يعني من وظائف الأخوة: مراعاة حقوق الصحبة، وفي القيام بها آداب، وقال صلى الله عليه وسلم: «**مَثَلَ الْأَخَوَيْنِ مَثَلُ الْيَدَيْنِ تَغْسِلُ إِحْدَاهمَا الْأُخْرَى**»، وقال صلى الله عليه وسلم: «**مَا مِنْ صَاحِبٍ يَصْحَبُ صَاحِبًا وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ إلا سُئِلَ عَنْ صُحْبَتِهِ هَلْ أَقَامَ فِيهَا حَقَّ اللهِ أَوْ أَضَاعَهُ**».

وقال عليه السلام: «**مَا اصْطَحَبَ اثْنَانِ قَطُّ إِلَّا كَانَ أَحَبُّهُمَا إِلَى اللهِ أَرْفَقَهُمَا بِصَاحِبِهِ**»، قلتُ: وفي الخبر أيضا: «**صُحْبَةُ يَوْمٍ صُحْبَة، وَصُحْبَةُ شَهْرٍ قُرْبَة، وَصُحْبَةُ سَنَةٍ رَحِم، وَصَلَ اللهُ مَنْ وَصَلَهَا، وَقَطَعَ مَنْ قَطَعَهَا**».

وقد قيل:

صحبة يوم نسب قريب=وذمة يعرفها اللبيب

ثم قال: فآداب الصحبة الإيثار بالمال وإن لم يكن فيبذل الفضل من المال عند الحاجة، والإعانة بالنفس في الحاجات على سبيل المبادرة من غير إحواج إلى الالتماس، وكتمان السر، وستر العيوب، والسكوت عن تبليغ ما يسوءه من مذمة الناس إياه، وإبلاغ ما يسره من ثناء الناس عليه، وحسن الإصغاء عند الحديث.

أخرج الخطيب عن أنس مرفوعا: «**مِنَ الْـمُرُوءَةِ أَنْ يُنْصِتَ الأَخُ لأَخِيهِ إِذَا حَدَّثَهُ، وَمِنْ حُسْنِ الْـمُمَاشَاةِ أَنْ يَقِفَ لِأَخِيهِ إِذَا انْقَطَعَ شِسْعُ نَعْلِهِ**». قال المناوي: فلا يعرض عنه ولا يشتغل بحديث غيره فإن فيه استهانة به، ولأن مفارقته تورث ضغينة.اهـ.

وأخرج ابن عساكر: «**لَيْسَ مِنَ الْـمُرُوءَةِ الرِّبْحُ عَلَى الإِخْوَانِ**».

قال: ويترك المماراة فيه، وأن يدعوه بأحب أسمائه إليه، وأن يثني عليه بما يعرفه من محاسنه، وأن يشكره على صنيعه في حقه، وأن يذب عنه في غيبته إذا تعرض لعرضه كما يذب عن نفسه، وأن ينصحه باللطف والتعريض إذا احتاج إليه.

أخرج البيهقي والضـياء: «**مَنْ نَصَرَ أَخَـاهُ بِظَهْـرِ الْغَيْبِ نَصَـرَهُ اللـهُ فِي الـدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**».

وأخرج البيهقي أيضا: «**مَنْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ فَلْيَكُنْ أَمْرُهُ بِمَعْرُوفٍ**»، أي برفق ولين فإنه أدعى للقبول.

وفي الـديباج لابن فرحـون عن عيسـى بن عاصـم قـال: كنت عنـد ابن وهب فوقـف على الحلقة سائل، فقال: يا أبا محمد الـدرهم الـذي أعطيتني بالأمس زائف، فقال: يا هذا إنما كانت أيدينا عارية، فغضب السائل وقـال: صـلى اللـه على محمد، هذا الزمان الذي كان يحدث به أنه لا يلي الصدقات إلا المنـافقون من هـذه الأمـة، فقـام رجـل من أهـل العـراق فلطم المسـكين لطمة خر منها لوجهه، فجعل يصيح: يا أبا محمد يا إمام المسلمين يفعل بمجلسـك هـذا؟ فقـال ابن وهب: ومن فعـل هـذا؟ فقـال العـراقي: أصلحك الله أنا فعلت للحديث الـذي حـدثتنا أن النبي صلى الله عليه وسـلم قـال: «**مَنْ حَمَى لَـحْمَ مُؤْمِنٍ مِنْ مُنَافِقٍ يَغْتَابُهُ حَمَى اللـهُ لَـحْمَهُ مِنَ النَّارِ**»، وأنت مصـباحنا وضـياؤنا ويغتابك في وجوهنا؟ فقـال: لأحـدثنك بحـديث: إن النبي صلى الله عليـه وسـلم قـال: «**يَكُونُ فِي آخِـرِ الزَّمَـانِ مَسَـاكِينُ يُقَـالُ لَـهُمُ الْعُتَاةُ لَا يَتَوَضَّؤُونَ لِصَـلَاةٍ وَلَا يَغْتَسِـلُونَ مِنْ جَنَابَـةٍ يَخْـرُجُ النَّاسُ إِلَى مَسَـاجِدِهِمْ وَأَعْيَـادِهِمْ يَسْـأَلُونَ اللـهَ مِنْ فَضْـلِهِ**

وَيَخْرُجُــــونَ يَسْـــأَلُونَ النَّاسَ يَــــرَوْنَ حُقُــوقَهُمْ عَلَى النَّاسِ وَلَا يَــرَوْنَ للــهِ عَلَيْهِمْ حَقًا».

إلى أن قـال: وأمـا المعـارف: فاحـذر منهم فإنك لا تَرَ الشرَّ إلا ممن تعرفـه، وأمـا الصـديق فيعينك، وأمـا المجهـول فلا يتعـرض لـك، وإنمـا الشر كله من المعارف الذين يظهرون الصداقة بألسنتهم.

فأقلل من المعـارف مـا قـدرت، فـإذا بليت بهم في مدرسـة أو جـامع أو مسـجد أو بلـد أو سوق، فيجب ألا تستصـغر منهم أحـدا، فإنـك لا تــدري لعلــه خــير منــك، ولا تنظــر إليهم بعين التعظيم لهم في حال دنياهم فتهلك، لأن الــدنيا صغيرة عند الله، صـغير مـا فيهـا، ومهمـا عظم أهل الدنيا في قلبك فقد سقطت من عين الله. وإياك أن تبذل لهم دينك لتنال دنياهم، فلا يفعل ذلــك أحــد إلا صــغر في أعينهم ثم حــرم مــا عندهم.

ثم قال: واقطع طمعك من مـالهم وجـاههم ومعـونتهم، فـإن الطـامع في الأكـثر خـائب في المآل، وهو ذليل لا محالة في الحال. اهـ.

وفي رسـالة القشـيري: إن رجلا جـاء إلى زيارة أبي بكر الوراق، فلما أراد أن يرجـع قـال له: أوصني، فقال: وجـدت خـير الـدنيا والآخـرة في الخلــوة والقلــة، وشــرهما في الكــثرة والاختلاط. اهـ.

وفيها أيضا: ومن شـأن المريـد التباعـد من أبناء الدنيا، فـإن صحبة أبنـاء الـدنيا سـم قاتـل مجرب ينتفعون بهِ وهو ينتقص بهم، قال تعالى: (**وَلَا تُطِـعْ مَنْ أَغْفَلْنَـا قَلْبَـهُ عَنْ ذِكْرِنَا**)، الآية.

وقال الجنيد رضي الله عنه: مكابدة العزلـة أيسر من مداراة الخلطة.

وقـال أبـو بكـر الشـبلي رحمـه اللـه: من علامات الإفلاس الاستئناس بالناس. اهـ.

وقـال الجنيـد: من أراد أن يسـلم لـه دينـه ويستريح قلبه وبدنه فليعـتزل النـاس فـإن هـذا زمان وحشة، والعاقل من اختار فيه الوحدة.

جَانِبْ جَانبْ=تَجد الله صَاحِبْ

قَارِبْ قَارِبْ=تجد الناس عقاربْ

وفيهـا أيضـا: عن بشـر بن الحـارث: صـحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار.

وأوحى اللـه إلى بعض أنبيائـه إن أردت أن تعلم رضائي عندك فانظر كيـف رضـاء الفقـراء عنك. اهـ. بخ.

ولله در القائل:

ما اعتاض باذل وجهه بسـؤالِهِ=عوضًـا وإن نال الغنى بسؤال

وإذا السؤال مع النوال وَزنته=رَجح السؤال وخف كل نوالِ

فـإذا ابتُليتَ ببـذل وجهـك سـائلًا=فابذلـه للمتكرِّم المفْضَالِ

وللأستاذ أبي أسحاق الشيرازي رحمه الله:

سأصدق نفسي إن في الصدق حاجتي= وأرضى بدنياي وإن هي قلت
وأهجر أبواب الملوك فإنني = أرى الحرص جلابًا لكل مذلة ولبعضهم:
إسأل الخير إن سألت كريما=لم يزل يعرف الغنى واليسارا
فسؤال الكريم يورث عزا=وسؤال اللئيم يورث عارا
وإذا لم يكن من الذل بدٌ= فالْق بالذل إن لقيت الكبارا
ليس إجلالك الكبار بذل=إنما الذل أن تجل الصغارا
ولآخر:
لأن أزجي عني العري بالخلق =وأكتفي عن لذيذ العيش بالعلق
خير وأكرم لي من أرى مننا=معقودة للئام الناس في عنقي
ولآخر:
وقالوا تعرض للقنا تنل المنى=فقلت لهم إن التعففَ دَيْدني
قبيحٌ على الإنسان يقبل منَّة=من الخلق أحرى إن أتت من يردني
وفي الرسالة عن النباجي قال: اشتهيت شيئا فطلبته من إنسان، فرأيت في المنام كأن قائلا يقول لي: أيجمل بالعبد المريد، أن يتذلل للعبيد، وهو يجد من مولاه ما يريد

فاضـرع إلى ملـك الملـوك ولا تكن=بـادي الضراعة طالبا من طالب

وما أحسن قول ابن عطاء الله رضـي اللـه عنه في الحكم: لَا تَـرْفَعَنَّ إِلَى غَيْـرِهِ حَاجَـةً هُـوَ مُورِدُهَا عَلَيْكَ، فَكَيْفَ يَرْفَعُ غَيْرُهُ مَا كَانَ هُـوَ لَـهُ واضِـعًا، مَنْ لَا يَسْـتَطِيعُ أَنْ يَرْفَـعَ حَاجَـةَ نَفْسِـهِ فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ لَـهَا عَنْ غَيْرِهِ رافِعًا.

ولقد صدق من قال:

لـرد أمس بالحبـال=وحبس عين الشـمس بالعقال

ونقل ماء البحر بالغربال=أهون من موقف السؤال

وارتجائي من المخلوقين النوال

وروي عن جعفر الصادق رضي الله عنه:

لَا تَخْضَعَنَّ لِـمَخْلُوقٍ عَلَى طَمَـعٍ=فَـإِنَّ ذَاكَ مُضِر مِنْكَ بِالدِّينِ

وَاسْـتَغْنِ بِاللـهِ عَنْ دُنْيَـا الْـمُلُوكِ كَمَا=اسْتَغْنَى الْـمُلُوكُ بِدُنْيَاهُمْ عَنِ الدِّينِ

وَاعْلَمْ بِأَنَّهُ مَا يُعْطِيكَ خَرْدَلَة=إِلَّا بِإِذْنِ الَّذِي سَوَّاك مِنْ طِينِ

وَاسْتَرْزِقِ اللهَ مِمَّا فِي خَزَائِنِهِ=فَإِنَّمَا الرِّزْقُ بَيْنَ الْكَافِ وَالنُّونِ

غيره:

دع المطامع واعلم أن صاحبها=من التملـق في ذل وفي خجل

قـد قيـل أحرفه تبـدو مجوفـة=كجـوف ذي طمع في الشبه والمثل

وفي الحكم العطائية: الْعَطَاءُ مِنَ الْـخَلْقِ حِرْمانٌ، وَالْـمَنْعُ مِنَ اللهِ إِحْسَانٌ.

وفيها أيضا: أَنْتَ حُـرٌّ مِمَّا أَنْتَ عَنْهُ آيِسٌ، وَعَبْدٌ لِـمَا أَنْتَ فِيهِ طامِعٌ.

وقال المناوي على حديث: «**اسْتَكْثِرُوا مِنَ الإِخْوَانِ فَإِنَّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ شَفَاعَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» ما نصه: أي من مؤاخاة المؤمنين الأخيار لا غيرهم، فلا تندب مؤاخاتهم بل يتعين اجتنابهم، وبذلك يجمع بين الأخبار، فصحبة الأخيار تورث الخير، وصحبة الأشرار تورث الشر، كالريح تمر على النتن فتحمل نتنا، وعلى الطيب فتحمل طيبا.

وقال مالك بن دينار: كل صاحب لا تستفيد منه خيرا فانبذ صحبته.

وقيل للأعمش: مما عمشت عيناك؟ فقال: من النظر إلى الثقلاء.

وقال الشافعي: صحبة من لا يخاف العار عار يوم القيامة. اهـ.

وقال الشيخ زروق عن الشاذلي رضي الله عنه: عمى البصيرة في ثلاثة أشياء: إرسال الجوارح في معاصي الله، والتصنع بطاعة الله، والطمع في خلق الله، فمن ادعى البصيرة مع واحدة من هذه فهو عبد مفتر كذاب أو ذو خطأ في العلم.

وقال في المدخل عن الشيخ أبي عبد الرحمن الصقلي رحمه الله تعالى: الإخوان أربعة: أَخٌ كَالدَّوَاءِ، وَأَخٌ كَالْغِذَاءِ، وَأَخٌ كَالدَّاءِ، وَأَخٌ

كَالــدِّفْلَى. فَــالْأَوَّلُ مَعْــدُومٌ، وَالثَّانِي مَفْقُــودٌ، وَالثَّالِثُ مَوْجُــودٌ، وَالرَّابِــعُ مَشْــهُودٌ. أَمَّا الْأَوَّلُ فَكالمشَـايِخ من الصُّـلَحَاء وَالْعُلَمَـاءِ فَهُمْ قُـدْوَةٌ لِلْمُقْتَدِينَ، وَمُجَالَسَتُهُمْ تَشْـفِي الْأَسْـقَامَ ظَـاهِرًا وَبَاطِنًا.

وَأَمَّا الثاني فكالأخ فِي الله تَعَالَى المشْـفِق الْوَدُودِ الْحَنُونِ الَّذِي يُؤْلِمُهُ مَا يُؤْلِمُك، وَيَسُرُّهُ مَا يَسُرُّك، وَيُجَوِّعُ نَفْسَهُ لِجُوعِك، وَيَتَعَـرَّى لِعُرْيِـك، وَيُكَابِدُ مَا نَزَلَ بِك أَكْثَرَ مما نَزَلَ بِهِ، (وَأَنْتَ تَـرَى فَقْدَهُ فِي هَذَا الزَّمَـانِ لَكِنْ) بَيْنَ الْفَقْـدِ وَالْعَـدَمِ فَرْقٌ، وَهُوَ أَنَّ المعدُومَ لَا يُوجَدُ البَتَّةَ، وَالمفْقُـودَ قَدْ يُوجَدُ فِي مَوْضِعٍ مَا.

قال: وأما الثالث فلا شـك أنـك إذا خـالطت كثـيرا من النـاس في هـذا الزمـان وعاشـرتهم بملابسة ما تجـد من كثـير منهم الإذايـة البالغـة إما في دينك أو دنياك أو عرضك وهذا هو الــذي لا شك فيه فإن أنت خـالطت وجـدت مـا ذكـره رحمه الله.

وأما الرابـع فلا شَـكَّ فِي مُبَاشَـرَةِ ذَلِـكَ فِي هَـذَا الزَّمَـانِ، أَلَا تَـرَى أَنَّك إِذَا تَكَلَّمْتَ مَـعَ أَحَـدٍ مِنْهُمْ فِي صَـلَاحِ دِينِــهِ فِي شَــيْءٍ مَــا قَابَلَــك بِانْزِعَاجٍ، وَخُلُقٍ سَيِّئٍ، فَأَقَلُّ جَوَابِهِ أَنْ يَقُولَ لَك: مَــا حَقَّرْت فِي النَّاسِ إِلَّا أَنَــا حَتَّى تَــأْمُرَنِي، أَوْ تَنْهَانِي، أَوْ يَتَسَلَّطُ عَلَيْك بِبَـذَاءَةِ لِسَـانِهِ، وَيَنْظُـرُ لَك عَوْرَاتٍ يُظْهِرُهَا أَوْ حَسَنَاتٍ يُخْفِيهَا أَوْ يَرُدُّهَــا سَـيِّئَاتٍ، وَهَـذَا فِيـهِ مِنْ المـرَارَةِ بِحَيْثُ المنتَهَى كَمَا هِيَ الدِّفْلَى، فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْك أَنْ تَفِرَّ مِمَّنْ هَذِهِ

صِفَتُهُ، فَـالليب اللَّبِيبُ مَنْ يشمِّر عَنْ سَـاعِدَيْهِ، وَيبَـالغ فِي الْفَحْصِ عَنْ الْقِسْـمَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ، فـوا سَعدتاه إنْ ظَفِرَ بِأَحَدِهِمَا كَمَا قِيلَ:

وَإِذَا صَفَا لَك مِنْ زَمَانِك وَاحِدٌ=فَهُـوَ المـرَادُ وَأَيْنَ ذَاكَ الْوَاحِدُ

فَإِنْ عَدِمَهُمَا فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ الْخَلْوَةُ وَالاعْتِـزَالُ إنْ أَرَادَ السَّـلَامَةَ، إذْ إنَّ الاجْتِمَـاعَ بِالنَّاسِ إنَّمَـا يَحْتَاجُهُ المرِيـدُ لِلزِّيَـادَةِ لَا لِلنَّقْصِ، فَـإِذَا عَلِمَ أَنَّهُ مَا يَحْصُلُ لَهُ فِيهِ إلَّا النَّقْصُ فَلْيَحْذَرْ مِنْـهُ جَهْـدَهُ، وَيَسْتَعِينُ بِرَبِّهِ مَـعَ سَـلَامَةِ صَـدْرِهِ لَهُمْ، وَحُسْـنِ ظَنِّهِ بِهِمْ عُمُومًا، والله المسْتَعَانُ.

وقـال الشـيخ زروق: النهـوض إلى اللـه بثلاث: امتثـال أمـره على السـنة، والاستسلام لقهـره مـع شـهود المنـة، والتوكـل عليـه في حصول المقصود. اهـ.

وقـد ألـف في ذلـك جمـع من العلمـاء والمتصوفة والعارفين والصلحاء.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: الصـداقة من قواعـد الـدين والـدنيا، وشـروط الصـديق سـلامته من الكـذب والحـرص وسـوء الخلـق والفسق، فإن المـرء على دين خليلـه، حـتى إذا انعقدت الأخوة والصداقة وجب إسـقاط الكلفـة والسعي في المنافع بكل وجه. اهـ.

وفي الحكم: رُبَّمـا كُنْتَ مُسِـيئًا فَـأَرَاكَ الإِحْسَانَ مِنْكَ، صُحْبَتُكَ إِلَى مَنْ هُـوَ أَسْـوَأُ حَـالًا مِنْكَ.

وذكر الصبان في سيرته عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه قال: من أحب أن ينور الله قلبه فعليه بالخلوة، وقلة الأكل، وترك مخالطة السفهاء، وبغض أهل العلم الذين ليس معهم إنصاف ولا أدب.

وقال في الإحياء: اعلم أن عقد الأخوة رابطة بين الشخصين كعقد النكاح بين الزوجين، فكما يقتضي النكاح حقوقا يجب الوفاء بها فكذلك عقد الأخوة. فلأخيك عليك حق في المال، وفي النفس، وفي اللسان، وفي القلب بالعفو وبالدعاء وبالإخلاص وبالوفاء، وبالتخفيف وترك التكلف والتكليف، وذلك يجمعه ثمانية حقوق. فذكر نحو ما لابن جزي.

والثامن عنده التخفيف وترك التكلف والتكليف.

قال: فلا تكلف أخاك ما يشق عليه، بل تروح سره عن مهماتك وحاجاتك، وترفهه عن أن تحمله شيئا من أعبائك، ولا تستمد منه من جاه ولا مال ولا تكلفه التواضع لك والقيام بحقوقك والتفقد، بل لا تقصد بصحبته إلا الله. اهـ. فانظره فقد أشبع الكلام في ذلك على عادته.

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**هَلَاكُ الْمَرْءِ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ فَيَحْتَقِرَ مَا فِي بَيْتِهِ أَنْ يُقَدِّمَهُ**

إِلَيْهِ، وَهَلَاكٌ بِالْقَوْمِ أَنْ يَحْتَقِرُوا مَا قُـدِّمَ إِلَيْهِمْ».

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إِنَّ مِنْ مَكَـارِمِ الْأَخْلَاقِ التَّزَاوُرُ فِي اللَّـهِ، وَحَقٌّ عَلَى الْـمَزُورِ أَنْ يُقَـرِّبَ إِلَى أَخِيـهِ مَا تَيَسَّرُ عِنْدَهُ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْ إِلَّا جَرْعَةً مِنْ مَـاءٍ، وَإِنِ احْتَشَـمَهُ أَنْ يُقَـرِّبَ إِلَيْـهِ مَـا تَيَسَّـرَ لَم يَـزَلْ فِي مَقْتِ اللَّـهِ يَوْمَـهُ وَلَيْلَتَهُ».**

وعن (أبي) البختري أنه قال: نزلنا على سلمان بالمدائن فقدم إلينا خبزا وسمكا، وقال: كُلُوا، نَهَانَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ التَّكَلُّفِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَتَكَلَّفْتُ لَكُمْ. اهـ.

وقال الفضيل: ترك حقوق الإخوان مذلة. اهـ.

وقد قيل: درجة الأخوة درجة شريفة قد اختارها جمع من السلف وتابعهم على ذلك جمهور الخلف.

ومما استأنسوا به لما اعتمدوه من إيثارها، واستندوا له فيما ذهبوا إليه من اختيارها، ما رأوا من أن الله تعالى مَنَّ على أهل الإيمان حيث جعلهم إخوانا، فقال: (**فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**)، وقال: (**هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ**) الآية، فقد دل على أن الصحبة والأخوة منة عظيمة امتن الله بها على من شاء من عباده المؤمنين

المتحابين فيه، وفي ذلك غاية الحث عليها والترغيب فيها.

وذكر في العوارف أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام قال: يا داود ما لي أراك منتبذا وحدانيا؟ قال: إلهي قليت الخلق من أجلك، فأوحى الله إليه: يا داود كن يقظانا وارتد لنفسك أخدانا، وكل خدن لا يوافقك على مسرتي فلا تصحبه فإنه لك عدو يقسي قلبك ويباعدك مني. اهـ.

وفيها أيضا عن سيدنا عمر رضي الله عنه أنه قال: لو أن رجلا صام النهار وقام الليل وتصدق وجاهد ولم يحب في الله ولم يبغض في الله ما نفعه ذلك. اهـ.

وفي الدر المنثور: أخرج ابن مردويه عن سعد بن معاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إِذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ انْقَطَعَتِ الْأَرْحَامُ وَقلت الْأَنْسَابُ وَذَهَبَتِ الْأُخُوَّةُ إِلَّا الْأُخُوَّة فِي اللهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ)** الآية» اهـ.

وفيها أي في العوارف، عن الشيخ أبي جعفر رحمه الله تعالى أنه سمع الشيخ علي بن سهل يقول: الأنس بالله أن يستوحش من الخلق إلا من أهل ولاية الله، فإن الأنس بأهل ولاية الله هو الأنس بالله. اهـ.

ولذلك كانت الصحبة والصداقة عند الأحرار يراعى لها من الحقوق ما يراعى لأخوة النسب

على ما قيل: الصداقة لحمة كلحمة النسب، بل الحق أنها أعني الصداقة والأخوة في الله تعالى آكد حقًّا من أخوة النسب، وقيل لبعضهم: أيهما أحب إليك أخوك أو صديقك؟ قال: إنما أحبُّ أخي إذا كان صديقي.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه في شرحه على الوغليسية ما نصه: قال العلماء: القرابة قرابتان قرابة دينية وهي أولى من القرابة الطينية. انتهى.

وقال أيضا: الصداقة من قواعد الدين والدنيا. اهـ.

وفي العوارف أيضا: أنه يقع بطريق الصحبة التعاضد والتعاون، وتتقوى جنود القلب، وتستروح الأرواح بالتشام، وتتفق في التوجه إلى الرفيق الأعلى، ويصير مثالها في الشاهد كالأصوات إذا اجتمعت خرقت الأجرام، وإذا انفردت قصرت عن بلوغ المرام. اهـ.

وفيها أيضا: إن من فوائد الصحبة والأخوة أنها تفتح مسام الباطن، ويكتسب الإنسان بها علم الحوادث والعوارض. اهـ.

وفي الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**الْمُؤْمِنُ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ**». اهـ.

وفيه أيضا عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**».

ولها آداب تنتج التودد والتآلف: منها أن لا يحوج الأخ أخاه إلى المداراة، ولا يلجئه إلى

الاعتذار، ولا يكلفه ما يشق عليه، لقول سيدنا علي كرم الله وجهه: شر الأصدقاء من أحوجك إلى مداراة، وألجأك إلى الاعتذار، وتكلفت له. اهـ.

ومنها: مداراة الإخوان واحتمال الأذى منهم.

وقد بلغ من مداراة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يذم طعامًا ولا ينهر خادما.

وقد قالوا: لا شيء يستدل به على عقل المرء ووفور علمه وحلمه كحسن المداراة، وقالوا: لكل شيء جوهر وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصبر، ولهذا قيل: باحتمال الأذى يظهر جوهر النفس. وبيان ذلك أن النفس لا تزال تشمئز ممن يعكس مُرادها ويستفزها الغيظ والغضب، وبالمداراة والاحتمال قطع حميتها ورد طيشها وكظم غيظها.

ويكفي في الحث على هذا الأدب والترغيب فيه قول الله تعالى: **(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ)** الآية، وفي الحديث: **«مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنَفِّذَهُ دَعَاهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ فِي أَيِّ الْحُورِ شَاءَ»**.

وتشتبه المداراة بالمداهنة، والفرق بينهما: أن المداراة ما أردت به صلاح أخيك فداريته رجاء إصلاحه واحتملت منه ما تكره. والمداهنة

ما قصدت به شيئا من الهوى كطلب حظ وإقامة جاه. فالأولى أي المداراة من أخلاق الأخيار، والثانية أي المداهنة من سمات الأشرار. وقيل في الفرق بين حقيقتيهما أن المداراة بذل شيء من الدنيا لإصلاح الدين، والمداهنة بذل الدين لإصلاح الدنيا.

وهذا الأدب أيضا قد أكَّد عليه الشيخ رضي الله عنه في رسائله، فهو داخل في عموم الأمر بتجنُّب كل ما يوجب ضغينة في قلوب الإخوان، والأمر بالإكثار من العفو عن الزلل، وغير ذلك مما يطول تتبعه وجلبه. فليجتهد المريد في العمل عليه، وليجاهد نفسه ما استطاع بترك ما يبعد عنه وارتكاب ما يوصل إليه.

ومنها أيضا: تقديم من يعرف الإخوان فضله من إخوانهم، والتوسعة له في المجلس، وإيثاره بالموضع. ومستندهم في هذا ما روي أنه صلى الله عليه وسلم كان جالسا في صفة ضيقة، فجاءه قوم من البدريين فلم يجدوا موضعا يجلسون فيه، فأقام صلى الله عليه وسلم من لم يكن من أهل بدر فجلسوا مكانهم، فاشتد ذلك عليهم، فنزلت الآية: **﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾** الآية. ومعلوم قيام الصديق الأكبر لمولانا علي كرم الله وجهه، وإيثاره بالمجلس بجنب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقوله له عليه الصلاة والسلام «**إِنَّمَا يَعْرِفُ الْفَضْلَ لِأَهْلِ**

الْفَضْـــــلِ ذَوُوهُ». وحكي أن بعض من لقي الجنيد رضي الله عنه ورد على أبي عبد الله بن خفيف زائرا فتماشيا، فقال له أبو عبد الله: تقدم، فقال: بأي عذر؟ قال له: لأنك لقيت الجنيد وما لقيتُه. اهـ.

قال شارح المنية: قلت: ولا يظن ظان أن طريق شيخنا رضي الله عنه خالية عن مثل هذا الأدب، لأنه ثبت عنه رضي الله عنه أمر أن لا يقصد أحد من الأصحاب جلوسه في نحو الوظيفة أعلى المجلس ولا أدناه، بل يجلس حيث وجد، أي حيث انتهى به المجلس كما هي السنة في ذلك.

وقد دخل على بعض الفقراء اشتباه في الأمر من أجل أخذهم به من غير تثبت في مراد الشيخ رضي الله عنه بهذا الكلام، فرأوا أن عدم التفسح في المجلس مأمور به، فأداهم ذلك إلى الإخلال بهذا الخلق والإعراض عن العمل به بالمرة، فصاروا لا يوسعون لذي السن والفضل منهم في مجالسهم، ولا يؤثرونهم بصدر المجلس إكراما لهم لسنهم وسابقيتهم في الفضل، معتقدين أن فعلهم ذلك هو الذي أمر به الشيخ رضي الله عنه. ولم يتأملوا كلامه رضي الله عنه حتى يعرفوا أنه إنما نهى عن القصد إلى الجلوس فوق أو تحت، أي أعلى المجلس الذي هو صدره، ولا أدْوَنه الذي هو مؤخره. وذلك لأن في القصد إلى الجلوس بأحد المحلين اتباع هوى النفس، أما

في القصد إلى الأعلى فظاهر فيه حب العلو، وأما في القصد إلى الأدون فلأن فيه دسيسة من دسائس النفس حيث تدعو إلى ما صورته التواضع، وهي تريد أن تفوق غيرها بذلك ويُشار إليها به، وهو على هذا الحال عين حب العلو أيضا، فهو كالذي قبله. فأمر الشيخ رضي الله عنه بمخالفتها ومجاهدتها في ذلك بنهيه رضي الله عنه عن القصد لأحد الأمرين، تنفيرا عن الوقوع في مكايد النفس الجلية منها والخفية، ولا محالة أن هذا هو الشأن في مثل هذا المقام عند جميع أهل التربية. ويؤيد هذا أن الشيخ رضي الله عنه تلا بعد ذكره له قوله تعالى: **(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ)** الآية، قيل له: أهذا علو؟ قال: نعم، وإرادة العلو في القصدين معا ظاهرة.

وإذا علم مراد الشيخ رضي الله عنه فيما أمر به، عُلم أنه لم يَنْهَ عن التفسح في المجلس ونحوه مما اقتضته السنة من الإيثار لأهل الفضل، واستعمال الأدب معهم الذي هو من أخلاق الأبرار وسيما الأخيار، أي ارتكاب خلافه شيمة الجهلة المتساهلين وديدن الغلاة من المتكبرين. اهـ.

قلتُ: وهذه الأخلاق السيئة المذمومة المخالفة للسنة المحمودة بها تخلق بعض من ينتحل التصدير والظهور من جهلة ذوي الغرة

من المقـدمين وغـيرهم سـامحنا وإيـاهم مـدبر الأمور، فلينتبه لهذا بقدر الإمكـان، ولينبـه عليـه من أغفله من الإخوان.

هذا، ولا يخفى على النـاظر الأريب بعـد مـا قدمناه، دخول هذه الآداب وغيرها فيما اشـتمل عليه كلام الشـيخ رضـي اللـه عنـه في رسـائله ووصاياه، وانـدراجها فيمـا أشـارت إليـه سـيرته السنية من فضائله ومزاياه.

تكميل:

قد تقدم أن اختيار الصـحبة والأخـوة عمـل، وأن كل عمـل يحتـاج إلى حسـن الابتـداء، وهـو النية على الوجه الذي تقدم بيانه. وقد قـالوا إن العمل كما يحتاج إلى حسن الابتـداء يحتـاج إلى حسـن الاختتـام، فحصـول النتيجـة في الصـحبة والأخـوة مشـروط بحسـن الاختتـام، وقـد قـال صلى الله عليه وسلم في السبعة الـذين يظلهم الله تعـالى بظلـه على مـا في بعض الروايـات: **«وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ فَعَاشَا عَلَى ذَلِكَ وَمَاتَا عَلَيْهِ»**. قال في عوارف المعـارف: فيـه الإشارة إلى أن الأخوة والصـحبة من شـرطهما حسن الخاتمة حتى يكتب لهما ثواب المواخاة.

قـال: ومـتى فسـدت المواخـاة بتضـييع الحقوق فيها، يعني في آخر الأمر، فسد العمـل من الأول. ومن هنـا كـان الشـيطان لعنـه اللـه أشد حرصا على إفساد مـا بين المتواخـيين في الله، وقد قـالوا: مـا حسـد الشـيطان متعـاونين

على بر حسده على متواخيين في الله متحابين فيه، فإنه يجهد نفسه ويحث قبيلـه على إفسـاد ما بينهما. اهـ. أي يوقع بينهما المخالفة في أمـر ما فيستوحش بعضهما من البعض.

قال الجنيد رضي الله عنه: ما تواخى اثنـان في الله واستوحش أحـدهما من الآخـر إلا لعلـة في أحـدهما، فالمواخـاة في اللـه أصـفى من الزلال، وما كان لله فالله مطالب بالصـفاء منـه وكلما صفا دام، والأصل في دوام صـفائه عـدم المخالفة. اهـ.

وقد قالوا: إن أقل ما يزينـه الشـيطان للأخ في معاملـة أخيـه، التسـاهل في القيـام بحقـه اتكـالًا على مـا بينهمـا من المـودة، وهـذا من مكـره الخفي والعيـاذ باللـه. ولـذلك نبَّه عليـه مشايخ الطريق رضي الله عنهم. قال عبـد اللـه بن الجلاء: لا تُضيع حق أخيك بما بينك وبينه من المحبة والمـودة، فـإن اللـه تعـالى فـرض لكـل مؤمن حقوقا لا يضـيعها إلا من لم يـراع حقـوق الله. اهـ.

ففي الحـديث عن ابن مسـعود رضـي اللـه عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قـال: **«الْـــمُتَحَابُّونَ فِي اللـهِ عَلَى عَمُـودٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، فِي رَأْسِ الْعَمُودِ سَـبْعُونَ أَلْفَ غُرْفَةٍ مُشْـرِفُونَ عَلَى أَهْـلِ الْـجَنَّةِ، يُضِيءُ حُسْنُهُمْ لِأَهْلِ الْـجَنَّةِ كَمَـا تُضِـيءُ الشَّـمْسُ لِأَهْـلِ الـدُّنْيَا، فَيَقُـولُ أَهْـلُ الْـــجَنَّةِ: انْطَلِقُـــوا بِنَـــا نَنْظُـــرُ (إِلَى)**

الْـــمُتَحَابِّينَ فِي اللــهِ عَــزَّ وَجَــلَّ، فَـإِذَا أَشْرَفُوا عَلَيْهِمْ (أَضَاءَ لَـهُمْ) حُسْنُهُمْ كَمَا تُضِيءُ الشَّمْسُ لِأَهْلِ الدُّنْيَا، عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُـنْدُسٌ خُضْـرٌ مَكْتُـوبٌ عَلَى جِبَـاهِهِمْ: هَؤُلَاءِ الْـمُتَحَابُّونَ فِي اللهِ».

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه (أنه) قال لمن قال له "إني أحبك في الله": أبشر ثم أبشر، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**تُنْصَبُ لِطَائِفَـةٍ مِنَ النَّاسِ كَرَاسِـي حَـوْلَ الْعَـرْشِ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وُجُـوهُهُمْ كَـالْقَمَرِ لَيْلَـةَ الْبَـدْرِ، يَفْـزَعُ النَّاسُ وَلَا يَفْزَعُـونَ، وَيَخَـافُ النَّاسُ وَلَا يَخَافُونَ، وَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**». فقيل: من هؤلاء يا رسول اللـه؟ قـال: « **الْـــمُتَحَابُّونَ فِي اللــهِ عَـزَّ وَجَلَّ**».

وروى عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**يَقُولُ اللهُ عَـزَّ وَجَلَّ: حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَـابِّينَ فِيَّ، وَالْـــمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْـــمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ ، وَالْـمُتَصَافِينَ فِيَّ**». اهـ .

قال ابن جزي في قوانينه: اختلفت مـذاهب النـاس في صـحبة النـاس: فمنهم من اختـار الصحبة لقصد النفع والانتفاع، ولفضل الأخوة في اللـــه، أي للأحـــاديث الكثـــيرة في ذلـــك، كحـديث: «**الْـمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، أَفْضَلُ مِنَ الْـمُؤْمِنِ**

الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»، وكحديث: «**إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا زَارَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ تَبِعَهُ سَبْعُونَ أَلْفِ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ، كَمَا وَصَلَهُ فِيكَ فَصِلْهُ** »، وكحديث: «**نَظْرَةٌ فِي وَجْهِ أَخٍ فِي اللهِ خَيْرٌ مِنْ أَجْرِ مَنِ اعْتَكَفَ فِي مَسْجِدِي أَرْبَعِينَ سَنَةً**»، وكحديث: «**إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي، الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي»**. اهـ. بخ.

قال: ومنهم من اختار الانقباض والعزلة لأنها أقرب إلى السلامة، ولأن شروط الصحبة قلَّ ما توجد. اهـ.

وفي القسطلاني عند حديث: «**يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ وَمَوَاقِعَ القَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ»**، ما نصه:

فالعزلة عند الفتنة ممدوحة إلا لقادر على إزالتها فتجب الخلطة عينا أو كفاية بحسب الحال والإمكان.

واختلف فيهما عند عدمها: فمذهب الشافعي تفضيل الصحبة لتعلمه، وتعليمه، وعبادته، وأدبه، وتحسين خلقه بحلم واحتمال وتواضع، ومعرفة أحكام لازمة، وتكثير سواد المسلمين، وعيادة مريضهم، وتشييع جنازتهم، وحضور الجمعة والجماعات؛ واختار آخرون العزلة للسلامة المحققة، وليعمل بما علم،

ويأنس بدوام ذكره؛ فبالصحبة والعزلة كمال المرء.

نعم تجب العزلة لفقيه لا يسلم دينه بالصحبة، وتجب الصحبة لمن عرف الحق فاتبعه، والباطل فاجتنبه، وتجب على من جهل ذلك ليعلمه، فافهم. اهـ.

وتتبع القول في هذا المبحث يفضي إلى الإسهاب، وفي هذا كفاية لذوي الألباب، وما يوجد فيه من تكرار ما مع الفصل يليه أوجبه قصد الإيضاح والتنبيه.

فصل

في ذكر فضيلة الاستماع، وذكر شيء مما يختص به من الآداب الموصلة إلى طريق الفهم وكمال الانتفاع

قد ذكر أئمة الهدى وأعلام الطريق اعتبار هذا على الجملة، لأنه لم يظهر وجود طريق السعادة ولا عُلم الفرق بينها وبين طريق الشقاء إلا بالقول الإلهي والسمع الكوني، قالوا: فما ثم إلا قول وسمع غير هذين لم يكن، فلولا القول ما علم مراد الحق سبحانه منا، ولولا السمع ما وصلنا إلى ما قيل لنا، فأول شيء علمناه من الحق القول منه والسمع منا. وقد قدَّم سبحانه في كتابه الحكيم السميع على

العليم وعلى البصير، فقال تعالى: (**سَمِيعٌ عَلِيمٌ**)، (**سَمِيعٌ بَصِيرٌ**).

قال السهروردي رضي الله عنه: قال سفيان بن عيينة رحمه الله: أوَّلُ العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر. اهـ.

يريد أن أول العلم حسن الاستماع، بدليل ترتب الفهم عليه، إذ الفهم إنما يحصل بحسن الاستماع لا بمجرد الاستماع فافهم.

وقد قيل في قوله تعالى: **(وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ)**، وقوله تعالى: **(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ)** الآيتين، أن في ذلك تعليما من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم حسن الاستماع.

وقال بعضهم: تعلم حُسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام. اهـ.

وحسن الاستماع يكون بكمال الأدب فيه .

قال يوسف بن الحسين: بالأدب يفهم العلم، وبالعلم يصح العمل، وبالعمل تنال الحكمة، وبالحكمة يقام الزهد، وبالزهد تترك الدنيا، وبترك الدنيا يرغب في الآخرة، وبالرغبة في الآخرة تنال الرتبة عند الله تعالى. اهـ.

فعلم من قوله: بالأدب يفهم العلم، أن حسن الاستماع يحصل بكمال الأدب في الظاهر والباطن:

فأما كمال الأدب في الباطن فيكون بإخلاص النية في القصد إلى الاستماع، وبتطهير

المحل بالتوبة والاستغفار، وبتحقيق الافتقار إلى الله تعالى واللجأ إليه وسؤاله بلسان الاضطرار، أن يعلمه ما لم يكن يعلم.

وعن كمال الأدب في الباطن ينشأ كمال الأدب في الظاهر عند المحققين من أهل الطريق، فينشأ عما تقدم من كمال الأدب في الباطن الهيبة والوقار وخشوع الجوارح والسكون والتفرغ من الشواغل، ونحو ذلك مما هو عنوان حسن الأدب في الباطن.

وقد حكي أن الشيخ أبا حفص النيسابوري لما ورد العراق وجاء إليه الجنيد فرأى أصحاب أبي حفص وقوفا على رأسه يأتمرون لأمره ولا يخطىء أحدٌ منهم، فقال: يا أبا حفص، أدَّبت أصحابك أدب الملوك، فقال أبو حفص: لا يا أبا القاسم، ولكن حُسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن. اهـ. ويشهد له حديث: **«لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ، لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ»** الحديث.

فتحصَّل أن حسن الاستماع إنما يكون بكمال الاستعداد لذلك بحسب مقام المستمع في ذلك وحاله.

ثم هذا إنما هو في الأصل عند أهل هذا الشأن في سماع كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم اللذين لا تنقضي فوائدهما، ولا تنفد على مر الدهر عجائبهما.

وألحق أئمة المشايخ رضي الله عنهم بسماع القرآن العظيم والحديث الشريف،

مطالعة الكتب المتضمنة لما استنبط منهما بطريق التعريف، من العلوم السنية والنور البديع والسر المنيف.

ومما يشير إلى أن حسن الاستماع إنما يكون بالاستعداد، قوله سبحانه: **(وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)**. قال بعضهم: لو علمهم أهلا للاستماع لفتح آذانهم للاستماع، فمن تملكته الوساوس وغلب على باطنه حديث النفس لا يقدر على حسن الاستماع. اهـ.

ويشير إلى هذا أيضا قوله تعالى: **(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)**:

قال الفخر الرازي في تفسيره: أي قلبٌ موصوف بالوعي أي قلبٌ واعٍ، يقال فلان له مال أي كثير، فالتنكير يدل على معنى الكمال. اهـ. الغرض منه. وفيه الإشارة إلى ما ذكرناه من الاستعداد.

قال في العوارف: قال يحيى بن معاذ الرازي: القلب قلبان: قلب قد احتشى بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من أمور الطاعة لم يدر ما يصنع؛ وقلب قد احتشى بأحوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر ما يصنع. اهـ. وهذا القلب الثاني هو الذي حصل له الاستعداد لدرك العلوم الفاخرة، وفهم الأسرار الباهرة.

وقال بعضهم في الآية: لمن كان له قلب سليم من الأغراض والأمراض. وقال ابن سمعون في الآية: لمن كان له قلب سليم يعرف آداب الخدمة.

وآداب القلب ثلاثة أشياء: فالقلب إذا ذاق طعم العبادة أعتق من رق الشهوة، فمن وقف على شهوته (وجد) ثلث الأدب؛ ومن افتقر إلى ما لم يجد من الأدب بعد الاشتغال بما وجد، فقد وجد ثلثي الأدب؛ والثالث امتلاء القلب بالذي بدأ بالفضل منه تفضلا. اهـ.

وقد قال محمد بن علي الترمذي رحمه الله: موت القلب من شهوات النفس، فكلما رفض شهوة نال من الحياة بقسطها، والسماع للأحياء لا للأموات، قال تعالى: **(إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى)** الآية. اهـ.

ومدار هذه العبارات كلها على حصول كمال الاستعداد للسماع حسبما تقدمت الإشارة إليه. فالعبد إذا حصل له الاستعداد للسماع، واتَّصف بالحياة التي يتأهل بها عند الله تعالى للاستماع، سمع كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم وكذا ما استنبط منهما حق السماع، وحظي في جميع معاملاته بأكمل حالات الاتباع، كما قال تعالى: **(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ)**. قالوا: وفي هذه الآية الكريمة التصريح بالثناء على المتصفين بحسن

الاستماع، الناشىء عنه حسن الاتباع، بأنهم (الذين) هداهم الله، وأنهم هم أولو الألباب، وناهيك (بهذا) فخرا لمن أهله الله تعالى لهذه المزية العظيمة، والخصوصية الجسيمة. اهـ.

وفي بعض كتب حجة الإسلام الغزالي رحمه الله في وصية:

أيها الطالب للعلوم والناظر في التصانيف، والمستشرف على كلام الناس وكتب الحكمة، ليكن نظرك فيما تنظر إليه بالله، ولله، وفي الله. لأنه إن لم يكن نظرك به وكلك إلى نفسك أو إلى من جعلت نظرك به؛ وكذلك إن لم يكن نظرك له فقد صار عملك لغيره **(فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)**؛ وكذلك إن لم نظرك فيه فقد أثبت معه غيره، ولاحظت بالحقيقة سواه. وإذا نظرت في كلام أحد من الناس ممن قد شهر بالعلم، فلا تنظر بازدراء، ولا تقطع له بصحة، ولا تقطع عليه بفساد، وليكن تحسين الظن أغلب عليك حتى يزول الإشكال عنك بما تتيقن من معانيه، وإذا رأيت له حسنة وسيئة فانشر الحسنة واطلب المعاذير للسيئة، ولكل عالم عذر، وله في بعض ما يأتي به احتجاج، وناهيك بما جرى بين ولي الله تعالى الخضر وكليمه موسى عليهما السلام. وإذا ظهر لك من كلام عالم إشكال، يؤذن في الظاهر بمحال أو اختلال، فخذ ما

ظهر لك علمه، ودع ما اعتاص عليك فهمه، وَكِل العلم فيه إلى الله تعالى.

فهذه وصيتي فاحفظها. اهـ.

ومن الأدب في هذا المقام ما ذكره في العوارف: وهو أن العبد إذا أراد أن يطالع شيئًا من الحديث والأخبار يعلم أنه قد تكون مطالعة ذلك بداعية النفس وقلة صبرها على الذكر والتلاوة والعمل، فيتروَّح بالمطالعة كما يتروح بمجالسة الناس ومكالمتهم، فليتفقد الفطن نفسه في ذلك، ولا يستحلي مُطالعة الكتب إلى حد يأخذ من وقته. اهـ .

وعلى هذا الأدب، كما قال بعض خاصة سيدنا رضي الله عنه، رأيت عمل بعض الفضلاء الأعيان من خاصة أصحابنا الموفقين، وقد استعان على ذلك بضابط حسن، وهو أنه جزأ أوقاته الليلية والنهارية، فجعل جزءًا للتدريس، وجزءًا لمطالعته، وجزءًا لإقامة أوراده، وجزءًا لنومه، وهكذا سائر الأعمال المتعاقبة بالليل والنهار، فلم يأخذ شيء منها بوقته، وهذا كما لا يخفى نظر سديد، لا يصدر إلا عن رأي رشيد، مؤيد بالعناية والتوفيق من الرب المجيد. اهـ. بخ.

ثم قال: قد مثل بعض الحكماء تفاوت الناس في الاستماع، فقال: كالباذر خرج ببذره فملأ منه كفه، فوقع منه شيء على ظهر الطريق، فلم يلبث أن انحطت عليه الطير

فاختطفته؛ ووقع منه شيء على الصفوان وهو الحجر الأملس عليه تراب يسير وندى قليل، (فنبت) حتى إذا وصلت عروقه إلى الصفوان لم يجد مساغا ينفذ فيه فيبس؛ ووقع منه شيء على أرض طيبة فيها شوك ثابت فنبت، فلما ارتفع خنقه الشوك فأفسده واختلط به؛ ووقع منه شيء على أرض طيبة، ليس على ظهر الطريق ولا على الصفوان ولا على أرض فيها شوك، فنبت ونما وصلح. فمثل الباذر (مثل الحكيم، ومثل) البذر كمثل صواب الكلام، ومثل ما وقع على ظهر الطريق مثل الرجل يسمع الكلام وهو لا يريد أن يسمعه، فما يلبث الشيطان أن يختطفه من قلبه فينساه، ومثل الذي وقع على الصفوان مثل الرجل يستمع الكلام فيستحسنه، ثم تفضي الكلمة إلى قلب ليس فيه عزم على العمل فينسخ من قلبه، ومثل الذي وقع في أرض طيبة فيها شوك مثل الرجل الذي يستمع إلى الكلام وهو ينوي أن يعمل به، فإذا اعترضت له الشهوة قيدته عن النهوض بالعمل، فترك ما نوى عمله لغلبة الشهوة، كالزرع يختنق بالشوك، ومثل الذي وقع في أرض طيبة ليس على ظهر الطريق ولا على الصفوان ولا على ذات شوك مثل المستمع الذي ينوي عمله فيفهمه ويعمل به ويجانب هواه. اهـ.

وإنما يحصل هذا بالاستعداد والبراءة من الشهوة والهوى، كما تقدمت الإشارة إليه.

وبيان هذا أن للشهوة والهوى حلاوة قد أشربت لذتها النفس، فهي تركن إليها، وتلك اللذة هي التي تخنق النبت كالشوك، وعندما يحصل الاستعداد باحتراق الشهوات والهوى بنار الذكر، ينازل القلب حلاوة الحب الإلهي، والحب الإلهي يعلق الروح بالحضرة القدسية، ومن قوة انجذاب الروح إلى الحضرة الإلهية بداعية الحب الصرف يستتبع الروح القلب والنفس وحلاوة الحب للحضرة الإلهية تغلب حلاوة الهوى، لأن حلاوة الهوى **(كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ)** لكونها لا ترتقي عن النفس، وحلاوة الحب الإلهي **(كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ)**، فإذا سمع هذا الذي حصل له الاستعداد الكلمة من كلام الله ورسوله يتشربها بالروح والقلب والنفس ويقويها بكليته، ويقول:

أشم منك نسيمًا لسْت أعْرفه=كأن لمياء جرَّت فيك أذيالا

فتعمه الكلمة وتشمله وتصير كل شعرة منه سمعا، وكل ذرة منه بصرا، فيسمع الكل بالكل، ويبصر الكل بالكل، ويقول:

إن تأملتكم فكلي عيون=أو تذكرتكم فكلي قلوب

وفي هذا القدر من الكلام في حسن الاستماع، كفاية في التوصل إلى باب الاطلاع،

وإلا فـــالقول فيـــه واســـع، يكـــل عنـــه القلم والمســـامع، وباللـــه التوفيـــق. اهـــ. بخ. وزيـــادة وتصرف من شرح المنية.

فصل

في ذكر نبذة من منشأ الطريق، وبعض مـا اختص به أهلها من أسرار الأذواق والتحقيق.

ولا خفاء أن ذلك ممـا يهم تقييـده وتدوينـه، ويتأكد في حق أهل الطريق تعلمـه وتعليمـه، إذ هو بالنظر فيه يرتقي المريد الموفق بحول الله عن حضيض الجمـود على ظـواهر الأنقـال، إلى أوج النظر في أرواح المعاني ولباب علوم أهـل الكمال. وأدنى ما اشـتمل عليـه من الفوائـد أن يسلم الناظر فيه بتوفيق اللـه من أن ينكـر من كلام أهـل اللـه مـا لم يبلغـه علمـه، أو يـرد من إشاراتهم مـا لم يصـل إليـه فهمـه. وناهيك من فائـدة تضـرب إليهـا أكبـاد الإبـل، وتتفـانى في تحصيلها النفوس الزكية.

قال الشيخ أبو يزيد البسطامي رضـي اللـه عنـه: إذا رأيتم من يـؤمن بكلام أهـل الطريـق فاسألوه يدع لكم، فإنه مجاب الدعوة. اهـ.

وقال الشيخ محيي الدين رضـي اللـه عنـه: أقل درجات أهل الطريق التسليم فيما لا تعلمه

أنت، وأعلاها القطع بصدقه، وما عدا هذين المقامين فحرمان. اهـ.

واعلم أن العلم ينقسم بحسب ما يجب اعتباره هنا إلى قسمين: علم الظاهر، وعلم الباطن. أما علم الظاهر فالمراد به العلم الشرعي المفيد لما يلزم المكلف في أمر دينه عبادة ومعاملة، وهو يدور على التفسير والحديث وعد منه النحو واللغة وأصول الفقه ونحوها كما هو مُبين في كتب أهل العلم.

- وأما علم الباطن فهو نوعان:

الأول: علم المعاملة، وحقيقته النظر في تصفية القلب وتهذيب النفس، باتقاء الأخلاق الذميمة التي ذمَّها الشرع، كالرياء والعجب وحب العلو والثناء والفخر، ليتصف بالأخلاق الحميدة كالإخلاص والشكر والصبر والزهد والتقوى والقناعة، ليصلح عند إحكامه لذلك لعمله بعلمه ليرث ما لم يعلم، فعلمه بلا عمل وسيلة بلا غاية وعكسه جناية، واتفاقهما بلا ورع كلفة بلا أجرة، فأهم الأمور زهد واستقامة لينتفع بعلمه وعمله.

وهذا النوع فرض عين في فتوى علماء الآخرة، فالمعرض عنه هالك بسطوة ملك الملوك في الآخرة، كما أن المعرض عن الأعمال الظاهرة هالك بسيف سلاطين الدنيا بحكم فتوى فقهاء الدنيا.

وأما النوع الثاني: فهو علم المكاشفة، وهو نور يظهر في القلب عند تزكية النفس،

فتظهر به المعاني المجملة فتحصل لصاحبه المعرفة بالله تعالى وبأسمائه وصفاته وكتبه ورسله، وتنكشف له الأستار عن مخبآت الأسرار، فافهم وسلم تسلم، ولا تكن من المنكرين، فتهلك مع القوم الهالكين.

وهذا النوع هو الذي قال فيه بعض العارفين: من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخشى عليه سوء الخاتمة، وأدنى النصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله، والله تعالى أعلم. اهـ. انظر إرشاد الساري.

ثم إن علم الباطن بنوعيه هو غاية العمل بعلم الظاهر وزبدته ونتيجته وثمرته. وذلك أن العبد إذا عمل بالشريعة ووقف عند حدودها بالمحافظة على شروطها وآدابها، يستضيء قلبه لا محالة من فضل الله تعالى بأنوار الإيمان، فينقدح له في الباطن ما لا يكيف من غرائب العلوم والآداب، وعجائب أسرار الحقائق والعرفان، فيطلع من علوم الشريعة وآدابها على ما لا تحيط به الأفكار، ويتحقق من المعارف الإلهية والأسرار الربانية بما يحير أذهان النظار. اهـ.

قال الشيخ محيي الدين رضي الله عنه: علومنا وعلوم أصحابنا ليست من طريق الفكر، وإنما هي من الفيض الإلهي، وذلك لأن علوم الفكر يتطرق إليها الفساد والصحة فهي مظنونة فلا يوثق بما تعطيه.

قال: وأعني بأصحابنا أصحاب القلوب والمشاهدة، لا العبَّاد والزهَّاد، ولا مطلق الصوفية إلا المحققين منهم.

وقد كان الشيخ أبو يزيد يقول لعلماء زمانه: أخذتم علمكم ميتًا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت. وكان بعض العارفين يقول: نحن قوم يحرم النظر في كتبنا على من لم يكن من أهل طريقنا، وكذلك لا يجوز أن ينقل كلامنا إلا لمن يؤمن به، فمن نقله إلى من لا يؤمن به دخل هو والمنقول إليه جهنم الانكار. اهـ. وقد صرح بذلك أهل الله على رؤوس الأشهاد، وقالوا: من باحَ بالسِّر فقد استحق القتل. اهـ.

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى: للعارفين خزائن أودعوها علوما غريبة، وأنباءً عجيبة، يتكلمون فيها بلسان الأبدية، ويخبرون عنها بعبارة أزلية، وهي من العلم المجهول. اهـ.

قال في العوارف: وقوله: بلسان الأبدية وعبارة أزلية، إشارة إلى أنهم ينطقون بالله. اهـ. وقوله: وهي من العلم المجهول، أراد به العلم الذي لا يهتدي إلى فهمه والاطلاع عليه إلا العلماء بالله، وهو المشار إليه في الحديث الذي رواه ابن عيينة عن ابن جريج عن عطاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **«إِنَّ مِنَ الْعِلْمِ كَهَيْئَةِ الْمَكْنُونِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الْعُلَمَاءُ**

بِاللهِ، فَإِذَا نَطَقُوا بِهِ لَا يُنْكِـرُهُ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَهْلُ الْغِرَّةِ بِاللهِ». اهـ.

ومن صرَّح بأن علم العارفين بالله هو المشار إليه في هذا الحديث، العارف بالله ابن عباد الرندي رضي الله عنه بقوله: فلا شك أن العارفين بالله تعالى هم المكاشَفون بصريح العلم، وأن علمهم هو العلم اللدني الذي لا بقاءَ للجهل معه، كما أن طلوع الشمس لا بقاء للظلام معه. فهو العلم الصحيح الذي لا يتطرق إليه الفساد بحال، لأنه ليس من طريق الفكر.

قال الشيخ محيي الدين رضي الله عنه: علومنا وعلوم أصحابنا ليست من طريق الفكر، وإنما هي من الفيض الإلهي. اهـ.

قال الشيخ علي الروذباري: علمنا هذا إشارة فإذا صار عبارة خفي. اهـ.

ومن هنا احتاج أهل الله تعالى إلى وضع الإشارات المصطلح عليها فيما بينهم، فيتكلمون بها عند حضور الغير وفي تآليفهم ومصنفاتهم لا غير، ولم يضعوها لأنفسهم لأنهم يعلمون الحق الصريح في ذلك. والحامل لهم على وضعها الشفقة على الدخيل بينهم، خشية أن يسمع منهم أو يرى في تآليفهم شيئًا لا يصل إليه فهمه، فينكره، فيعاقب بحرمان علمه فلا يعلمه بعد، والعياذ بالله تعالى. اهـ. بخ. انظر شرح المنية لفريد عصره ونقيب أوانه سيدي محمد العربي بن السائح العمري رضي الله

عن شـيخنا وعنـه وعنـا بـه آمين، تقـف على العجب العجاب، في هذا الباب.

فصل

في ذكر بعض مـا يشـير إلى حقيقـة الأدب إجمالا، وبيان منشأه ومكانتـه من طريق أهل الكمـال، الـذين اختصـهم ذو الجلال

قال الشيخ محيـي الـدين رضـي اللـه عنـه: الأدب جمـاع الخـير، وهـو ينقسـم إلى أربعـة أقسام في اصطلاح أهل الله:

القسم الأول: أدب الشريعة. وهو الأدب الإلهي الذي يتولى الله تعليمه بالوحي والإلهام، به أدَّب الله نبيه صلى اللـه عليـه وسلم، وبـه أدبنا صلى الله عليـه وسـلم، فهم يعـني الأنبيـاء عليهم الصـلاة والسـلام المؤدَّبـون المؤدِّبـون. وفي الحـديث: «**إِنَّ اللـهَ أَدَّبَنِي فَأَحْسَـنَ تَأْدِيبِي**».

القسم الثاني: أدب الخدمـة. وهـو مـا اصـطلحت عليـه الملـوك في خدمـة خـدمها، وملك أهل الله هو اللـه تعـالى. وقـد شـرع لنا كيفية الأدب في خدمته وهو معاملتنا إيـاه فيمـا يختص بـه دون خلقـه، فهـو خصـوص في أدب

الشريعة، لأن الشريعة جامعة لحق لله تعالى وحق الخلق.

القسم الثالث: أدب الحق. وهو الأدب مع الحق في اتباعه عند كل من يظهر عنده ويحكم به، فترجع إليه وتقبله ولا ترده. ولا تحملك الأنفة إن كنت ذا كبر في السن أو المرتبة، أن لا تقبل الحق ممن هو أصغر منك سنا أو مرتبة، وهذا هو الانصاف.

القسم الرابع: أدب الحقيقة. و هو ترك الأدب بعنائك ورد ذلك كله إلى الله تعالى. اهـ.

والمراد بقوله: ترك الأدب بعنائك، ترك شهوده لا ترك وجوده، كما هو مصطلح الشيخ في جميع التروك المترجم لها في كتابه الفتوحات. اهـ.

وفي بعض شروح الرسالة نقلا عن بعضهم في حقيقة أدب أهل الله تعالى: أنه ضبط الحواس، ومراعاة الأنفاس، بالتفكر في مصنوعات الله تعالى. اهـ.

وفي العوارف عن عبد الله بن المبارك رضي الله عنه أنه قال: قد أكثر الناس في الأدب ونحن نقول الأدب معرفة النفس.

ثم قال بعده: هذه إشارة منه رحمه الله تعالى إلى أن النفس منبع الجهالات، وترك الأدب من مخامرة الجهل، فإذا عرف العبد النفس صادف نور العرفان على ما ورد: «من عرف نفسه فقد عرف ربه». ولهذا النور لا

تظهر النفس بجهالة إلا ويقمعها بصريح العلم (وحينئذ) يتأدب. اهـ.

وفي كلام غير واحد من المشايخ في تفسير هذا الخبر، ما يبين ما ذكره في العوارف عن سيدنا عبد الله بن المبارك مع ما فسَّره به.

قال الشيخ محي الدين النووي رحمه الله في فتاويه: معناه من عرف نفسه بالذل والافتقار إلى الله والعبودية له، عرف ربَّه بالقوة والربوبية والكمال المطلق والصفات العلى. اهـ.

وقال ابن عطاء الله رحمه الله في لطائف المنن: سمعتُ شيخنا أبا العباس المرسي رضي الله عنه يقول: في هذا الحديث تأويلان **أحدهما:** من عرف نفسه بذلها وعجزها وفقرها عرف الله بعزه وقدرته وغناه، فتكون معرفة النفس أولًا ثم معرفة الله من بعد؛ **والثاني:** من عرف نفسه فقد دل ذلك منه على أنه عرف الله قبل. فالأول حال السالكين، والثاني حال المجذوبين. اهـ.

وقال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه في قوت القلوب: معناه إذا عرفت صفات نفسك في معاملة الخلق وأنك تكره الاعتراض عليك في أفعالك و أن يعاب عليك ما تصنع، عرفت منه صفات خالقك وأنه يكره ذلك، فارض بقضائه وعامله بما تحبُّ أن تعامل به. اهـ.

وقول أبي طالب هذا صريح في المراد، وإن كانت هذه الأقوال كلها تتسابق إلى المرمى المقصود تسابق خيل الطراد.

وقد ذكر هذه الأقوال السيوطي رحمه الله في جوابه عن هذا الحديث بعد أن قال فيه: إنه ليس بصحيح؛ ونقل عن النووي أنه قال فيه في فتاويه: ليس بثابت؛ وذكر عن الزركشي أنه قال فيه في الأحاديث المشتهرة: ذكر ابن السمعاني أنه من كلام يحيى بن معاذ الرازي. اهـ.

وقال ابن عطاء: الأدب الوقوف مع المستحسنات، قيل له: ما معنى ذلك؟ قال: أن تعامل الله سرا وعلانية بالأدب، فإن كنت كذلك كنت أديبا وإن كنت أعجميا، ثم أنشد:

إذا نطقَتْ جاءت بكل مليحة=وإن سكتت جاءت بكل مليح

وحاصل هذه العبارات التي عبر بها هؤلاء المشايخ الكمل رضي الله عنهم في بيان حقيقة الأدب، يرجع إلى أن المراد بالأدب ما تحسن به حالة العبد فيما بينه وبين الله تعالى، وفيما بينه وبين ملائكته سبحانه، وكتبه، ورسله، وسائر الناس على اختلاف طبقاتهم وأنواعهم.

وعلى هذا فلا يخرج الأدب عند التأمل، عن الأقسام الأربعة التي ذكرها الشيخ محيي الدين رضي الله عنه، ولا تخرج هذه الأقسام الأربعة عن قسمين: أدب الفقهاء وأدب الصوفية، ويندرج الأول منهما في الثاني، فتصير إلى

قسم واحد حسبما أفصح به في جواهر المعاني.

ونص كلامه فيه رحمه الله تعالى:

والأدب عند الفقهاء عبارة عن القيام بما بعد الواجبات والسنن، من الفضائل والرغائب المتعلقة بأحوال الإنسان، من نوم ويقظة، وأكل وشرب، (وذكر) ودعاء، ونحو ذلك.

وعند الصوفية عبارة عن جميع خصال الخير وأوصاف البر، فهو وصف جامع لصفات مجيدة، وأخلاق حميدة، تُناسب أوصاف العبودية وجلال الربوبية، من جمعها كان أديبا متأدبا مع الله تعالى ومع رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم قال: والأدب بالمعنى الأول مندرج في هذا. اهـ.

وبهذا يعرف أن الحديث السابق وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «**أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي، ثُمَّ أَمَرَنِي بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ**»، أصل جامع لجميع العبارات، مُستوف لسائر هذه التقسيمات والإشارات، ويعلم أن الأدب هو الجمع لمكارم الأخلاق والأفعال، ومحاسن الصفات والخلال، على أتم ما يكون من وجوه الكمال، في حق الله تعالى وفي حق عبيده على التفصيل والإجمال، مع الوقوف في ذلك كله عند الحد المحدود فيه شرعا، فلا يرتكب في شيء منه آداب العامة التي تبعدهم عن الله (**وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**).

وقد كان سيدنا رضي الله عنه كما في جواهر المعاني لا يحب ارتكاب شيء منها أصلا، اقتصارًا منه رضي الله عنه على ما ورد في الشريعة، وتخلقا بأخلاق السنة الرفيعة.

وإذا عُرف أن هذا الحديث الشريف أصل لجميع العبارات في الأدب على ما قرر، وعُلم من ذلك أن الأدب هو الجمع لمكارم الأخلاق ومحاسن الصفات على ما بُيِّن وسُطِّر، فيجب أن يعلم أن منبع جميع الآداب المرضية، السجايا الصالحة المركبة في طبائع النفوس الزكية، ولا شك أن السجية باتفاق من أهل العلم والنظر، هي فعل الله تعالى المحض الذي ليس شيء منه في طوق البشر، ولكن الله تعالى بنافذ قدرته، وصالح مشيئته، وبالغ حكمته، جعل لمن أهَّله من عباده للهدى والصلاح، وهيأه بفضله وكرمه للرشد والفلاح، استخراجها بطريق الرياضة والتربية، واكتسابها من جهة المجاهدة والتزكية، وذلك كما قاله في العوارف، لأن الله تعالى خلق الإنسان وهيأه لقبول الصلاح والفساد، وجعله أهلا للآداب ومكارم الأخلاق، ووجود الأهلية فيه كوجود النار في الزناد، ووجود النخل في النوى، ثم إن الله تعالى بقدرته ألهم الإنسان ومكنه من إصلاح النوى بالتربية إلى أن يصير نخلا، والزناد بالعلاج حتى تخرج منه نار، وكما جعل في الإنسان صلاحية الخير والشر أحال الإصلاح والإفساد عليه، فقال تعالى: **﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا،**

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)، فتسويتها بصلاحيتها للشيئين جميعا، ثم قال: **(قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا)**. فإذا تزكت النفس تدبرت بالعقل واستقامت أحوالها الظاهرة والباطنة وتكونت الآداب. اهـ.

وهذا الذي ذكره من أن الله تعالى أحال الإصلاح والإفساد على الإنسان كما دلَّت عليه الآية الكريمة، هو المذهب الحق والقول الأصح، من أن تبديل الأخلاق ممكن مقدور عليه، خلافا لمن منع مستدلا (بظاهر) قوله تعالى: **(لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ)**، وبظاهر حديث: **«فَرَغَ رَبُّكَ مِنْ أَرْبَعٍ»** الحديث.

واستدل لهذا القول أعني القول بأن تبديل الأخلاق ممكن إلخ بهذه الآية، أعني قوله تعالى: **(قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا)**، وكذا بقوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)**، فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في تفسيرها: فقِّهوهم وأدبوهم. اهـ.

ومما استدل به له أيضا قوله صلى الله عليه وسلم **«حَسِّنُوا أَخْلَاقَكُمْ»** إلخ.

نعم قد تقع الآداب في حق بعض الأشخاص كما قام فيها أيضا من غير تزكية ولا رياضة، لقوة ما أودع الله في غرائزهم.

قال: ومن يحتاج إليها من الناس فإنما يحتاج إليها لنقصان قوة أصولها في الغريزة، ولهذا احتاج المريدون إلى صحبة المشايخ

لتكون الصحبة والتعليم عونا على استخراج ما في الطبيعة إلى الفعل. اهـ. ملخصا.

ومدار التربية والتزكية، في طريقتنا هذه المحمدية الشريفة المرضية، على إقامة الورد الأصلي المعلوم، الذي لا يصح الدخول فيها بدونه لأحد من الخصوص ولا من العموم، وكذا توابعه من الأذكار المشمولة باللزوم معه، وهي الوظيفة المعروفة وذكر الهيللة بعد عصر يوم الجمعة، بالمحافظة في جميع ذلك على الشروط المشروطة، والآداب التي هي بغاية الحسن ونهاية الكمال منوطة، وآكد الشروط وأعظمها المحافظة على الصلوات الخمس بآدابها على الحدود المحدود لها شرعا بقدر الإمكان، واستكمال شروطها وآدابها وإتمام ما لها من الأركان، ثم عمارة ما يقدر على عمارته من الأوقات والساعات، بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم خصوصا بصلاة الفاتح لما أغلق التي هي من أسمك (أي أرفع) الذخائر وأسنى البضاعات، على طريق المحبة والشكر، والاعتماد على الفضل المحض الذي ليس عليه إلا في بساط التحقيق المعول، من غير التزام خلوة، ولا كثرة مجاهدة، ولا غير ذلك مما اصطلح عليه في التربية من بعد الصدر الأول، إذ هذه طريقة سيدنا رضي الله عنه التي سلكها وأمره بالتسليك عليها سيد الوجود، ومنبع الأمداد والجود، صلى الله عليه وسلم.

اهـ. منه أيضا. وهو في هذا المبحث مقنع ومفيد، يرغم المعاند ويغني المؤمن السعيد.

فصل

في الكلام على بعض آداب الحضرة العلية، وبعض ما اتصف به من ذلك أهل المراتب السنية.

وتقدم فيما قبله كفاية، من الكلام في حقيقة الأدب، ولما كانت مطالعته داعية بتوفيق الله إلى التعلق بحبله المتين وسببه القوي، والانتهاج لنهجه الأقوم وسبيله السوي، أردف مما يذكر في هذا بما يكون إن شاء الله عونا للمريد الراغب في كمال الاقتداء، على ما يرومه من تحقيق المتابعة لأئمة الاهتداء، فقلت على جهة الاختصار، لكلام بعض الخاصة الكبار:

اعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين هم صفوة الله تعالى من البرية، أكمل الناس آدابا مع الحضرة المقدسة العلية، وأتم قياما بحقوقها ووظائفها المرعية، من سائر من عداهم من أهل المراتب السنية، حسبما نطق به القرآن العظيم، وأفصحت به آيات الذكر الحكيم.

قال مولانا فيما خاطب به حبيبه المصطفى الكريم، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)، قال في العوارف: قال مجاهد: أي على دين عظيم، والدين مجموع الأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة. وقال الحسن: لأنه لم يؤثر فيك جفاء الخلق مع مطالعة الحق. اهـ.

وهذا غاية في كمال أدبه صلى الله عليه وسلم.

وقال الواسطي: الخلق العظيم أن لا تخاصم ولا تخاصم. وقال أيضا: لأنك قبلت ما أسديت إليك من نعمي أحسن مما قبله غيرك من الأنبياء والرسل.

قال الجنيد: لأنه لم يكن له همة في سوى الله تعالى.

ولا محالة أن من كان بهذه المثابة كان أجمع لمكارم الأخلاق ومحاسن الأدب على الوجه الأكمل.

وقيل في تفسير هذه الآية الكريمة غير هذا، فقيل لأنه صلى الله عليه وسلم عاشر الخلق بخلقه، وباينهم بقلبه؛ وقيل سُمي خلقه عظيما لاجتماع مكارم الأخلاق فيه. اهـ.

وقد تقدم في حقيقة الأدب أنه الجمع لمكارم الأخلاق ومحاسن الفعال والخلال، على أحسن ما يكون من وجوه الكمال. والآية الكريمة على مجموع هذه التفاسير دالة على ذلك أتم دلالة وأوضحها، فهي إخبار من الله تعالى بأن حبيبه صلى الله عليه وسلم مجمع الآداب ظاهرا وباطنا، وأنه صلى الله عليه

وسلم أكمل الخلق أدبا وأتمهم قياما به مع الحق ومع الخلق على الوجه الذي لا يدركه غيره، والله تعالى أعلم.

وقال جل وعلا: **(مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى)**، وفي هذه الآية إخبار من المولى الكريم الأعظم، عن كمال أدب حبيبه الأكرم، صلى الله عليه وسلم.

قال في العوارف: وهذه غامضة من غوامض الأدب اختص بها صلى الله عليه وسلم. ثم قررها بما ملخصه أنه صلى الله عليه وسلم لكمال اعتدال قلبه المقدس في الإعراض والإقبال، كان حاله في كلا الطرفين على أتم الأحوال، فكما أعرض عن كل ما سوى الله أتم إعراض وأكمله، فكذلك أقبل عليه سبحانه أحسن إقبال وأجمله، فترك صلى الله عليه وسلم الأرضين والسموات وما فيهن من وراء ظهره، ولم يزغ بصره ولا التفت إلى شيء مما أعرض عنه، ولا لحقه الأسف عليه في سره ولا جهره، وأدرك في إقباله مما ورد عليه في مقام قاب قوسين من المنح والمواهب والأسرار، ما لا تحيط به العقول ولا تكيفه الأفكار، فلم يطغ صلى الله عليه وسلم بالانبساط، ولا أخل بشيء من جلالة البساط، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم تلقى تلك المواهب التي وردت عليه من حضرة الرب في خجل من حيائه، وخفارة من أدبه، بالروح والقلب، ثم فر من الله تعالى هيبة وإجلالا،

فطـوى نفسـه بفـراره، في مطـاوي انكسـاره وافتقـاره، لئلا تنبسـط النفس بالاسـتغناء، كمـا قـال تعـالى: **(إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى، أَنْ رَآهُ اسْـتَغْنَى)**، ولا شـك أن الانبسـاط من العبيـد يسد باب المزيد. وهذا الفرار بـالنفس على مـا وصفناه، هو الفرار من الله إلى الله، وهو نهاية الأدب، وقد حظي منه صـلى اللـه عليـه وسـلم بمـا لم يحـظ بـه أحـد قبلـه ولا بعـده من أهـل الرتب، فدام له من ربه المزيد، ونال منـه غايـة الأرب. اهـ. ملخصا من العوارف.

ونقـل فيهـا بعـده عن سـهل بن عبـد اللـه رضي الله عنه أنه قـال في الآيـة الشـريفة: لم يرجع صلى الله عليه وسـلم إلى نفسـه ولا إلى مشـاهدة أوصـافها وإنمـا كـان مشـاهدا بكليتـه لربه، يشهد مـا يظهـر عليـه من الصـفات الـتي أوجبت له الثبوت في ذلك المحل.

قـال صـاحب العـوارف: وهـذا الكلام لمن اعتبره موافق لما شـرحناه برمـز في ذلـك من سهل بن عبد الله رضي الله عنه. اهـ.

وقال الشيخ محيي الـدين رضـي اللـه عنـه فيما يتعلق بمعنى الآيـة الكريمـة مـا نصـه: من آداب من يجـالس الأكـابر الهيبـة والوقـار، فلا يلتفت ولا يشغل سـره بمشـاهدة غـير جليسـه؛ ومن شـأنه عصـمة قلبـه من الخـواطر، وعقلـه من الأفكـار، وجوارحـه من الحركـات، وعـدم التمييـز بين الحسـن والقـبيح، ويجمـع أعضـاءه اجتماعا يسمع له أزيز كـأزيز القـدر الـذي يغلي

على النـار؛ ومن شـأنه أن لا يحصـل لـه عنـد المباسطة إدلال، قال تعالى: **(مَـا زَاغَ الْبَصَـرُ وَمَا طَغَى)**. اهـ.

فأشار رضي اللـه عنـه في هـذا الكلام إلى جملة من آداب الحضـرة ممـا تشـير إليـه هـذه الآية الشريفة.

وقـد قيـل: أدب الإنسـان على قـدر اتسـاع دائرته في مقام العرفان.

ومن أجمع العبارات وأوعبها في هذا الباب، عبارة شيخنا قطب الأقطـاب، رضـي اللـه عنـه وأرضاه، ونفعنـا وجميـع الأحبـة برضـاه، ونصـها كما في جواهر المعاني:

«**اعلم** أنه صلى الله عليه وسلم لما كمـل خلوصه إلى أوطان القرب والتمكين من حضرة الله تعالى التي لا مطمع فيها لغيره، كان قائمـا فيها بتكميل الأدب وتكميل وظائف الخدمـة في كل ما برز ومـا يـبرز من الحضـرة من الأسـرار والتوقعات والتجليات، في ظـاهر العلم وباطنـه وباطن الحضرة الإلهية، فلا يفتر عن ذلك مقدار طرفة عين، ولا يقع منـه التفريـط في حـق من حقوق التجليات، كلما بـرز من التجليـات شـيء على كثرتهـا، وعـدم نهايتهـا، يعطيـه حقـه من العبودية من غير إخلال ولا ضعف ولا تزحزح مـا عن موقف الكمال، فإن أطوار الوجود لكـل مـا تطـور بـه من خـير أو شـر أو جلب أو دفـع أو إعطاء أو منع أو تحريك أو تسكين أو تلوين إلى

سائر أقسام التطورات مما يعرفه العامة في ظواهر الوجود، وما يتطور في بواطن الوجود من الإرادات والتجليات والتوهمات والخواطر والأفكار، كل ذلك تجليات الحق سبحانه وتعالى بآثار صفاته وأسمائه، ما ثم غيره سبحانه وتعالى في كل ما سمعتَ، وهو صلى الله عليه وسلم في موقف كماله دائما أبدا سرمدا يعطي جميع التجليات حقها، ويوفي أدبها، وهو في كل ذلك لله وبالله». اهـ. بلفظه في الجواهر.

تنبيه:

كثيرا ما يجري في إطلاقات الأكابر كالشيخ محيي الدين وكذا غيره كشيخنا رضي الله عنهم، ذكر التخلق بالأخلاق الإلهية، ومعنى ذلك عند المحققين، أن العبد يأخذ من بعض الأسماء الحسنى والصفات العُلى، وصفًا يلائم ضعف البشر وقصوره، مثل أن يأخذ من الاسم الرحيم وصفًا من الرحمة على قدر ضعف البشر وقصوره، وهكذا في سائر الأسماء التي يصح التخلق بها للعبد. وكل إشارات العارفين في الأسماء والصفات التي هي أعز علومهم على هذا المعنى وهذا التفسير. فليحذر العبد أن يميل بقصور فهمه، وتخيلات وهمه، إلى شيء مما يعطيه ظاهر عبارات الكمل رضي الله عنهم، من الحلول والاتحاد، فيجره ذلك والعياذ بالله إلى الزندقة والإلحاد.

ومن أمثلــة آداب أهــل الطريــق مــع أســاتيذهم، مــا ذكــره في العــوارف عن أبي منصور المغربي رحمه الله من أنه قيل لــه: كم صـحبت أبـا عثمـان؟ فقـال: خدمتـه لا صحبته، فالصحبة مـع الإخـوان، ومـع المشـايخ الخدمـة. اهـ.

ومثله ما روي عن سيدنا العباس رضي الله عنه أنه قيل له: أنت أكـبر سـنًّا أم النـبي صـلى الله عليه وسلم؟ فقال: هو أكبر مني وأنا ولدت قبله. اهـ.

وأمـا حسـن أدبهم مـع الحضـرة المقدسـة، فمنه ما ذكـره القشـيري عن أبي علي الـدقاق رضي الله عنهما، أنه كـان لا يسـتند إلى شـيء أدبا مع الحضـرة الإلهيـة. قـال: وكـان يومـا في مجمع فأردت أن أضع له وسـادة خلـف ظهـره، لأني رأيتــه غــير مســتند، فتنحَّى عن الوســادة قليلًا، فتوهمت أنه توقى الوسـادة لأنهـا لم يكن عليها خرقة أو سجادة، فقال: لا أريـد الاسـتناد، فتأملت بعـد ذلـك فعلمتُ أنـه لا يسـتند لشـيء أبدا. اهـ.

وقال السري رضي الله عنه: صـليت وردي ليلة من الليـالي ومـددت رجلي في المحـراب، فنــوديت: يــا ســري كــذا تجــالس الملــوك؟ فضــممت رجلي، ثم قلت: وعزتــك لا مــددت رجلي أبدا. اهـ. بخ. منه أيضا، فشـد يـدك عليـه أيها المريد، تفز برضا الله ورضوانه المديد.

وفي الميزاب بعد كلام في اشتقاق الأدب ما نص المراد منه: قال القشيري رحمه الله: حقيقة الأدب اجتماع خصال الخير، وقيل هو استعمال ما يحمد قولا وفعلا، وقيل الأخذ بمكارم الأخلاق، وقيل هو تعظيم من فوقك، والرفق بمن دونك. وقيل للحسن البصري: قد أكثر الناس في علوم الأدب فما أنفعها عاجلا وأفضلها آجلا؟ فقال: الفقه في الدين، والزهد في الدنيا، والقيام بما لله عليك.

قال المناوي: من أصول الأدب التي يقع بتركها الطرد والإبعاد، حفظ حرمة المسلمين سيما دائرة الحق من العباد والزهاد، ومفتاح إسقاط حرمتهم، استحقار ما منحهم مولاهم.

قال الشعراني: ومن الأدب عدم الكلام في شأن الدنيا أصلا في المسجد.

وفي الحديث: «**يَـأْتِي فِي آخِـرِ الزَّمَـانِ نَـاسٌ مِنْ أُمَّتِي يَـأْتُونَ الْـمَسَاجِدَ وَيَقْعُدُونَ فِيهَا حِلَقًا حِلَقًا ذِكْرُهُمْ الـدُّنْيَا وَحُبِّ الـدُّنْيَا، فَلَا تُجَالِسُوهُمْ فَلَيْسَ للهِ بِهِمْ حَاجَةٌ، وَلَا صَلَاةَ لَـهُمْ وَلَا صَوْمَ لَـهُمْ وَلَا زَكَاةَ لَـهُمْ، وَهُمْ مِنَ اللهِ مُبْعَدُونَ**».

وفي إرشاد السالك لسيدي محمد الكنتي: فلتكن عنايتك بحسن الأدب ظاهرا وباطنا، فما دخل الحضرة من دخلها إلا من باب الأدب، كما إليه الإشارة بقوله تعالى مخاطبا لكليمه موسى عليه السلام في مقام المناجاة: (**فَـاخْلَعْ نَعْلَيْـكَ إِنَّكَ بِـالْوَادِ الْـمُقَدَّسِ**

طُوًى)، احتراما للبقعة وقياما بالحضرة، لأنهما كانا أي النعلان من جلد حمار غير مدبوغ. وعند أهل الإشارة النعلان المال والولد، وقيل الدنيا والآخرة، وذلك نهاية مقام العارفين من خلع ما سوى المعروف تعالى بالفناء عن الأغيار، والاستغراق في بحر شهود أحدية الواحد القهار. وقد أخبر تعالى عن كمال أدب نبيه المصطفى، المبرء من كل عيب وجفا، بقوله: (**مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى**)، يريد والله أعلم بأسرار كتابه، أنه صلى الله عليه وسلم تأدب بغاية الأدب، في مقام الكفاح بمستوى الرغب والرهب، بحيث ما زاغ بصره صلى الله عليه وسلم يمينا وشمالا. وما طغى، أي ما جاوز ما أمر به مما يعرض للراءي الذي لا أدب له بين يدي الملوك والعظماء، من التفاته يمينا وشمالا، ومجاوزة بصره لما بين يديه.

ففي البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: لما نزلت هذه الآية: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ**) الآية، جلس ثابت بن قيس وقال: أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، واحتبس عن النبي صلى الله عليه وسلم، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ فقال: «**يَا أَبَا عَمْرٍو، مَا شَأْنُ ثَابِتٍ، أَيَشْتَكِي؟**» ، فقال سعد: إِنَّهُ لجَارِي وَمَا عَلِمْتُ لَهُ شَكْوَى، قال: فأتاه فذكر له قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ثابت: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي (مِنْ) أَرْفَعِكُمْ صَوْتًا عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ سَعْدٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: **«هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ».**

وزاد في رواية: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا رجل من أهل الجنة.

وقال أبو هريرة: لما نزلت هذه الآية (كان أبو بكر لا يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا كَأَخِي السِّرَارِ. وَقَالَ ابن الزُّبَيْر: لما نَزَلَتْ هذه الآية) مَا حَدَّثَ عمر النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فيسمع النبي صلى الله عليه وسلم كلامه حتى يستفهمه مما يخفض صوته، فأنزل الله تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ)** أي إجلالا له وتعظيما وأدبا معه **(أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى)** الآية.

وكان عمرو بن العاص رضي الله عنه يستوصف الناس وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقيل له في ذلك، فقال: ما تمكنت من النظر إلى وجهه الكريم منذ أسلمت، إن استقبلني لم أتمكن من النظر إليه هيبة له وإجلالا، وإن استدبرني لم أنظر إليه مخافة أن يكون ذلك خيانة.

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يبتدرون فضل وضوئه صلى الله عليه وسلم، وفضل غذائه، وخلقان ثيابه تبركا به، ويزدحمون عليها ويتبركون بريقه الشريف، فلا يتنخم نخامة إلا وقعت في كف أحدهم فدلَّك بها وجهه وجلده،

ويتمرغون بمواضع جلوسه ونومه، ويتوزعون قلامة أظفاره وما يحلق ويقص من شعره الشريف، ويتنافسون في خدمته، فمنهم من يحرسه، ومنهم من يخدمه عامة كأنس بن مالك بن النضر الخزرجي خدمه صلى الله عليه وسلم عشر سنين، ولما احتضر قال لثابت: هذه شعرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فضعها تحت لساني، فدُفن وهي تحت لسانه، ومنهم من كان على وضوئه، ومنهم من كان على وسادته، ومنهم صاحب بغلته وصاحب راحلته، إلى أن عد عدة من أموره تولى كل واحد منهم ما تولى منها، فقام بالأدب فيها أحسن قيام، وأتمها على ما أمر به أكمل إتمام.

إلى أن قال: فقد أخرج القاضي عياض في الشفاء من حديث الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس وفيهم أبو بكر وعمر، فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر فإنهما ينظران إليه وينظر إليهما، ويتبسَّمان إليه ويتبسم إليهما.

وفي ابن عطية قال ابن زيد: معنى **﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾** لا تمشوا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك بين يدي العلماء، فإنهم ورثة الأنبياء، وهو ظاهر في أن معناه التقدم حقيقة أو حكما، فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته كالتقدم بين يديه في حياته، لا فرق بينهما عند ذي عقل سليم. اهـ. بتلفيق.

إلى أن قال: وفي هذا القدر كفاية في التنبيه على أن مبنى طريق القوم على قواعد الآداب القرآنية والسنية، وأنهم إنما قلدوا في مذهبهم الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح والصدر الأول الذين قال فيهم صلى الله عليه وسلم: «**خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**». اهـ.

وبالجملة فالأئمة المقتدى بهم مثله صلى الله عليه وسلم في ذلك لما فيه من أدب الدين وأدب النفس، وبقدر امتثال الأدب معهم في أقوالهم وأفعالهم وحسن الظن بهم، يكون الانتفاع، إذ الاعتقاد فيهم هو رأس مال المريد، فقد قيل لا يبلغ المريد غاية الانتفاع حتى لا يكون عنده في الكون غير ربه ونبيه وشيخه، وما ذاك إلا لسريان حبهما بكليته وعدم إهمال شيء صدر له منهما معتقدا كونه عبودية، بحيث يكون اتباعه لهما في العادات كاتباعه لهما في العبادات. انظر موقف الاستقامة من مقام الإسلام فيه.

ثم قال: وما قعد بكثير من المريدين غير التهاون والاستخفاف بجناب الشيوخ، فهم جاعلون مريدهم بحيث جعلهم، فإن صحبهم مجاورة صحبوه معاشرة، وإن صحبهم محاضرة صحبوه مباشرة، ويكيلون لمن وافاهم بقلبه أو بحسه، على وفاء الكيل أو بخسه، فليقلل المريد من ذلك أو ليكثر. اهـ.

ثم قال: قلتُ: ولا يقـدح في صـدق المريـد توجهه إلى الله تعالى بشيخه في قضاء حوائجه الدنيوية والأخروية، بعد انعقاد الصحبة أولا على أحـد أمـري الصـحبة المحمـودة، بـل من تمـام تعلقه بشيخه أن يكـل أمـوره إليـه كافـة، حـتى يكـون بحيث لا يـرى مـددا إلا منـه، ولا فتحـا إلا عنـــه، وأن بـــه جميـــع الفتوحـــات النورانيـــة والظلمانية من الأقوات الجسمانية والروحانيـة، لكن الذي يقدح ويقبح عدم التسليم ورفع حـرج الصدر في عدم قضاء ذلك الوطر، بعـد التوجـه بجاه الشيخ والوقوف ببابه، والتمسك بجنابه، إذ لعل قضاءه موجب للحيرة، وحاجب عن وصول الحضرة، المـراد لهـا الشـيخ، فليحسـن المريـد الظن بشيخه فيما لم يصل إليه على يديه. اهــ. بخ. منه وتصرف ما.

فصل

يناسـب إلحاقـه لمـا فيـه من الفائـدة لمن جهل أن الشريعة المطهرة جاءت عامة.

قال الشـعراني رضـي اللـه عنـه في كتابـه كشف الغمة عن جميع الأمة ما نصه:

«بيان ميزان نفيسة يُشرف الإنسـان بها على تقرير جميع أدلة الشـريعة ومـا

انبنى عليها من أقـوال المجتهـدين إلى يوم الدين:

وذلك أن تعلم يا أخي أن الشريعة المطهرة جاءت عامة وليس مذهب أولى بها من مذهب، فمن ادعى تخصيصها بما ذهب إليه إمامه من المقلدين فقد أتى بابا من الكبائر وخطَّأ الأئمة، أو ضعَّف أدلتهم، بالرد تارة، وبالقول بالنسخ تارة، وبجرح الرواة لها تارة، نسأل الله العافية.

ولا تخرج يا أخي من هذه الورطة إلا أن تقول بصحة كل حديث أو أثر استدل به إمام من الأئمة لمذهبه، كائنا ذلك الإمام من كان، فإنه لو ما صح عنده ما استدل به، وكفانا صحة لذلك الحديث أو الأثر، استدلال مجتهد به، ولا يقدح فيه تجريح غيره من المحدثين والمجتهدين من طريق روايتهم.

فإذا تقرَّر عندك أدلة الشريعة كلها على هذا الطريق ثم خفت تعارضها، فارجعها كلها إلى مرتبتين عزيمة ورخصة، يرتفع لك التعارض والخلاف عندك من الشريعة إن شاء الله تعالى، لأن الشريعة لا تخرج عن هاتين المرتبتين أبدا، لأن الحديث إما أن يكون الحكم المحتوي عليه مائلا إلى العزيمة والاحتياط، وإما أن يكون مائلا إلى الرخصة والتخفيف عن ضعفاء الأمة، ولكل من المرتبتين رجال في حال مباشرة الأعمال، فمن قوي منهم خوطب بالتشديد وحكم عليه به في الحقوق ونحوها، ومن ضعف منهم خوطب بالرخصة، فلا يكلف

الضعيف بالصعود لمرتبة الأقوياء، ولا يؤمر القوي بالنزول لمرتبة الضعفاء، سواء كان المأمور به مندوبا أو واجبا.

ويوضح لك ذلك في أقوال المذاهب أن تجعل كل ما شرطه مجتهد بطريق الاستنباط في مرتبة الأولوية والاحتياط، وتجعل مقابله من كلام المجتهد الآخر في مرتبة خلاف الأولى لا غير، مع القول بصحة القولين وموافقتهما للشريعة. وذلك كاشتراط النية في الطهارة، واشتراط الطهارة بالماء الذي لم يستعمل، ووجوب التسمية عند الوضوء، ووجوب المضمضة والاستنشاق، ووجوب الترتيب والموالاة، وكنقض الوضوء بلمس المرأة ولو محرما، وبمس الذكر، وبخروج الدم، وبالقيء والقهقهة، وكقراءة الفاتحة بخصوصها في الصلاة دون غيرها، ووجوب الاعتدال والسجود على السبعة أعضاء، وغير ذلك من سائر الأبواب.

فامتحن بهذا الميزان جميع الآيات والأخبار والآثار، وما انبنى على ذلك من أقوال المجتهدين والمقلدين لهم إلى يوم الدين، في سائر أبواب العبادات والمعاملات والمناكحات، والحدود والجنايات، والدعوى والبينات، تجد كل دليل أو قول لا يخرج عن هاتين المرتبتين كما مر، فما دخل الخلاف والنزاع بين أهل المذاهب ومقليدهم إلا من شهودهم أن الشريعة إنما جاءت على مرتبة واحدة، وأن المصيب واحد

في نفس الأمـر من أصـحاب تلـك الأدلـة أو الأقوال، والباقي مخطئ. وربمـا اسـتدلوا على وقـوع الخطأ بحـديث: «**مَن اجْتَهَـدَ وَأَخْطَـأَ فَلَهُ أَجْرٌ**» وهو لا يصلح دليلاً، لأن المراد أخطـأ الحديث الوارد عني بعد التتبع فلم يجده، لا أنـه أخطـأ في عين الفهم، إذ لـو صـح خطـؤه في عين الفهم لخـرج عن الشـريعة، وإذا خـرج فلا أجر، فافهم.

فـالحق الـذي نعتقـده، أن الشـريعة جـاءت على مرتبتين كما قررنا، ولو كـانت جـاءت على مرتبة واحدة، إما تخفيف فقط، أو تشديد فقط، لكـانت عـذابا في قسـم التشـديد، ولم يظهـر للدين شعار في قسم التخفيف والتسهيل.

وقد جاءت بحمد الله رحمة للخلق وإظهـارًا لشعار الدين، فأهـل كـل مـذهب نـاظرون بعين واحدة: لأنه إن كان إمامهم أخذ برخصـة وردت أو استنبطت أخذوا بها وجعلوها مـذهبا، وطلبـوا من جميـع الخلـق التـدين بهـا دون غيرهـا؛ وإن كـان إمـامهم أخـذ بعزيمـة أخـذوا بهـا وجعلوهـا مذهبا له كذلك، وطلبوا من الخلق كلهم التـدين بها. ومصداق ذلك أنهم يقولون (للسائل) كثيرا: خلاصـك ليس في مـذهبنا، ولـو اطلعـوا على صحة المرتبتين المـذكورتين لأفتـوا بمـا ناسـب حالـه من رخصـة أو عزيمـة، لأنـه لا يخـرج عن كونه من أهل واحدة منهما.

ومن أراد أن يعـرف مقـدار هـذا المـيزان ومرتبة التحقق بمعرفته، فليجمع لـه أربعـة من

علماء الشريعة كل واحد من مذهب ويقرأ عليهم أدلة جميع مذاهبهم وأقوال علمائهم وينظر كيف يتجادلون في صحة الأدلة وما انبنى عليها ويرجح كل واحد مذهبه وأدلته ويضعف مذهب غيره، وتعلوا أصواتهم على بعضهم بعضا حتى كأنهم ملتان مختلفتان. وأما المتحقق بمعرفة هذا الميزان، فهو جالس كالسلطان حاكم بمرتبتيه على كل مذهب من مذاهبهم، فإنهم كلهم داخلون تحت ميزانه، ومتفرعون من باطن علمه.

وإنما قلنا أربعة نفر كل واحد من مذهب لتنظر ما يفعل كل واحد عند تضعيف دليل إمامه، فمن قرأ الأدلة على ما دون الأربعة لم يظهر له نفاسة هذا الميزان، لأن أدلة مذهب الغائب يردها الحاضرون ويضعفونها، ولا أحد منهم يجيب عنها، ولو كان هو حاضرًا لردَّ عليهم أشد الرد بل كذبهم وشتمهم.

فمن دخل لفهم الشريعة من باب هذا الميزان ارتفع الخلاف عنده من الشريعة جملة، ورأى جميع علماء الشريعة في بحرها يسبحون لاستمدادهم كلهم من عين الشريعة، وقرر جميع أدلة المجتهدين وأقوالهم ولم يجد شيئا من أدلتهم ولا أقوالهم خارجا عن الشريعة المطهرة، وعلم أن مجموع المذاهب هي بعينها الشريعة. ومن لم يدخل لفهم الشريعة من هذا الباب نقص علمه بالشريعة وفاته خير كثير، لأن كل حديث لم يأخذ به إمامه يترك العمل معه،

والمذهب الواحد بلا شك لا يحتوي على كل أحاديث الشريعة إلا إن قال صاحبه: إذا صح الحديث فهو مذهبي، فيدخل في مذهبه كل حديث استدل به مجتهد من المجتهدين. وقد ثبت عن الشافعي ذلك، فجميع المذاهب على هذا مذهب للشافعي عند كل من سلم من التعصب في الدين.

فإحسان الظن بجميع الرواة لأدلة المذاهب واجب على كل من استبرأ لدينه وعرضه، إذ بذلك يسلم المسلمون من لسانه ويرضى عنه الله ورسوله، ويرضى عنه جميع المجتهدين، ويتبسمون في وجهه إذا رأوه يوم القيامة، لكونه قرر مذاهبهم كلها وجعلها هي عين الشريعة.

وهذا مشرب ما رأيته لأحد من العلماء إلى وقتي هذا أبدا، فالحمد لله الذي ألهمنا لاتباع الشريعة، ونور قلوبنا بنور المعرفة لا بعمل عملناه، ولا بخير قدمناه، بل بسابق عناية لنا على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد أخبرني الهاتف عليه السلام أن هذا الميزان لم يظفر به أحد من التابعين، ولا أحد من الأئمة المجتهدين، بدليل ما نقل عن التابعين من الخلاف، وما نصبه المجتهدون بينهم من المناظرات، وردهم لأقوال بعضهم بعضا بالحجج التي قامت عندهم، ولو علموا هذا الميزان لم يقع بينهم خلاف، لحمل كل واحد

منهم كلام صاحبه على مرتبة من إحدى مرتبتي الشريعة، فالحمد لله رب العالمين». اهـ.

وقال رضي الله عنه قبل هذا الميزان، مبينا على أنه لم يمل في كتابه هذا إلى تأويل حديث أو نسخ بالتاريخ، كما فعله بعض أهل هذا الشأن، ما نص الغرض منه:

«ولم أمل فيه -يعني في هذا الكتاب- إلى تأويل حديث، ولا إلى نسخ بالتاريخ كما يفعله بعضهم، أدبًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتقيد كلامه فيما فهمه عالم دون آخر، وأن ينسخ غيره كلامه، إذ لا ناسخ لكلامه صلى الله عليه وسلم إلا هو، كقوله: «**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا**»، وكقوله: «**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ لُحُومِ الأَضَاحِيِّ، فَادَّخِرُوا**»، و«**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنِ الِانْتِبَاذِ فِي الْحَنْتَمِ وَالنَّقِيرِ فَانْتَبِذُوا غَيْرَ أَنْ لَا تَشْرَبُوا مُسْكِرًا**»، ونحو ذلك، واعترافا أيضا مني بالعجز عن فهم كلامه صلى الله عليه وسلم على الوجه اللائق بمقام صاحبه، إذ هو الأفصح الواسع لكونه أعطي جوامع الكلم مع البيان، فكيف يفسر بكلام غيره المغلق الضيق، وكيف يذهب أحد إلى نسخ كلامه صلى الله عليه وسلم من غير وحي إلهي، ولا سيما إن كان ذلك الحديث أخذ به إمام من أئمة الدين، وتبعه عليه المقلدون له، فإن ذلك سوء أدب مع الشارع صلى الله عليه

وسلم، ومع ذلك الإمام الذي أخذ به. وقول بعضهم آخر الأمرين من رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المعمول به، (وأنه) هو الناسخ المحكم، أكثري لا كلي، لأنه لو كان كليا لحكمنا بنسخ أحد الأمرين من رسول الله صلى الله عليه وسلم من نحو مسح رأسه كله في الوضوء أو بعضه، أو من الوضوء من لمس المرأة أو الذكر أو عدم الوضوء من ذلك، لأنه لا بد أن يكون قد انتهى آخر أمره إلى واحد دون الآخر، وإذا نسخنا الأول حكمنا ببطلان صلاة صاحبه، وقس على ذلك.

وبالجملة فمن نوَّر اللهُ تعالى قلبه رأى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم أوضح وأفصح من كل كلام فسره به جميع الناس من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والخلق أجمعين، ورآه يسع جميع افهامهم؛ ومن لم ينوِّر الله تعالى قلبه فهو كالخفاش لا ينظر إلا في الظلام، وينكر أن أحدا ينظر في نور الشمس، وذلك دليل على ضعف بصره وبعده عن حضرة أهل النور. وكذلك يقال لمن توقف في فهم كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يفسر له بكلام غيره، إن ذلك دليل على بعدك عن حضرة وحيه صلى الله عليه وسلم، وعدم دخولك لها، لمحبة الدنيا وأدناسها وشهواتها، فلا يفهم كلام الشارع إلا من دخل حضرته، ومعلوم أن حضرته محرمة على محب الدنيا، فلا يدخل حضرته إلا من تساوى عنده

الذهب والتراب في عدم ميل القلب إلى جمعه، وفي عدم فرحه به. وقد كان سيدي علي بن سيدي محمد وفا رضي الله عنهما ينشد في هذا المعنى الذي ذكرناه من ظلمة الباطن المانعة من فهم كلامه صلى الله عليه وسلم:

إذا ما قال للخفاش قوم=بنور الشمس يبصر ما يكون
فليس مصدقا هذا ولكن=يكذب أو يقول بهم جنون
وإن تعجب فممن يسألوه=أنور الشمس تقبله الجفون
وأعجب منهم من قلدوه=وقالوا بالظلام ترى العيون

فلهذين المعنيين اللذين لم أمل إليهما، وهما ترك التأويل والنسخ بالتاريخ، جعلت باب الفهم مفتوحا لكل سامع وناظر من كمل العارفين والخلق أجمعين، فيفهم كل واحد على قدر ما وقر في قلبه بحسب جلاء مرآة قلبه وصداها، ويدين الله تعالى بما فهم.

وإنما ذكرت هدي أصحابه صلى الله عليه وسلم مع هديه، وإن كان هديه كفاية عن هدي غيره عند من نوَّر الله تعالى قلبه، إشارة إلى عدم النسخ لذلك الحديث، فلو نسخ لما عمل به الصحابة بعده صلى الله عليه وسلم، واستئناسا للعاملين والمجتهدين، وعملا بنحو قوله صلى الله عليه وسلم: «**إِنِّي لَا أَدْرِي مَا**

بَقَائِي فِيكُمْ، فَاقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي، أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَتَمَسَّكُوا بِهَدْيِ عَمَّارٍ، وَمَا حَدَّثَكُمْ بِهِ ابْنُ مَسْعُودٍ فَصَدِّقُوهُ»، وبقوله صلى الله عليه وسلم: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»، وبقوله صلى الله عليه وسلم: «**أَقْضَاكُمْ عَلِيٌّ، وَأَعْلَمُكُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُكُمْ زَيْدٌ**»، وبقوله صلى الله عليه وسلم: «**أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ**»، وبقول علي رضي الله عنه وكذلك عمر بن عبد العزيز: ألا إن ما سنه أبو بكر وعمر فهو دين نأخذ به وندعو إليه، وغير ذلك من الأحاديث والآثار.

فقد علمت بهذه الأحاديث الأمر بالعمل بهدي أصحابه صلى الله عليه وسلم كلهم، وتقديمه على كلام غيرهم من التابعين ومن بعدهم، لورود الاقتداء بهم على التعيين والتصريح دون غيرهم».

ثم قال:

«وقد سمعت مرة هاتفا يقول لي: أتعرف معنى قوله تعالى: **﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾**؟ فقلت: الله أعلم، فقال: يتبرأ كل نبي يوم القيامة ممن شق على أمته

وأمرهم بفعل شيءٍ لم تأتِ به شريعته، ويتبرأ كل مجتهد ممن ولَّد بعقله وفهمه أمور لم يصرح هو بها ثم أضافها إلى مذهبه. اهـ.

فكل من ولَّد بعقله حكما يودُّ يوم القيامة أنه لم يكن ولده حياءً من رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم إنه يقال لمن زاد على أحكام صريح الشريعة من طريق الاستنباط شيئا يشق على الناس: ماذا أردت بذلك؟ فلا يسعه إلا أن يقول: ما أردت إلا القربة إلى الله عز وجل، فيقال له: القربة خاصة بقدم الاتباع لا الابتداع، على أنه لا يعان عبد على العمل بما زاد على صريح السنة، لأن الله تعالى لم يتكفل بالمعونة إلا لمن هو تحت أمره الذي شرعه صريحا على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فتأمل يا أخي ما ذكرته لك في جميع هذه الخطبة، ووسِّع على الأمة كما وسَّعَ عليهم نبيهم صلى الله عليه وسلم، واعْتَقِدْ أن الإنسان لو ترك العمل بكل ما لم تصرح به الشريعة المطهرة فلا حرج عليه ولا لوم في الدنيا والآخرة، إلا أن تجمع عليه الأمة فحينئذ يحرم خرقه، فهو ملحق في وجوب العمل بما صرحت به الشريعة، قال تعالى: **(وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)**». اهـ.

ثم قال:

«وقد بشرني الهاتف عليه السلام ببقاء هذا الكتاب إلى خروج المهدي عليه السلام لينتفع به أصحابه ويستغنون به عن مراجعة المهدي عليه السلام في أكثر الأمور الدينية، فإنه عليه السلام إذا خرج يرفع الخلاف والآراء من الأرض، فلا يبقى في أيامه إلا الدين الخالص، ويعاديه سرا مقلدة العلماء الموجودون في زمنه حين يرونه يذهب إلى خلاف ما ذهب إليه أئمتهم، لاعتقاد أن الله تعالى لا يوجد بعد أئمتهم أحدا يعلوهم في العلم، ولكنهم يدخلون تحت طاعته خوفا من سطوته ورغبة فيما لديه من المال، فإنه هو والسيف إخوان، فلا ينازعه أحد إلا خذل، وفي الحديث أنه يقفو عليه السلام أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخطئ، فلا يحكم في تحليل أو تحريم إلا بما كان يحكم به صلى الله عليه وسلم لو كان حيًّا. وآخر المذاهب انقراضا من الأرض مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه.

ومن هذا الذي قلناه يعلم كل منصف صحة ما جنحنا إليه في تأليف هذا الكتاب، وأنه لو كان حكم ما استنبطه المجتهدون حكم جميع صريح السنة في وجوب العمل به على الأمة ما أبطله المهدي عليه السلام إذا خرج، فتأمل. فكل طريق لم يمش فيه الشارع صلى الله عليه وسلم فهو ظلام، ولا يكون أحد ممن

مشى فيه على يقين من السلامة وعدم العطب، لأنه صلى الله عليه وسلم هو الإمام وهو النور، والمأموم إذا خرج عن اتباع إمامه وتعدى ما حدَّه له مشى في ظلام بقدر بعده عن شعاع نور إمامه، ولهذا تجد كلام أئمة المذاهب كلهم نورا صرفا لا إشكال فيه لقربهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، بخلاف كلام غيرهم. ولهذا المعنى أشار صلى الله عليه وسلم بقوله: «**رَحِمَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا**» يعني حرفا بحرف». اهـ. بخ.

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام في قواعده:

من العجب العجيب أن يقف المقلد على ضعف مأخذ إمامه وهو مع هذا يقلده كأن إمامه نبي أرسل إليه، وهذا نأي عن الحق وبعد عن الصواب، لا يرضى به أحد من أولي الألباب، بل تجد أحدهم يناضل عن مقلده ويتحيل لدفع ظواهر الكتاب والسنة، ويتأولهما، وقد رأيناهم يجتمعون في المجالس فإذا ذكر لأحدهم خلاف ما وطّن (نفسه) عليه تعجب منه غاية التعجب، لما ألفه من تقليد إمامه حتى ظنَّ أن الحق منحصر في مذهب إمامه، ولو تدبره لكان تعجبه من مذهب إمامه أولى من تعجبه من مذهب غيره. فالبحث مع هؤلاء ضائع مفض إلى التقاطع والتدابر من غير فائدة يجديها، فالأولى

ترك البحث مع هؤلاء الذين إذا عجز أحدهم عن تمشية مذهب إمامه قال: لعل إمامي وقف على دليل لم أقف عليه، ولا يعلم المسكين أن هذا مقابل بمثله وتنصل لخصمه ما ذكره من الدليل الواضح، فسبحان الله ما أكثر من أعمى التقليد بصره حتى حمله على مثل ما ذكرته، وفقنا الله لاتباع الحق أين ما كان وعلى لسان من ظهر. اهـ. نصه.

ونقله وفي فضل سجود التلاوة عند قوله وقراءة بتلحين كجماعة.

فصل
في ذكر بعض ما جاء في الحسد والظلم من الوعيد والتحذير والإنذار والتهديد

ويكفي المؤمن العاقل الموفق، قول الصادق المصدق، صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: **«لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَكْذِبُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَا هُنَا»** وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ

ثَلَاثَ مَـرَّاتٍ **«بِحَسْبِ امْـرِئٍ مِنَ الشَّـرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْـمُسْلِمَ، كُـلُّ الْـمُسْلِمِ عَلَى الْـمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُـهُ، وَمَالُـهُ، وَعِرْضُـهُ»**. رواه مسلم. اهـ.

فقولـه: «**لَا تَحَاسَـدُوا**» أي لا يحسـد بعضكم بعضا. والحسد معناه تمني زوال النعمة عن الغير، وهو حـرام بالإجمـاع، وجـاء في ذمـه أحاديث كثيرة، وهو داء لا دواء لـه، من أمـراض القلـوب المضـرة للحاسـد دينا ودنيـا، النافعـة للمحسـود دينا ودنيـا، إذ لا تـزول نعمـة بحسـد قـط، وإلا لم تبـق للـه نعمـة على أحـد حـتى الإيمان لأن الكفار يحبون زواله عن أهله، سيما إن أبـرز الحاسـد حسـده إلى الخـارج بالغيبـة وهتك السـتر وغيرهمـا من أنـواع الإيـذاء، وهي هدايا للمحسود تهدى إليه حسناته بسـببها حـتى يلقى الله يوم القيامة مفلسا محروما من النعم كما حرم منها في الدنيا.

فعلم أن هذا داء عظيم للحسد أعاذنا الله.

فقد روي عنه صلـى اللـه عليـه وسـلم أنـه قال:

«دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْـحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ، هِيَ الْـحَالِقَةُ، حَالِقَةُ الـدِّينِ لَا حَالِقَةُ الشَّعَرِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا تَـدْخُلُوا الْـجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُـوا، وَلَا تُؤْمِنُـوا حَتَّى تَحَـابُّوا، أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِشَـيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ، أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»، أخرجه الترمذي والإمام أحمد.

وقال صلى اللـه عليـه وسـلم: «**الْغِلُّ وَالْـحَسَدُ يَـأْكُلاَنِ الْـحَسَنَاتِ كمَـا تَأْكُلُ النَّارُ الْـحَطَبَ**».

وعنه صلى الله عليه وسلم أنـه قـال أيضـا: «**لَيْسَ مِنِّي ذُو حَسَدٍ وَلَا نَمِيمَةٍ وَلَا كِهَانَةٍ وَلَا أَنَا مِنْهُ**».

وعنه صلى الله عليـه وسـلم أنـه قـال: «**لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَتَحَاسَدُوا**».

وصح عنه صلى الله عليه وسـلم أنـه قـال: «**لَا تُظْهِرْ الشَّمَاتَةَ لِأَخِيـك فَيُعَافِيَـهُ اللـهُ وَيَبْتَلِيَكَ**».

وفي الخـبر: «**كَـادَ الْفَقْـرُ أَنْ يَكُـونَ كُفْرًا، وَكَادَ الْـحَسَدُ أَنْ يَغْلِبَ الْقَدَرَ**».

وفي الحـديث: «**اسْـتَعِينُوا عَلَى قَضَـاءِ الْـحَوَائِجِ بِالْكِتْمَـانِ فَـإِنَّ كُـلَّ ذِي نِعْمَـةٍ مَحْسُودٌ**».

وروي أن سـيدنا موسـى على نبينـا وعليـه الصلاة والسلام لما تعجل إلى ربه رأى في ظل العـرش رجلا فغبطـه بمكانـه، وقـال: إن هـذا لكريم على ربه فسـأل ربـه أن يخـبره باسـمه، (فلم يخـبره باسـمه) وقـال: أَحَـدِّثُك مِنْ عَمَلِـهِ بِثَلَاثٍ: كَانَ لَا يَحْسُدُ النَّاسَ عَلَى مَـا آتَـاهُمْ اللـهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَكَانَ لَا يَعُقُّ وَالِدَيْهِ، وَكَانَ لَا يَمْشِـي بِالنَّمِيمَةِ.

وقال بعض السلف: أَوَّلُ خَطِيئَةٍ عُصِيَ اللـهُ بِهَا الْـحَسَدُ، حَسَدَ إبْلِيسُ آدَمَ فَأَبَى أَنْ يَسْجُدَ لَهُ فَحَمَلَهُ الْـحَسَدُ عَلَى الْـمَعْصِيَةِ.

ووعظ (بعض الأئمة) بعض الأمراء فقال: إياك والكبر فإنه أول ذنب عصي الله به، ثم قرأ: (**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ**) الآية، وإياك والحرص فإنه أخرج آدم من الجنة أسكنه الله جنة عرضها السموات والأرض يأكل منها إلا شجرة واحدة نهاه الله عنها، فمن حرصه أكل منها فأخرجه الله من الجنة، ثم قرأ: (**قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا**) الآية، وإياك والحسد فإنه الذي حمل ابن آدم على أن قتل أخاه حين حسده ثم قرأ: (**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**).

قَالَ أَبُو الدَّرْدَاء: مَا أَكْثَرَ عَبْدٌ ذِكْرَ الْمَوْتِ إِلَّا قَلَّ فَرَحُهُ وَقَلَّ حَسَدُهُ.

وقال بعضهم: الحاسِدُ لَا يَنَالُ مِنْ المجَالِسِ إِلَّا مَذَمَّةً وَذُلًّا، وَلَا يَنَالُ مِنْ الملائِكَةِ إِلَّا لَعْنَةً وَبُغْضًا، وَلَا يَنَالُ مِنْ الخلقِ إِلَّا جَزَعًا وَغَمًّا، وَلَا يَنَالُ عِنْدَ النَّزْعِ إِلَّا شِدَّةً وَهَوْلًا، وَلَا يَنَالُ عِنْدَ الموقِفِ إِلَّا فَضِيحَةً وَهَوَانًا وَنَكَالًا.

وروي عن زكرياء على نبينا وعليه الصلاة والسلام أنه قال: قالَ اللهُ سبحانه وتعالَى: الحاسِدُ عَدُوٌّ لِنِعْمَتِي مُتَسَخِّطٌ لِقَضَائِي غَيْرُ رَاضٍ بِقِسْمَتِي الَّتِي قَسَمْتُ بَيْنَ عِبَادِي.

ولبعضهم:

ألا قـل لمن بـات لي حاسـدا=أتـدري علي من أسأت الأدب
أسـأت على اللـه في فعلـه=إذا أنت لم ترض لي ما وهب
فجازاك منه بأن زادني=وسد عليـك وجـوه الطلب

وقال غيره:

دَعِ الحسودَ وما يلقاه من كمد=كفـاك منـه لهيب في كبدهْ
إن لمت ذا حسدٍ نفَّسْتَ كربته=وإن سكتَّ فقد عذَّبْته بيدهْ

وللإمام الشافعي رضي الله عنه:

تذكري في دهري رخاء وشدة=وناديت في الأحياء هل من مساعد
فَلَمْ أَرَ فيمـا سَـاءَنِي غـير شـامت=ولم أر فيما سَرَّني غير حاسد

ومن الحكمـة: الحسـود لا يسـود أبـدا، والبخيل تأكل ماله العِدَا.

وقوله: «**وَلَا تَنَاجَشُوا**»، النجش في اللغة الإثارة والخديعة، وفي الشرع الزيادة في الثمن المدفوع في المعروض للبيع، وإن لم تساوي القيمة.

ومعنى «**وَلَا تَبَاغَضُوا**»: أي لا تتعاطوا أسباب البغضاء، فالبغض حرام إلا في الله فإنه واجب ومن كمال الإيمان.

ومعنى قوله: «**وَلَا تَدَابَرُوا**»: أي لا يدبر بعضكم عن بعض مُعرضا عنه، إذ التدابر

المعاداة وقيل المقاطعة، لأن كل واحد يولي صاحبه دبره.

قال صلى الله عليه وسلم: «**لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ**»، وفي رواية: «**لاَ يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ يَلْتَقِيَانِ، فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ**». وعند أبي داود: «**فَمَنْ هَجَرَهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ فَمَاتَ دَخَلَ النَّارَ**».

ويجوز هجر المبتدع والفاسق ونحوهما، ومن رجي بهجره صلاح دين المهاجر والمهجور، وعليه يحمل هجره صلى الله عليه وسلم لكعب بن مالك رضي الله عنهما وصاحبيه، ونهيه عليه السلام الصحابة عن كلامهم، وكذا هجر السلف بعضهم بعضا.

ومعنى قوله: «**وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**» أي اكتسبوا ما تصيرون بِّه كذلك من حسن المعاشرة، وفعل المؤلّفات، وترك المنفِّرات، فتعاملوا وتعاشروا معاملة الأخوة ومُعاشرتهم في المودة والملاطفة والتعاون على الخير، مع صفاء القلوب والنصح على كل حال.

ومعنى قوله: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ**»، أي لا يدخل عليه ضررا لا يجوزه الشرع، لحرمة ذلك ولمنافاته الأخوة، ولأن الظلم للكافر حرام، فللمسلم أولى. والظلم يكون في النفس والمال والعرض، وكل ذلك

منهي عنه بدليل آخر الحديث، قال عليه السلام: «**الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، والأحاديث الواردة في ذم الظلم كثيرة شهيرة، وقيل:

لَا تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا=فَالظُّلْمُ تَرْجِعُ عُقْبَاهُ إِلَى النَّدَمِ

تَنَامُ عَيْنَاكَ وَالْمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ=يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللهِ لَمْ تَنَمْ

وقال بعض السلف: لا تظلم الضعفاء فتكون من شرار الأشقياء.

ومعنى قوله: «**وَلَا يَخْذُلُهُ**»، أي بعدم إعانته ونصرته الجائزة مع القدرة عند الحاجة، فإذا استعان به في رفع ظلم ونحوه لزمه إعانته إذا أمكنه من غير عذر شرعي، لأن من حق أخوة الإسلام التناصر، قال صلى الله عليه وسلم: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَأَنْتَقِمَنَّ مِنَ الظَّالِمِ فِي عَاجِلِهِ، وَآجِلِهِ، وَلَأَنْتَقِمَنَّ مِمَّنْ رَأَى مَظْلُومًا يَقْدِرُ أَنْ يَنْصُرَهُ، فَلَمْ يَفْعَلْ**»، وقال عليه السلام: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا**» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنْصُرُهُ إِنْ كَانَ مَظْلُومًا، أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: «**تَحْجِزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ عَنِ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ**». وفي الحديث: «**أُمِرَ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ يُضْرَبُ فِي قَبْرِهِ مِائَةَ جَلْدَةٍ، فَلَمْ يَزَلْ يَسْأَلُ وَيَدْعُو حَتَّى صَارَتْ جَلْدَةٌ وَاحِدَةٌ فَامْتَلَأَ قَبْرُهُ عَلَيْهِ نَارًا، فَلَمَّا**

ارْتَفَعَ عَنْهُ وَأَفَاقَ قَالَ: عَلَامَ جَلَدْتُمُونِي؟ قَالُوا: إِنَّكَ صَلَّيْتَ صَلَاةً بِغَيْرِ طُهُورٍ وَمَرَرْتَ عَلَى مَظْلُومٍ فَلَمْ تَنْصُرْهُ».

ودخل في قوله: «**وَلَا يَخْذُلُهُ**» الخذلان الديني والدنيوي، فالديني كأن يرى الشيطان مستوليا عليه في بعض أحواله أو أعماله فلم يعنه عليه.

وفي رواية: «**وَلَا يَكْذِبُهُ**» أي لا يخبره بأمر على خلاف ما هو عليه، لأنه غش وخيانة وأشد الأشياء ضررا.

ومعنى قوله: «**التَّقْوَى هَا هُنَا**» وَأَشَارَ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، أي لأن الصدر محل القلب الذي هو بمنزلة الملك للجسد، إذا صلح صلح الجسد كله. وتكرار الإشارة للدلالة على عظم المشار إليه في الحقيقة، وهو القلب.

ومعنى قوله: «**بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ**»، أي يكفيه منه. وقوله: «**بِحَسْبِ**» فيه تحذير من الاحتقار، قال تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ**) الآية، والسخرية النظر إلى المسخور منه بعين النقص، فلا تحتقر غيرك عسى أن يكون عند الله خيرا منك وأفضل وأقرب، وقد احتقر إبليس اللعين آدم عليه السلام فباء بالخسران الأبدي، وفاز آدم بالعز الأبدي، وشتان ما بينهما. فلا تحتقر أحدًا ولو كان عبدك، فربما صار عزيزا وصرت ذليلا فينتقم منك.

ومفهوم الخبر أن الكافر يجوز احتقاره، إذ لا حرمة له بالكفر وإهانته على الله ومن يهن الله فما له من مكرم.

وقوله: «**كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ**»، جعل هذه الثلاثة كل المسلم وحقيقته لشدة اضطراره إليها، لأن الدم به حياته، والمال مادة الدم فهو مادة الحياة، والعرض قوام صورته المعنوية. واقتصر على هذه الثلاثة لأن ما سواها فرع راجع إليها، لأنه إذا قامت البدنية والمعنوية لا حاجة إلى غير ذلك.

هذا وقد تلحق الغيبة بالظلم، بل هي أشد. وقد وردت في ذمها أحاديث وأخبار، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم النبي المختار، ونهي من الله تبارك وتعالى نزل به القرآن، على سيد ولد عدنان:

منها: ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَارْتَفَعَتْ رِيحُ جِيفَةٍ مُنْتِنَةٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَتَدْرُونَ مَا هَذِهِ الرِّيحُ؟**» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**هَذِهِ رِيحُ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ النَّاسَ**».

ومنها: قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه جابر أيضا: «**إِيَّاكُمْ وَالْغِيبَةَ فَإِنَّهَا أَشَدُّ مِنَ الزِّنَا**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ الْغِيبَةُ أَشَدُّ مِنَ الزِّنَا؟ قَالَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَزْنِي ثُمَّ يَتُوبُ، فَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِ،**

وَإِنَّ صَاحِبَ الْغِيبَةِ لَا يُغْفَرُ لَهُ حَتَّى يَغْفِرَ لَهُ صَاحِبُهَا».

ومنها: ما رواه أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**مَنْ أَكَلَ لَحْمَ أَخِيهِ فِي الدُّنْيَا، قُدِّمَ إِلَيْهِ لَحْمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُقَالُ لَهُ: كُلْهُ مَيِّتًا كَمَا أَكَلْتَهُ حَيًّا، فَيَأْكُلُهُ، وَيَكْلَحُ ثُمَّ يَصِيحُ**»، ثم قرأ قوله تعالى: (**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا**).

ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم: «**الْغِيبَةُ لَهَا لَذَّةٌ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ تُورِدُ صَاحِبَهَا النَّارَ**».

ومنها: ما رواه عكرمة رضي الله عنه أن امرأة دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم، فلما خرجت قالت عائشة رضي الله عنها: ما أفصح كلامها لولا أنها قصيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**اغْتَبْتِهَا يَا عَائِشَةُ**» قالت: مَا قُلْتُ إِلَّا مَا فِيهَا، قال: «**ذَكَرْتِ أَقْبَحَ مَا فِيهَا**». ثم قال: «**مَنْ كَفَّ لِسَانَهُ عَنْ أَعْرَاضِ الْمُسْلِمِينَ، أَقَالَ اللهُ عَثْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**، ».

قيل: يؤتى العبد كتابه بشماله يوم القيامة فلا يرى فيه حسنة، فيقول: يا رب أين صلاتي وصيامي وطاعتي؟ فيقال له: ذهب عملك كله باغتيابك للناس؛ ويعطى الرجل كتابه بيمينه فيرى فيه حسنات لم يعملها، فيقال له: هذا بما اغتابك به الناس وأنت لا تشعر.

وقال تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ**) الآية.

وكما تحرم الغيبة يحرم استماعها وإقرارها، وهي ذكرك الإنسان بما فيه وبما يكره. وينبغي لصاحب الغيبة أن يستغفر الله تعالى ويتوب قبل القيام من المجلس عسى يغفر الله تعالى له ذلك لقوله صلى الله عليه وسلم: «**إِذَا ذَكَرَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ الْـمُسْلِمَ بِالسُّوءِ فَلْيَسْتَغْفِرِ اللهَ تَعَالَى، فَإِنَّهُ كَفَّارَتُهُ**».

ويحكى أن فقيها من الفقهاء كان في مدرسة مع تلامذته فدخلت عليه امرأة وقالت: أيد الله الشيخ، لي مسألة لا أجترئ أن أسألها حياء منك لعظم الإثم وصعوبة الحال، فقال لها: سلي ولا تستحي من العلم، قالت: كنت نائمة ليلة من الليالي فجاءني ابني سكرانا فواقعني فحملت منه وولدت ولدا. فتعجب القوم من ذلك، فقال الفقيه: أفتعجبون من ذلك وهذا أخف وأحب إلي من الغيبة، فإن صاحب الزنا إذا تاب تاب الله عليه وصاحب الغيبة إذا تاب لم يتب الله عليه حتى يرضى عنه خصمه.

ويحكى أن بعض الصالحين كان يجلس بجانب ملك ينصحه ويقول: أَحْسِنْ إِلَى الْـمُحْسِنِ بِإِحْسَانِهِ فَإِنَّ الْـمُسِيءَ سَتَكْفِيهِ إِسَاءَتُهُ. فحسده بعض الجهلة على قربه من الملك، وأعمل الحيلة على قتله، فسعى به للملك فقال: إنه يزعم أنك أبخر، وأمارة ذلك أنك إذا قربت منه يضع يده على أنفه لئلا يشم

رائحة البخر، فقال له: انصرف حتى أنظر، فخرج فدعا -أي الساعي المذكور- الرجل -أي الصالح الذي سعى به- لمنزله وأطعمه ثوما، فخرج الرجل -أي الصالح- من عنده وجاء للملك وقال له مثل قوله السابق: «أحسن للمحسن» كعادته، (فقال له الملك: ادن مني، فدنا منه فوضع يده على أنفه مخافة أن يشم الملك منه رائحة الثوم)، فقال الملك في نفسه: ما أرى فلانا إلا قد صدق، وكان الملك لا يكتب بخطه إلا جائزة أو صلة، فكتب له بخطه لبعض عماله: إذا ما أتاك صاحب كتابي هذا فاذبحه واسلخه واحش جلده تبنا وابعث به إلي. فأخذ الكتاب وخرج فلقيه الذي سعى به فقال: ما هذا الكتاب؟ فقال: خط الملك لي بصلة، فقال: هبه مني، فقال: هو لك، فأخذه ومضى به إلى العامل، فقال له العامل: في كتابك أني أذبحك وأسلخك، فقال: إن الكتاب ليس هو لي، الله الله في أمري حتى أراجع الملك، فقال: ليس لكتاب الملك مراجعة، فذبحه وسلخه وحشا جلده تبنا وبعث به. ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته وقال مثل قوله، فعجب الملك وقال: ما فعلت بالكتاب؟ قال: لقيني فلان فاستوهبه مني فدفعته له، فقال الملك: إنه ذكر لي أنك تزعم أني أبخر، قال: ما قلتُ ذلك، قال: فلم وضعت يدك على أنفك وفيك؟ قال: أطعمني ثوما فكرهتُ أن تشمَّه،

قال: صدقت ارجع إلى مكانك، فَقَدْ كَفَى الْمُسِيءَ إسَاءَتُهُ.

فَتَأَمَّلْ رحمك الله شُؤْمَ الحسد وما جَرَّ إليه، تَعْلَمْ سر قوله صلى الله عليه وسلم: «**لَا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لِأَخِيكَ فَيُعَافِيَهُ اللهُ وَيَبْتَلِيَكَ**». اهـ.

ومما ورد من الوعيد في الظلم، قوله عليه السلام فيما رواه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه فيما يرويه صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَّالَمُوا**» الحديث.

فقوله تبارك وتعالى: «**إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ**» الظلم هو وضع الشيء في غير محله.

وقوله: «**عَلَى نَفْسِي**» أي لاستحالته عليه تعالى، إذ هو أي الظلم التصرف في حق الغير بغير حق أو مجاوزة الحد، وكلاهما محال عليه إذ لا ملك ولا حق لأحد معه، بل هو الذي خلق المالكين وأملاكهم، وتفضل عليهم بها وحدَّ لهم الحدود، وحرم وأحل، فلا حاكم يتعقبه، ولا حق يترتب عليه. قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ**﴾.

وقوله: «**وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا**»، أي حكمت بتحريمه عليكم. وهذا مجمع عليه في كل ملة لاتفاق سائر الملل على مراعاة حفظ النفس والأنساب والأعراض والعقول والأموال، والظلم قد يقع في هذه كلها أو بعضها.

وأعلاه أي الظلم الشرك، قال تعالى: (**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**)، وهو أي الشرك المراد بالظلم في أكثر الآيات، قال تعالى: (**وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**). ثم تليه المعاصي على اختلاف أنواعها.

وروى الشيخان: «**الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ**».

ورويا أيضا: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**» **ثُمَّ قَرَأَ: (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)**.

ورويا أيضا: «**مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلِمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ**».

وقال صلى الله عليه وسلم: «**اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا مُسْتَجَابَةٌ**»، وفي رواية: «**لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ**».

حكي أن بعض الملوك غار على قرية فنهبها وأخذ أموال أهلها ومواشيهم ودوابهم وفتك فيهم، فخرجت عجوز من بعض الدور فنظرت إليه وقالت: يا ويلك من ديَّان يوم الدين إذا انشقت سماء عن سماء وبرز الرب لفصل القضاء، فقال لها: يا عجوز أما سمعت في القرآن: (**إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا**)؟ فقالت: يا هذا أنسيت الآية

الأخرى التي بعدها في السورة: (**فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا**)؟ فقال الملك: ردوا عليهم جميع مالهم. فردوه، ثم قال: يا عجوز كيف الخلاص؟ قالت: لا تقنط (**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ**).

وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «**يُؤْخَذُ بِيَدِ الْعَبْدِ وَالْأَمَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُنَادَى بِهِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ: هَذَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، مَنْ كَانَ لَهُ عَلَيْهِ حَقٌّ فَلْيَأْتِ إِلَى حَقِّهِ، قَالَ: فَتَفْرَحُ الْمَرْأَةُ أَنْ يَكُونَ لَهَا حَقٌّ عَلَى أَبِيهَا، أَوْ أَخِيهَا، أَوْ زَوْجِهَا، ثُمَّ قَرَأَ: (فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)، فَيَغْفِرُ اللهُ تَعَالَى مِنْ حَقِّهِ يَوْمَئِذٍ مَا شَاءَ، وَلَا يَغْفِرُ مِنْ حُقُوقِ الْخَلْقِ شَيْئًا، فَيَنْصِبُ الْعَبْدُ لِلنَّاسِ ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِأَصْحَابِ الْحُقُوقِ: ائْتُوا إِلَى حُقُوقِكُمْ، قَالَ: فَيَقُولُ الْعَبْدُ: يَا رَبِّ، فَنِيَتِ الدُّنْيَا فَمِنْ أَيْنَ أُوفِيهِمْ حُقُوقَهُمْ؟، فَيَقُولُ اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ: خُذُوا مِنْ أَعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ فَأَعْطُوا كُلَّ ذِي حَقٍّ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، فَإِنْ كَانَ وَلِيًّا للهِ وَفَضَلَ لَهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ضَاعَفَهَا اللهُ تَعَالَى لَهُ حَتَّى يُدْخِلَهُ بِهَا الْجَنَّةَ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا شَقِيًّا لَمْ يَفْضُلْ لَهُ شَيْءٌ فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبَّنَا، فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، وَبَقِيَ طَالِبُونَ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: خُذُوا مِنْ**

سَيِّئَاتِهِمْ فَأَضِيفُوهَا إِلَى سَيِّئَاتِهِ، ثُمَّ صُكُّوا لَهُ صَكًّا إِلَى النَّارِ». اهـ.

ومن أنواع الظلم والضرر أيضا عدم إيتاء الأجير حقه، لقوله صلى الله عليه وسلم: «**ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا، فَاسْتَوْفَى مِنْهُ الْعَمَلَ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَتَهُ**».

ومنها أن يظلم يهوديا أو نصرانيا بنحو أخذ ماله تعديا، لقوله صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ ظَلَمَ ذِمِّيًّا فَأَنَا خَصْمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

ومنها أن يقطع حق غيره بيمين فاجرة لخبر الصحيحين: «**مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ، قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا؟ قَالَ: وَإِنْ كَانَ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ**».

وكان شريح القاضي يقول: سَيَعْلَمُ الظَّالِمُونَ حَقَّ مَنْ انْتَقَصُوا، إِنَّ الظَّالِمَ لَيَنْتَظِرُ الْعِقَابَ، وَالْمَظْلُومُ يَنْتَظِرُ (النَّصْرَ) وَالثَّوَابَ.

وروي: إذا أراد الله بعبد خيرًا سلط عليه من ظلمه.

حكي أن طاوسا اليماني دخل على هشام بن عبد الملك فقال له: اتق يوم الأذان، قال هشام: وما يوم الأذان؟ قال: وقوله تعالى: (**فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى**

الظَّالِمِينَ)، فصعق هشام، فقال طاوس: هـذا ذل الصفة فكيف بالمعاينة؟. اهـ.

فالحــذر الحــذر يــا أخي من الظلم وأنــواع الضــرر، وكن من دعــوة المظلــوم على حــذر، وفيه مناسبة وكفاية، ومن اللـه تعـالى التوفيـق والهداية.

فصل في ذكر
بعض ما يتعلق بالأمانة من الآي والآثار
والأحاديث النبوية والأخبار.

فمن الآي قــول اللــه تبــارك وتعــالى: (**إِنَّ اللــهَ يَــأْمُرُكُمْ أَنْ تُــؤَدُّوا الْأَمَانَــاتِ إِلَى أَهْلِهَا**)، قيل المراد من الآية جميع الأمانات.

ومن الأخبار ما رواه الـبراء بن عـازب وابن مسعود وأبي بن كعب: الأمانة في كـل شـيء، الأمانـة في الوضـوء والصـلاة والزكـاة والصـوم والكيل والوزن والودائع.

وقــول ابن عمــر: خَلَــقَ اللــه تعــالى فــرج الإنسان وقال هَذِهِ أَمَانَةٌ خَبَّأْتها عِنْدك فَاحْفَظْهَــا إلَّا بِحَقِّهَا.

واعلم أن في كل عضو من أعضاء الإنسان أمانة:

فأمانة اللسان أن لا يسـتعمله في كـذب أو غيبة أو بدعة أو فحش أو نحوها.

وأمانة العين أن لا ينظر بها إلى محرم.

وأمانـــة الأذن أن لا يصـــغَى إلى اســـتماع محرم، وهكذا سائر الأعضاء.

فهذه كلها أمانات مع الله تعالى.

وأما مع الناس فرد الودائع، وترك التطفيف في كيــل أو وزن أو ذرع، وشــر التجــار من إذا اشــترى أرخى الــذراع وإذا بــاع شــد الــذراع، وأمانة الأمراء العدل في الرعية، وأمانة العلماء في العامة أن يحملـوهم على الطاعـة والأخلاق الحسنة، وينهوهم عن المعاصي وسـائر القبـائح كالتعصـبات الباطلـة، وأمانـة المـرأة في حـق زوجها أن لا تخونه في فراشه أو ماله ولا تخرج من بيته بغير إذنه، وأمانة العبـد في حـق سـيده أن لا يقصر في خدمته، ولا يخونه في ماله.

وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى ذلـك كله بقوله: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**».

وأما الأمانة مع النفس بأن يختار لهـا الأنفـع في الـــدين والـــدنيا، وأن يجتهـــد في مخالفـــة شـهواتها وإرادتهـا، فإنهـا السـم النـاقع المهلـك لمن أطاعها في الدنيا والآخرة.

قال أنس رضي الله عنه: ما خطبنا رســول الله صلى الله عليه وسلم إلا قــال: «**لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَــةَ لَــهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْـدَ لَهُ**».

وقــد عظم اللــه أمــر الأمانــة فقــال: (**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ**) أي التكاليف الـتي كلـف اللـه

بها عباده من امتثال الأوامر واجتناب النواهي **(عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ)** أي ابن آدم عليه السلام **(إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا)** أي لنفسه بقبوله تلك التكليفات الشاقة جدا **(جَهُولًا)** أي بمشاقها التي لا تَتَنَاهَى.

وليتأمل قوله تعالى: **(وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)** فإنه نفى كيد من خان أمانته.

وقيل إن الله خلق الدنيا كالبستان، وزينها بخمسة أشياء: علم العلماء، وعدل الأمراء، وعبادة الصلحاء، ونصيحة المستشار، وأداء الأمانة. فقرن إبليس مع العلم الكتمان، ومع العدل الجور، ومع العبادة الرياء، ومع النصيحة الغش، ومع الأمانة الخيانة.

وفي الحديث: **«أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنْ النَّاسِ الْأَمَانَةُ، وَآخِرُ مَا يَبْقَى الصَّلَاةُ، وَرُبَّ مُصَلٍّ وَلَا خَيْرَ فِيهِ»**.

وفيه أيضا: **«إِذَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَكْذِبْ، وَإِذَا وَعَدَ فَلا يُخْلِفْ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ فَلا يَخُنْ»**.

وفيه أيضا: **«اضْمَنُوا لِي سِتًّا أَضْمَنْ لَكُمْ الْجَنَّةَ، اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ»**.

وفيه أيضا: **«اكْفُلُوا لِي سِتًّا أَكْفُلْ لَكُمُ الْجَنَّةَ: الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالْأَمَانَةَ وَالْفَرْجَ وَالْبَطْنَ وَاللِّسَانَ»**.

وفيه أيضا: «**ثَلَاثٌ مُتَعَلِّقَاتٌ بِالْعَرْشِ: الرَّحِمُ تَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي بِكَ فَلَا أُقْطَعُ، وَالْأَمَانَةُ تَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي بِكَ فَلَا أُخَانُ، وَالنِّعْمَةُ تَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي بِكَ فَلَا أُكْفَرُ**».

وفيه أيضا: «**يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقَالُ لَهُ: أَدِّ أَمَانَتَك، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ كَيْفَ وَقَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيَا؟ فَيُقَالُ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى الْهَاوِيَةِ، وَتُمَثَّلُ لَهُ الْأَمَانَةُ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ دُفِعَتْ إِلَيْهِ فَيَرَاهَا فَيَعْرِفُهَا فَيَهْوِي فِي أَثَرِهَا حَتَّى يُدْرِكَهَا فَيَحْمِلُهَا عَلَى مَنْكِبَيْهِ، حَتَّى إِذَا ظَنَّ أَنَّهُ خَارِجٌ زَلَّتْ عَنْ مَنْكِبَيْهِ فَهُوَ يَهْوِي فِي أَثَرِهَا أَبَدَ الْآبِدِينَ**». ثُمَّ قَالَ: «**الصَّلَاةُ أَمَانَةٌ وَالْوُضُوءُ أَمَانَةٌ وَالْوَزْنُ أَمَانَةٌ وَالْكَيْلُ أَمَانَةٌ، وَعَدَّ أَشْيَاءَ، وَأَشَدُّ ذَلِكَ الْوَدَائِعُ**».

وقال صلى الله عليه وسلم: «**أَدِّ الْأَمَانَةَ لِمَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**»، أي لا تقابله بخيانة.

وعن ابن مسعود: يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله تعالى له: رددت أمانة فلان؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: ردها اليوم، فيقول: يا رب ذهبت الدنيا ولا شيء معي، فيقول: أنا أدلك عليها. ثم يقول لملك من الملائكة: خذ بيده وانطلق به إلي جهنم وأره تلك الأمانة، فيقول له: اهبط وأخرجها، فيهوي في النار

سبعين عاما، فإذا صار على شـفير جهنم تفلتت منه فيهبط إليها سبعين عاما، وهكذا حـتى يريـد الله تعالى. اهـ.

وقال صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ اللـهَ لَمْ يَدَعْ شَـيْئًا (مِمَّا) نَهَى عَنْـهُ إِلَّا وَقَـدْ بَيَّنَـهُ لَكُمْ، فَمَنْ أَحْسَـنَ فَلِنَفْسِـهِ وَمَنْ أَسَـاءَ فَعَلَيْهَا**».

وقـال صـلى اللـه عليـه وسـلم فيمـا رواه الطــبراني عن ابن عبــاس: «**إِنَّ اللــهَ قَــدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، أَلَا إِنَّ اللـهَ قَـدْ فَرَضَ فَرَائِضَ، وَسَنَّ سُنَنًا، وَحَدَّ حُـدُودًا، وَأَحَلَّ حَلَالًا، وَحَرَّمَ حَرَامًا، وشَرَعَ الدِّينَ، فَجَعَلَهُ سَـهْلًا سَـمْحًا وَاسِـعًا وَلَمْ يَجْعَلْـهُ ضَيِّقًا، أَلَا إِنَّهُ لَا إِيمَـانَ لِمَنْ لَا أَمَانَـةَ لَـهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْـدَ لَـهُ، وَمَنْ نَكَثَ ذِمَّةَ اللــهِ طَلَبَــهُ، وَمَنْ نَكَثَ ذِمَّتِي خَاصَــمْتُهُ وَمَنْ خَاصَــمْتُهُ فَلَجْتُ عَلَيْــهِ بِالْــحُجَّةِ وَالْبُرْهَــانِ، وَمَنْ نَكَثَ ذِمَّتِي لَمْ يَنَــلْ شَفَاعَتِي، وَلَمْ يَرِدْ عَلِيَّ الْـحَوْضَ**».

وقال صلى الله عليه وسـلم فيمـا رواه ابن حبــان في صــحيحه والحــاكم عن أنس: «**الْـمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْــوَالِهِمْ، وَالْــمُسْلِمُ مَنْ سَــلِمَ الْـمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْــمُهَاجِرُ مَنْ هَجَــرَ الْــخَطَايَا وَالــذُّنُوبَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَدْخُلُ الْـجَنَّةَ عَبْدٌ لَا يَـأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**».

وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن عساكر عن أنس: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا حَتَّى يَكُونَ قَلْبُهُ مَعَ لِسَانِهِ سَوَاءٌ، وَيَكُونَ لِسَانُهُ مَعَ قَلْبِهِ سَوَاءٌ، وَلَا يُخَالِفُ قَوْلُهُ عَمَلَهُ، وَيَأْمَنُ جَارَهُ بَوَائِقُهُ**».

وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة: «**لَيْسَ شَيْءٌ أُطِيعُ اللهَ فِيهِ أَعْجَلَ ثَوَابًا مِنْ صِلَةِ الرَّحِمِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَعْجَلَ عِقَابًا مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ، وَالْيَمِينِ الْفَاجِرَةِ تَدَعُ الدِّيَارَ بَلَاقِعَ**».

//فيما رواه *البخاري ومسلم* عن أبي هريرة؟؟ - البيهقي//

وقال صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه أبو نعيم عن أنس رضي الله عنه: «**لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْجَوَارِحِ يُعَذَّبُ أَشَدَّ مِنَ اللِّسَانِ، يَقُولُ اللِّسَانُ: يَا رَبِّ عَذَّبْتَنِي بِعَذَابٍ وَلَا يعَذب بِهِ الْجَسَد، قَالَ: خَرَجَتْ مِنْكَ كَلِمَةٌ بَلَغَتِ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ وَسُفكت بِهَا الدِّمَاء، وَعِزَّتِي لَأُعَذِّبَنك عَذَابًا لَا أعذب بِهِ شَيْئًا مِنَ الْجَوَارِحِ**».

وقال صلى الله عليه وسلم: «**اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُوم فَإِنَّهَا تُحْمَلُ عَلَى الْغَمَامِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ**».

ويحكى أن رجلًا أودع رجلا مالا كثيرا ثم سافر إلى مكان بعيد، فلما قدم من سفره أراد

أن يأخذ ماله، فوجد الرجل الذي عنده المال قد مات وترك ولدا فاسقا قد ضيَّع أموال والده في المعصية، فخاف الرجل على ماله فسأله عنه فقال إنه محفوظ، فلما دفعه إليه قال: كيف حفظته؟ قال: إن ضيعت ديني فلا أضيع الأمانة. فأعطاه ذلك المال، وكان عدته خسمة آلاف دينار، فتاب عن المعاصي وبارك الله له فيه، وكان ذلك ببركة حفظ الأمانة. اهـ.

وحكي أيضا أن رجلا فقيرا كان بمكة وله زوجة صالحة، فقالت: ليس عندنا شيء، فخرج إلى الحرم فوجد كيسا فيه ألف دينار، ففرح به فرحا شديدا، وأخبر زوجته بذلك فقالت له: لقطة الحرم لا بد فيها من التعريف. فخرج، فسمع المنادي: من وجد كيسا فيه ألف دينار؟ فقال: أنا وجدته، فقال: هو لك ومعه تسعة آلاف دينار، فقال: أتستهزئ بي؟ قال: لا والله، ولكن أعطاني رجل من أهل العراق عشرة آلاف دينار وقال: اطرح منها ألفا في الحرم ثم نادِ عليها فإن ردها من وجدها فادفع الجميع إليه لأنه أمين والأمين يأكل ويتصدق فتكون صدقتنا مقبولة لأمانته. اهـ.

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: (**فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ**) وهي الديك، والغراب، والطاووس، والبط. وإنما خصهم بذلك لأن الخيانة وجدت عندهم: فالطاووس خان آدم، والبط قطع شجرة اليقين عن يونس، والديك خان إلياس لأنه سرق ثوبه، والغراب

خان نوحا لأنه اشتغل بالجيفة لما أرسله لينظـر موضعا خاليا من الماء.

ويــروى أن بعضــهم جــاء إلى ذي النــون المصري رحمه الله ليتعلم منه الاســم الأعظم، فأقام عنده سنه وستة أشهر ثم أقسم عليه أن يعلمه، فدفع إليه إناء عليـه غطـاء وقـال: اذهب به إلى فلان، فـذهب بـه ثم كشـف الغطـاء في أثناء الطريـق فـوثبت من الإنـاء فـأرة، فغضـب غضـبا شـديدا ورجـع إلى ذي النـون المصـري وقـال: أتسـتهزئ بي؟ فقـال لـه: ائتمنـاك على فأرة فخنتنا فيها فكيف أستأمنك على اسم الله الأعظم؟ اهـ.

ويحكى أيضـا أن اللــه خلـق الأمانــة على صورة صخرة، فعرضها على السـموات والأرض عـرض تخيـير لا عـرض إلـزام، فأشـفقن منها، فقال آدم: لـو أمـرتُ بحملها لحملتها، فحملها إلى ركبتيه ثم وضـعها إلى وركيـه وهمـا عظمـا الورك، ثم وضعها ثم حملها على عاتقـه، فلمـا أراد وضـعها قيـل لـه: مكانـك فهي في عنقـك وعنـق أولادك إلى يـوم القيامـة لأنـك حمتلهـا باختيارك. اهـ. بخ. وزيادة من النزهة، وفيه لمن يؤدي الأمانـة تـرغيب، ولمن يخـون فيهـا تهديـد وترهيب.

فصل

في ذكر بعض ما يتعلق بالقناعة والزهد والتوكل على من له الأمر من قبل ومن بعد

قال تعالى: (**فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ**)، وقال: (**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ**).

قال النسفي: كل صفة لثمان سنين إلى أربعين سنة: لعب ثمان سنين، ولهو ثمان سنين، وزينة ثمان سنين، وتفاخر ثمان سنين. فإذا بلغ أربعين سنة، فإن كان موفَّقا أقبل على الآخرة وتزود لها، وإلا خسر خسرانا مبينا.

وقوله (**كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ**) أي الزراع، لأن الزارع يكفر البذر أي يستره في الأرض، (**ثُمَّ يَهِيجُ**) أي يصير يابسا، (**ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا**) أي منكسرا، (**وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ**) أي لمن رغب في الدنيا، (**وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ**) لمن تزود منها للآخرة.

قال القرطبي: قال رجل: يا نبي الله أخبرني بجلساء الله تعالى يوم القيامة، قال: «**هُمُ الْخَائِفُونَ، الْخَاضِعُونَ، الْمُتَوَاضِعُونَ، الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا**»، قال: أَفَهُمْ أَوَّلُ النَّاسِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ؟ (قَالَ:

«لَا»، قَـــالَ: فَمَنْ أَوَّلُ النَّاسِ يَـــدْخُلُ الْجَـنَّةَ؟ قَـــالَ: «**الْفُقَـــرَاءُ يَسْـــبِقُونَ النَّاسَ إِلَى الْـــجَنَّةِ، فَيَخْـرُجُ إِلَيْهِمْ مِنْهَـا) مَلَائِكَـةٌ، فَيَقُولُـــونَ: ارْجِعُـــوا إِلَى الْحِسَـــابِ، فَيَقُولُـونَ: عَلَامَ نُحَاسَـبُ؟ (وَاللـهِ) مَـا أُفِيضَتْ عَلَيْنَا الْأَمْوَالُ فِي الدُّنْيَا فَنَقْبِضَ فِيهَـا وَنَبْسِـطَ، وَمَـا كُنَّا أُمَـرَاءَ نَعْـدِلُ وَنَجُـورُ، وَلَكِنَّا جَاءَنَـا أَمْـرُ اللـهِ فَعَرَفْنَـاهُ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ**».

قال النبي صلى الله عليـه وسـلم: «**اتَّقُوا اللـــهَ فَإِنَّهُ يَقُـــولُ يَـــوْمَ الْقِيَامَـــةِ أَيْنَ صَـفْوَتِي مِنْ خَلْقِي؟ فَتَقُـولُ الْـمَلَائِكَةُ: مَنْ هُمْ يَا رَبَّنَا؟ فَيَقُـــــولُ: الْفُقَــــرَاءُ الصَّـــابِرُونَ الرَّاضُـــونَ بِقَـــدَرِي، أَدْخِلُهُمُ الْـــجَنَّةَ فَيَـــدْخُلُونَ الْـــجَنَّةَ يَـــأْكُلُونَ وَيَشْـــرَبُونَ، وَالْأَغْنِيَـــاءُ فِي الْـــحِسَابِ يَتَرَدَّدُونَ**». اهـ.

وروي أن سـيدنا إبـراهيم على نبينـا وعليـه الصـلاة والسـلام أصـابته حاجـة، فـذهب إلى صـديق لـه يسـتقرض منـه شـيئا فلم يقرضـه، فرجع مهمومـا، فـأوحى اللـه إليـه: لـو سـألتني لأعطيتـك، فقـال: يـا رب عـرفتُ مقتـك للـدنيا فخشيتُ أن أسألك إياها فتمنعني، فـأوحى اللـه إليه: ليست الحاجة من الدنيا.

وقـال عليـه السـلام: «**مَنْ طَلَبَ الـدُّنْيَا حَلَالًا وَاسْتِعْفَافًا عَنِ الْـمَسْأَلَةِ، (وَسَـعْيًا عَلَى أَهْلِهِ)، (وَتَعَطُّفًـا) عَلَى جَـارِهِ، لَقِيَ**

اللـهَ وَوَجْهُـهُ كَـالْقَمَرِ لَيْلَـةَ الْبَـدْرِ؛ وَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا تَكَاثُرًا وَتَفَاخُرًا مُرَائِيًـا، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ».

وقـال الفضيل رضـي اللـه عنـه: من أقـام نفسه في ذل في طلب الحلال حشره الله مـع الصديقين ورفعه إلى الشهداء يوم القيامة.

وحكي أن رجلا كان يخدم موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ويقول: حـدثني موسـى كليم الله، حدثني موسى نجي اللـه، ثم افتقـده موسـى أيامـا فسـأل عنـه، فجـاء رجـل يقـول: مُسخ خـنزيرا، فـدعا موسـى ربـه أن يـرده إلى حاله، فأوحى الله إليه: يا موسى لو دعوتني بما دعـاني بـه آدم فمن دونـه مـا أجبتـك، ولكن أخبرك بما صنع إنه كان يأكل الدنيا بالدين. اهـ.

ويحكى أيضـا كمـا في تفسـير العلائي في سـورة يس: أن عيسـى عليـه السـلام مـرَّ على قرية فوجد أهلها أمواتا على الطرقات من غـير دفن، فسأل ربه عنهم فأوحى الله إليه: إذا كان الليل فادعهم فإنهم يجيبونـك. فلمـا كـان الليـل نـاداهم، فقـال واحـد منهم: لبيـك يـا روح اللـه تعالى، قال: ما قصـتكم؟ قـال: بتنـا في عافيـة، وأصـبحنا في الهاويـة، قـال: ولم؟ قـال: لحبنـا الدنيا كحب الصبي لأمه، إذا أقبلت علينا فرحنـا بهـا، وإذا أدبـرت بكينـا عليهـا. قـال: فمـا بـال أصحابك لا يجيبوني؟ قـال: إنهم ملجمـون بلجم من نار بأيدي ملائكة غلاظ شـداد، قـال: فكيـف أنت أجبتـني من بينهم؟ قـال: إني لسـت منهم

بل مررت بهم حال نزول العـذاب فأصـابني مـا أصابهم وأنا معلق بشفرة على شـفير جهنم فلا أدري أنجو منها أم لا. اهـ.

وقال في زهر الرياض: لمـا تـولى سـليمان الملك جاءه جميـع الحيوانـات يهنئونـه إلا نملـة، فإنهـا جـاءت تعزيـه، فعاتبتهـا النمـل في ذلـك فقـالت: لم أهنئـه وقـد علمت أن اللـه إذا أحب عبدا زوى عنـه الـدنيا وحبب إليـه الآخـرة، وقـد اشتغل سـليمان بـأمر لا يـدري مـا عاقبتـه فهـو بالتعزية أولى من التهنئة.

وجـاءه في بعض الأيـام شـراب من الجنـة، وقيل له: إذا شـربته لم تمت. فشـاور جنـده إلا القنفذ فإنه كان غائبا، فأشاروا عليه أن يشربه، فأرسل الفرس خلف القنفذ فلم يجده، فأرسل الكلب إليه فأجابه، فسأله سليمان عن الشراب فقال: لا تشربه فإن المـوت في العـز خـير من البقـاء في سـجن الـدنيا، قـال: صـدقت، وأراق الشراب في البحـر فطـاب مـاؤه. ثم قـال لـه: كيف لا أطعت الفرس دون الكلب؟ قـال: لأنهـا تعدو بعدوها كما تعدو بصـاحبها والكلب لا يطيـع إلا صاحبه.

وقال مكحول التابعي رضي اللـه عنـه: مـر سـليمان عليـه السـلام على بسـاط ملكـه على الريح بحـراث، فقـال: وددت أني أكلم سـليمان ثلاث كلمـات. فـأخبره اللـه بـذلك، فـنزل عليـه فقال: أخـبرني عن الكلمـات الثلاث، فقـال: يـا نبي الله أنت لا تجد لذة أمس وأنا لا أجـد تعبـه،

فأنا وأنت سواء؛ وأنت تموت وأنا أمـوت، فنحن سواء؛ وأنت تُحاسب على قدر مـا أعطـاك وأنـا أحاسبُ على قـدر مـا أعطـاني. فبكى سـليمان وقال: يا رب لولا أنك كـريم لا ترجـع في هبتـك لسألتك الرجوع فيها.

ويحكى أن بعض العبـاد من بـني إسـرائيل قال: يا موسى اسأل ربـك أن يرزقـني، فسـأل ربه فأوحى الله إليه: يا موسى أقليلا سـألت أم كثـيرا؟ فقـال: يـا رب بـل كثـيرا. فلمـا أصـبح موسى وجد السبع قـد أكـل الرجـل، فقـال: يـا رب سـألتك لـه كثـيرا فأكلـه السـبع، فقـال: يـا موسى إنك سألت لـه كثـيرا وكـل مـا كـان في الدنيا فهو قليل.

وقال في الإحيـاء إن عيسـى عليـه السـلام اشتد عليه الرعد والبرق والمطـر يومـا، فجعـل يطلب شيئا يلجأ إليه، فرأى خيمة فأتاها، فوجـد فيها إمرأة فتركها، فإذا بغار في جبل فأتاه فـإذا فيه أسد عظيم فوضع يده على رأسه وقال: يـا إلهي جعلت لكـل شـيء مـأوى ولم تجعـل لي مـأوى. فـأوحى اللـه إليـه: مـأواك في مسـتقر رحمي ولأزوجنـك مائـة حـوراء يـوم القيامـة، ولآمـرن مناديـا ينـادي: أين الزهَّاد في الـدنيا زوروا عرس الزاهد عيسى بن مريم. اهـ.

وقـال بعض الصـالحين: رأيت في المنـام رجلا يطلب غزالـة وخلفـه أسـد فقتلـه قبـل أن يلحق الغزالـة، وهكـذا إلى تمـام المائـة، وكلمـا قتـل الأسـد واحـدًا وقفت الغزالـة عنـد رأسـه

فتعجب من ذلك فقال الأسد: لا تعجب أنا ملك الموت والغزالة هي الدنيا وهؤلاء طلابها أقتلهم واحدا بعد واحد.

فإن قيل: كيف أمطر الله على أيوب جرادا من ذهب؟ قيل: جعله الله عوضا من الدود، فالجراد نعمة للطائع وعقوبة للعاصي لأنه مخلوق من الدود، وذلك أن المريض تلقى ذنوبه في البحر فيخلق الله منها التمساح فإذا مات صار دودًا ثم جرادًا بإذن الله تعالى. اهـ.

وذكر العلائي في سورة النحل: أن إبليس يعرض الدنيا على من يريدها كل يوم، فيقول: من يشتري شيئا يضره ولا ينفعه، ويهمُّه ولا يسُره؟ فيقول عشاقها وأصحابها: نحن، فيقول: إنها معيوبة، فيقولون: لا بأس، فيقول: ثمنها ليس بالدرهم ولا بالدينار ولكن بنصيبكم من الجنة فإني اشتريتها بأربعة أشياء بلعنة الله وغضبه وسخطه وعذابة وبعت الجنة بها، فيقولون: يجوز لنا ذلك، فيقول: أريد أن أربح بأن توطنوا قلوبكم أن لا تدعوها أبدا، فيقولون: نعم، فيبيعهم إياها على ذلك ثم يقول: بئست التجارة. اهـ.

وفي سفينة الأبرار: أن الله تعالى خلق الدارين ونصب لهما دلالَيْن: فدلال الجنة محمد صلى الله عليه وسلم، وبائعها المولى، وثمنها التوحيد وبذل المال والنفس؛ ودلال الدنيا إبليس، ومشتريها الراغبون، وثمنها ترك الدين. اهـ.

وقــال بعض الحكمــاء: الــدنيا مــيراث المغــرورين، ومســكن البطــالين، وســوق الراغبين، وميدان الفاسقين، ومـراح الكـافرين، وسجن المؤمنين، ومزبلة المتقين. زاد بعضـهم: ومزرعة للعاملين. اهـ.

ويروى أنه لما مر سليمان بواد النمل قالت نملة: (**يَا أَيُّهَا النَّمْـلُ ادْخُلُـوا مَسَـاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُــلَيْمَانُ وَجُنُــودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**)، وإنما قالت ذلك خوفا على قلوبهم أن تميل إلى الدنيا.

فلمـا سلّم عليهـا سـليمان قـالت: وعليـك السلام أيها الفاني المشتغل بملكك، فأنت تظن يا سليمان أن لك أمرا ونهيا، فأنـا نملـة ضـعيفة لي أربعــون ألــف مقــدم، تحت يــد كــل مقــدم أربعــون صــنفا من النمــل، كــل صــنف من المشرق والمغرب.

فقال: كيف تلبسون السواد؟

قـالت: لأن الـدنيا دار مصـيبة ولبـاس أهـل المصائب السواد.

قال: فما هذا الحز الذي في وسطك؟

قالت: هذه منطقة الخدمة للعبودية.

قال: فما بالكم تبعدون عن الخلق؟

قالت: لأنهم في غفلة فالبعد عنهم أولى.

قال: فما بالكم عراة؟

قالت: هكذا ولـدنا إلى الـدنيا وهكـذا نخـرج منها.

قال: فكم تأكلين؟

قالت: حبة أو حبتين.
قال: ولم؟
قالت: لأنا على سفر والمسافر كلما خف حمله خف ظهره.
قال: اطلبي مني حاجة.
قالت: أنت عاجز والطلب منك غير جائز.
قال: لابد من الطلب.
قالت: زد في رزقي وفي عمري.
قال: اطلبي شيئا يكون في يدي.
قالت: إن الله يقضي حوائج المحتاجين.
قال: ما اسمك؟
قالت: منذرة أنذر أصحابي من الدنيا الساحرة، وأرغبهم في الآخرة. وفي رواية حرمة.
ثم قالت: يا سليمان ما أفخر ما أوتيت في ملكك؟
قال: الخاتم لأنه من الجنة.
قالت: تعْلم، معناه يعني الذي أعطيناك من الدنيا في يدك بقدر فص الخاتم.
ثم قالت: هل غير هذا؟
قال: نعم بساط من الجنة على ظهر الريح.
قالت: هذا تنبيه على أن جميع ما معك كمثل الريح، اليوم معك وغدا يزول عنك.
قال: فإن غدوها شهر ورواحها شهر.
قالت: فيه إشارة إلى أن عمرك يطير وأنت مستعجل المسير.
قال: علمني منطق الطير.

قالت: اشتغل بمناجاة الله عن مناجاة الغير.
قال: أخدمني بالأنس والجن.
قالت: فيه إشارة إلى أن الخلق اشتغلت بخدمتك فاشتغل أنت بخدمتي.
قال: إني أستأنس بفص الخاتم لأن عليه اسم الله.
قالت: استأنس بالمسمى يغنيك عن الاسم. اهـ. بخ. منها أيضا.
تنبيه: ترك ما تمس إليه حاجة دنيوية ليس من الزهد في شيء، إذ لا بد من السعي فيما يحصل به قوام الإنسان، ومن تلزمه نفقته، بل ترك ذلك معصية إذ لا يجوز تركهم في ضيعة. اهـ.
وفي الحديث: «**كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ**» اهـ.
وكذا ليس من الزهد ترك ما ندب إليه الشرع من اتخاذ ثوبين للجمعة، وكذا لبس ما يسقط المروءة. اهـ.
وفي الحديث: «**لَيْسَتِ الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ وَلَا إِضَاعَةِ الْمَالِ، وَلَكِنِ الزَّهَادَةُ (فِي الدُّنْيَا) أَنْ تَكُونَ بِمَا فِي يَدِ اللهِ أَوْثَقَ مِنْكَ بِمَا فِي يَدِكَ، وَأَنْ تَكُونَ فِي ثَوَابِ الْمُصِيبَةِ إِذَا أُصِبْتَ بِهَا أَرْغَبَ مِنْكَ فِيهَا لَوْ أَنَّهَا بَقِيَتْ لَكَ**».
أخرجه الترمذي عن أبي ذر مرفوعا.

وزاد رزين: لأن الله تعالى يقول: (**لِكَيْلا تَأْسَوْا على مَا فَاتَكُمْ ولا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم**). اهـ. وفيه مناسبة وتنبيه، للمتفقرة المكيين سيما من يزعم منهم الانخراط في سلك أهل التجريد وذويه.

فصل
في الكلام على بعض ما يتعلق بالقناعة والتوكل على الله الذي لا مانع ولا معطي ولا رازق سواه

قال الله تعالى: (**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ**) أي في قناعة، (**وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**) أي في طمع.

وقال تعالى: (**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**)، قال في الرسالة القشيرية: قال كثير من المفسرين: المراد بالحياة الطيبة في الدنيا هي القناعة.

وقيل في قوله تعالى: (**وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ**) أي يميتني بالطمع ويحييني بالقناعة.

وقال الجنيد في قوله تعالى: (**لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا**) أي لألبسنه ثوب الطمع ولأحرمنه ثوب القناعة.

وقال في الرسالة أيضا: لما مر موسى بالجدار وأقامه الخضر قال له موسى: (**لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا**)، فلما خرجا من القرية دعا الحضر ظبيا فوقف بينهما، فصار الجنب الذي يلي الخضر لحما مشويا، والجنب الذي يلي موسى لحما طريا. فسأله موسى عن ذلك فقال: لأنك طمعت وأنا قنعت.

وقال في العقائق: جاءهما من الهواء طبقان على أحدهما خبز وسمك مشوي فوقع بين يدي الخضر، والآخر عليه سمك طري فوقع بين يدي موسى، فتبسم الخضر وقال: أنا صبرت وأنت لم تصبر.

والقرية هي أنطاكية، والجدار كان طوله مائتين وخمسين ذراعا، وعرضه سبع مائة ذراع، وكان قد مال على طريق الناس فدفعه الخضر بساعده، فساعده موسى في ذلك فاستوى كما كان.

وحكي أن حفصة بنت عمر رضي الله عنهما قالت لأبيها: يا أبت البس ألين الثياب، فقال: يا حفصة ألستِ تعلمين أن أعلمَ الناس بحال الرجل أهل بيته؟ قالت: نعم، قال: ناشدتك الله هل تعلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث في النبوءة كذا وكذا (سنة) لم يشبع هو وأهله غدوة إلا جاعوا عشية، ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة؟ قالت: نعم، قال ناشدتك الله هل تعلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يغسل ثيابه فيأتيه بلال فيؤذنه

بالصلاة فلا يجد ثوبا يخرج به إلى الصلاة؟ قالت: نعم، قال: ناشدتك الله. فما زال يُذَكِّرها حالَ النبي صلى الله عليه وسلم حتى بكى وأبكاها.

وقال صلى الله عليه وسلم: «**لَيْسَ خَيْرُكُمْ مَنْ تَرَكَ الدُّنْيَا لِلآخِرَةِ، وَلا الآخِرَةَ لِلدُّنْيَا، وَلَكِنْ خَيْرُكُمْ مَنْ أَخَذَ مِنْ هَذِهِ وَهَذِهِ**».

وقال الله تعالى: (**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ**».

وقال الحسن البصري: التوكل هو الرضا بفعل الله تعالى، أي اعتماد القلب على الله.

وفي كتاب العقائد: أن رجلا من أهل البصرة اجتمع عليه من الدين ألف دينار، فطالبه الغرماء فلم يجد من يقرضه، فهرب إلى الكوفة ودخل مسجدها، وقال: يا ملائكة ربي ارفعوا قصتي إلى الله فإني غريب ومديون. فجاء رجل وأيقظه من نومه وقال: يا صاحب القصة اجلس فهذه ثلاثة آلاف دينار، فسأله عن ذلك فقال: كنت نائما فرأيت قائلا يقول: في المسجد غريب ومديون قد رفع قصته إلينا فادع إليه ثلاثة آلاف دينار، فإذا نفدت فائتنا، وأنا فلان بن فلان. فقال: معاذ الله أن أرفع قصتي إلا لمن أرسلك إلي. اهـ.

وفيـه أيضـا: أن ملكين نـزلا من السـماء أحـدهما بالمشـرق والآخـر بـالمغرب، ثم رجعـا إلى آخـر النهـار فالتقيـا في السـماء، فقـال أحدهما لصاحبه: أين كنت؟ قـال: في المشـرق أرسلي ربي إلى كنز رجـل خسـفت بـه الأرض، فقـال الآخـر: وأنـا أرسـلني ربي بـأمر عجيب أمرني أن أُخْرِج الكنز من قـرار الأرض وأجعلـه بـدار رجـل فقـير بـالمغرب ليس لـه درهم ولا دينـار. فسـمعهما رضـوان خـازن الجنـة فقـال: قصتي أعجب من ذلـك، إن اللـه تعـالى أمـرني أن أذهب إلى دار الفقـير الـذي صـار الكـنز في داره وأعد الكنز كم درهم (وكم) دينـار ففعلت، ثم أمرني أن أبني قصـورا في الجنـة بعـدد كـل درهم ودينـار لصـاحب الكـنز والفقـير. فقـال الملكان: ربنـا أطلعنـا على هـذه الكرامـة الـتي أكرمت بها صاحب الكنز والفقير، فقال سبحانه وتعالى: لما خُسـف بـالكنز قـال صـاحبه الحمـد لله الذي جعلني راضيا بقدره، وأمـا الفقـير فلم يفـرح بـالكنز بـل قـال إن في خزانتـه مـا لا يحوجني إلي غيره. اهـ.

وحكي أن سليمان عليـه السـلام خـرج إلى شـاطئ البحـر فوجـد نملـة في فمهـا ورقـة خضـراء، فلمـا وصـلت إلى المـاء خـرج ضـفدع فحملهـا على ظهـره، وغاصـت بهـا قليلا ثم رجعت. فسألها سليمان عليه السلام عن ذلـك، فقالت: يا نبي الله في البحر صخرة صـماء في وسطها دودة، وقد وكلني الله برزقهـا كـل يـوم

مـــرتين، وخلـــق ملكـــا على صـــورة الضـــفدع فيحملني إلى الصخرة فتنشق فتأخـذها الـدودة مـني وتقـول: سـبحان من خلقـني، وفي البحـر أسكنني، ومن الرزق لم ينسـني، اللهم كمـا لم تنسني من رزقك فلا تنسـى أمـة محمـد صلـى الله عليه وسلم من عفوك ورحمتك.

ويحكى عن أنس رضـي اللـه عنـه قـال: خرجت مع النبي صلى الله عليـه وسـلم فرأينـا طـيرا أعمى يضـرب بمنقـاره على الشـجرة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **«أَتَدْرِي مَا يَقُولُ؟»** قلت: الله ورسوله أعلم، قـال: **«إِنَّهُ يَقُـولُ: اللَّهُمَّ أَنْتَ الْعَـدْلُ وَقَـدْ حَجَبْتَ عَنِّي بَصَـرِي وَقَـدْ جِعْتُ»**، فـأقبلت جـرادة فـــدخلت في فمــه، ثم ضـــرب بمنقـــاره على الشجرة فقال صلى الله عليه وسلم: **«أَتَـدْرِي مَا يَقُولُ؟»**، قلت: لا، قال: **«إِنَّهُ يَقُولُ: مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللهِ كَفَاهُ»**. اهـ.

ويروى أن مالكـا بن دينـار رضـي اللـه عنـه قال: خرجت إلى الحج فرأيت طيرا في منقاره رغيـف فتبعتـه، فجـاء إلى شـيخ موثـوق وصـار يلقمه لقمة لقمة ثم طار، وجـاء بمـاء في فمـه فســكبه في فم الشــيخ. فقلت لــه: من أنت؟ قال: من الحجـاج، أخـذني اللصـوص وربطـوني هاهنـا، فصـبرت على الجـوع خمسـة أيـام ثم قلتُ: يا من يجيب دعوة المضطر إذا دعاه فأنـا مضطر فارحمني، فأرسل الله لي هذا الغـراب. قال مالك: فحللته من وثاقه ومضينا. اهـ.

وذكر ابن خلكان عن أبي الحسن أنه كان يأكل مع أصحابه طعاما، فجاء قط فطرحوا له لقمة فأخذها وذهب سريعا ثم رجع، فطرحوا له لقمة أخرى، وهكذا خمس مرات، فتبعه رجل إلى بيت خراب فوجد فيه قطا أعمى وهو يضع اللقمة بين يديه، فانقطع الشيخ أبو الحسن إلى الله وترك الاكتساب. اهـ.

وفي تفسير الرازي: أن عيسى عليه السلام مر بالحواريين وهم يصطادون السمك، فقال لهم: تعالوا حتى نصطاد الناس، فقالوا: من أنت؟ قال: أنا عيسى، فآمنوا به. فلما تركوا الصيد جاءوا، فأخبروا عيسى بذلك، فضرب على الأرض فأخرج لكل واحد رغيفا، ثم قالوا: عطشنا، فضرب بيده على الأرض فخرج الماء، فقالوا: من أفضل منا، قال: من يأكل من كسب (يمينه).

فائدة: تعوَّذ النبي صلى الله عليه وسلم من جهد البلاء. قال عمر رضي الله عنه: هو قلة المال وكثرة العيال. وقال غيره: هو الجار السوء، والرسول البطئ، والمرأة المخاصمة، والسراج المظلم، وهرة تعوي. اهـ.

إن قيل: ما الحكمة في أن سليمان عليه السلام رد الله عليه الشمس بعدما غربت حتى صلى العصر، ومحمد صلى الله عليه وسلم ما ردها عليه حين نام في الوادي بل صلى الصبح قضاء؟

فالجوابُ: أن محمدًا صلى الله عليه وسلم وكل يقظته إلى مخلوق هو بلال الحبشي. وجواب آخر وهو الأحسن أن سليمان حكم عليه الوقت فلا تصح الصلاة إلا فيه، ومحمد حكم على الوقت فتصح الصلاة فيه وفي غيره قضاء منه ومن أمته، مع أنها قد ردت له صلى الله عليه وسلم في بعض الأوقات. ولقد أجاد القائل رحمه الله تعالى:

والشمس بعد غروبها ردت له=والبدر بين يديه شق وأفرجا

إن قيل: ما الفرق بين التوكل، والتسليم، والتفويض؟

فيقال: التوكل أن تسكن إلى وعد الله، والتسليم أن تكتفي بعلم الله، والتفويض أن ترضى بحكم الله عز وجل. اهـ. منها بخ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه الترمذي قال: **كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقَالَ: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»**.

فقوله صلى الله عليه وسلم: «**إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ**»، أي ينفعك الله بهن كما في رواية أخرى، أي تتعلمهن وتعلمهن، وهي وإن كانت قليلة فمعانيها كثيرة جليلة.

وقوله: «**احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ**» أي بحفظك فرائضه وحدوده، وملازمة تقواه، واجتناب نواهيه، وما لا يرضاه، يحفظك في نفسك وأهلك ودنياك، لاسيما عند العمل إذ الجزاء من جنس العمل، ومنه (**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**)، (**إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ**). وقد مدح الله تعالى الحافظين لحدوده، فقال تعالى: (**هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ**).

وقوله: «**احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ**»، أي احفظ الله وكن ممن خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب، تجده تجاهك أي أمامك، أي تجده معك بالحفظ والإحاطة والتأييد والإعانة، حيث ما كنت، فتستأنس به وتستعين به عن خلقه. وخص الأمام من بين الجهات الست إشعارا بشرف المقصد، وبأن الإنسان مسافر للآخرة غير مقيم في الدنيا، والمسافر إنما يطلب أمامه لا غير.

والمعنى تجده حيث ما توجهت وتيممت وقصدت من أمر الدنيا والدين.

وقوله: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ**»، أي إذا أردت سؤال شيء فسأل الله أن يعطيك إياه، ولا تسأل غيره، فإن خزائن الجود بيده وأزمتها

إليه، إذ لا قادر ولا معطي ولا متفضل غيره، فهو أحق أن يقصد سيما وقد قسم الرزق وقدَّره لكل أحد بحسب ما أراده له، لا يتقدم ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينقص بحسب علمه القديم الأزلي، وإن كان يقع في ذلك تبديل في اللوح المحفوظ بحسب تعليق على شرط، ومن ثم كان للسؤال فائدة لاحتمال أن يكون إعطاء المسؤول معلقا على سؤاله.

روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّ الرُّوحَ الْأَمِينَ أَلْقَى فِي رَوْعِي لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ**» أي طلب الحلال، فمع النظر في ذلك لا فائدة في سؤال الخلق مع التعويل عليهم، فإن قلوبهم كلها بيد الله يصرفها على حسب إرادته، فوجب أن لا يعتمد في أمر من الأمور إلا عليه، فإنه المعطي المانع، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، له الخلق والأمر، وبيد قدرته النفع والضر، وهو على كل شيء قدير.

وقد جاء في الحديث: «**مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ فَلِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ حَتَّى شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ**».

وأخرج المحاملي وغيره: «**قال الله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي دَعَانِي فَلَمْ أُجِبْهُ، وَسَأَلَنِي فَلَمْ أُعْطِهِ، وَاسْتَغْفَرَنِي فَلَمْ أَغْفِرْ لَهُ، وَأَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ؟**».

وفي الحديث: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْـــمُلِحِّينَ فِي الدُّعَاءِ**»، أي والمخلوق يغضب وينفر عند تكرر السؤال.

وقد قال تعالى لموسى عليه السلام: يا موسى سلني في دعائك (...) في صلاتك حتى ملح عجينك.

وأنشدوا:

اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ=وَبَنِي آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

فشتان ما بين هذين، وسحقا لمن تعلق بالأثر وأعرض عن العين.

موعظة وفائدة: سأل رجل الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه أن يعظه، فقال الإمام: إِنْ كَانَ اللهُ تَعَالَى تَكَفَّلَ بِالرِّزْقِ، فَاهْتِمَامُك لِمَاذَا؟ (وَإِنْ كَانَ الرِّزْقُ مَقْسُومًا فَالْحِرْصُ لِمَاذَا؟) وَإِنْ كَانَ الْخَلَفُ عَلَى اللهِ، فَالْبُخْلُ لِمَاذَا؟ وَإِنْ كَانَتْ الْجَنَّةُ حَقًّا، فَالرَّاحَةُ لِمَاذَا؟ وَإِنْ كَانَتِ النَّارُ حَقًّا، فَالْمَعْصِيَةُ لِمَاذَا؟ وَإِنْ كَانَ سُؤَالُ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ حَقًّا فَالْأُنْسُ لِمَاذَا ، وَإِنْ كَانَتْ الدُّنْيَا فَانِيَةً، فَالطُّمَأْنِينَةُ لِمَاذَا؟ وَإِنْ كَانَ الْحِسَابُ حَقًّا، فَالْجَمْعُ لِمَاذَا؟ وَإِنْ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، فَالْحُزْنُ عَلَى مَاذَا؟.

وفيه أيضا: يَا رَسُولَ اللهِ فِيمَ الْعَمَلُ اليوم؟ أَفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ، أَمْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ؟ قال: «**فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ**»، قالوا: فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ قال: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**».

وقوله: «**وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»، أي إذا طلبت الإعانة على أمر من أمور الدنيا والآخرة فاستعن بالله لأنه القادر على كل شيء، وغيره عاجز عن كل شيء حتى عن جلب مصالح نفسه ودفع مضارها.

كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: لا تستعن بغير الله يكلك الله إليه.

وقوله: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ**» أي سائر المخلوقين «**لَوِ اجْتَمَعَتْ**» كلها «**عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ**» أي من خيري الدنيا والآخرة «**لَمْ يَنْفَعُوكَ**» أي بشيء من الأشياء «**إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ**» أي في علمك أو في اللوح المحفوظ «**وَإِنِ اجْتَمَعُوا**» أي كلهم «**عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ**» من ضرر الدنيا والآخرة «**لَمْ يَضُرُّوكَ**» أي بشيء من الأشياء «**إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ**» ويشهد له قوله تعالى: **(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ)** والمعنى وحد الله في لحوق الضر والنفع، فهو الضار والنافع ليس لأحد معه شيء في ذلك، لأن أزمة الموجودات بيده منعا وإطلاقا، فإذا أراد أحد ضرك بما لم يكتبه عليك دفعه تعالى عنك وصرفه عن مراده بعارض من عوارض القدرة الباهرة، مانع من الفعل من أصله أو من تأثيره، وفي ذلك حث على التوكل والاعتماد على الله تعالى في جميع الأمور والاعراض عما سواه، ولا ينافي

هذا قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: (**فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ**)، (**إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى**)، لأن الإنسان مأمور بالفرار من أسباب المؤذيات إلى أسباب السلامة وإن لم يسلم، كقوله تعالى: (**خُذُوا حِذْرَكُمْ**)، (**وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**)، وقول عمر رضي الله عنه: إنما نفر من قدر الله إلى قدر الله.

وقوله: «**رُفِعَتِ الأَقْلَامُ**» أي تركت الكتابة لها لفراغ الأمر، والمعنى انتهت الكتابة بها في اللوح المحفوظ بما كان وبما يكون إلى يوم القيامة.

وقوله: «**وَجَفَّتْ**» بالجيم «**الصُّحُفُ**» التي فيها مقادير الكائنات كاللوح المحفوظ، فلا تبديل بعد ذلك ولا نسخ لما كتب فيها. وقد يوجد نحو تبديل بحسب ما في علم الله تعالى، ومصداقه قوله تعالى: (**يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**) أي أصله، وهو العلم القديم الأزلي الذي لا يغير منه شيء كما قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

تنبيه: من علم هذا هان عليه التوكل على خالقه والإعراض عما سواه. روى ابن العربي بسنده أنه صلى الله عليه وسلم قال: «**أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، ثُمَّ خَلَقَ النُّونَ وَهِيَ الدَّوَاةُ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (ن وَالْقَلَمِ)، ثُمَّ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ**

الْقِيَامَـةِ مِنْ عَمَـلٍ، أَوْ أَجَـلٍ، أَوْ رِزْقٍ، أَوْ أَثَرٍ، فَجَرَى الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَـوْمِ الْقِيَامَـــــــةِ. ثُمَّ خُتِمَ (عَلَى) الْقَلَمِ فَلَمْ يَكْتُبْ، وَلا يَنْطِـقُ إِلَى يَـوْمِ الْقِيَامَـةِ. ثُمَّ خَلَقَ الْعَقْلَ، فَقَالَ لَهُ الْـجَبَّارُ: مَـا خَلَقْتُ خَلْقًا أَعْجَبَ إِلَيَّ مِنْـكَ، وَعِـزَّتِي لأُكَمِّلَنَّكَ فِيمَنْ أَحْبَبْتُ، وَلأُنْقِصَـــــــــنَّكَ فِيمَنْ أَبْغَضْتُ».

ثم قال صلى الله عليـه وسـلم: «**(أَكْمَلُ) النَّاسِ عَقْلًا أَطْوَعُهُمْ للهِ بِطَاعَتِهِ**».

وروى مسـلم: «**إِنَّ اللـهَ كَتَبَ مَقَـادِيرَ الْـخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُـقَ الْـخَلْقِ بِخَمْسِـينَ أَلْفَ سَنَةٍ**».

وفي رواية الترمذي: «**احْفَظِ اللهَ تَجِـدْهُ أَمَامَـكَ، تَعَـرَّفْ إِلَى اللـهِ فِي الرَّخَـاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِـيبَكَ وَمَـا أَصَـابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْـرَ مَـعَ الصَّـبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَـعَ الْكَـرْبِ، وَأَنَّ مَـعَ الْعُسْـرِ يُسْرًا**». صـدق رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم.

فقوله: «**وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَـأَكَ**» أي فلم يصـــل إليـــك، «**لَمْ يَكُنْ**» مقـــدرا عليك «**لِيُصِيبَكَ**» ليتبين كونـه غـير مقـدر لك «**وَمَا أَصَابَكَ**» أي من المقدورات عليك «**لَمْ يَكُنْ**» مقـدرا على غـيرك «**لِيُخْطِئَكَ**»، إذ لا يصـيب الإنسـان إلا مـا قـدر لـه أو عليـه، وذلـك لأن

المقدورات سهام صائبة وجهت من الأزل فلا بد أن تقع موقعها.

روى الإمام أحمد أنه صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ**».

ويؤيده قوله تعالى: (**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا**).

وأخرج الترمذي: «**إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ**».

وقوله: «**أَنَّ النَّصْرَ**» أي من الله للعبد على أعدائه إنما يكون «**مَعَ الصَّبْرِ**» على طاعة الله وعن معصيته. قال تعالى: (**وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ**)، وقال تعالى: (**كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**) أي بالنصر والإثابة. إلى غير ذلك من الآيات والأخبار. ولهذا كان الغالب على من انتصر لنفسه الخذلان، فمن صبر واحتسب نصره الله وأيده.

وقوله: «**وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ**» أي يوجد سريعا معه، فلا دوام للكرب. وشواهده كثيرة في الكتاب والسنة، وفيه تسلية وتأنيس فأن الكرب نوع من النعمة لما يترتب عليه.

ومنه قول بعضهم:

عَسَى الكَرْبُ الَّذِي أمْسَيْتُ فِيهِ=يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ

ولعل الفوائد في الشدائد.

قال الإمام الشافعي رحمه الله:

ولرب حادثة يضيق به الفتى=ذرعا وعند الله منها المخرج

ضاقت فلما استحملت ملاقاتها=فرجت وكان يظنها لا تفرج

وقال غيره:

توقع صنعَ رَبك سَوف يَأْتِي=بِمَا تهواه من فرج قريب

وَلَا تيْأَس إِذَا مَا نَاب خطبٌ=فكم فِي الْغَيْب من عجب عَجِيب

وقال غيره:

لا تجزعن إذا ما الأمر ضقت به=ولا تبيتن إلا خاليَ البالي

ما بين طرفة عين وانتباهتها=يغير الدهر من حالٍ إلى حالِ وقوله: «**وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**» أي كما نطق به الكتاب العزيز، ومن ثم ورد عن جمع من الصحابة، وعنه صلى الله عليه وسلم: «**لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ**».

وأخرج البزار وابن أبي حاتم، واللفظ له: «**لَوْ جَاءَ الْعُسْرُ فَدَخَلَ هَذَا الْجُحْرَ لَجَاءَ الْيُسْرُ حَتَّى يَدْخُلَ عَلَيْهِ فَيُخْرِجُهُ**»، فأنزل الله هذه الآية.

فائدة تتعلق بالتفكر:

قال بعض العارفين: التفكر ينقسم إلى قسمين: الأول يتعلق بالمعبود، والثاني يتعلق بالعبد.

فأما المتعلق بالعبد: فينبغي له أن يتفكر هل هو على معصية أم لا؟ فإن رأى زلة من نفسه فله أن يتداركها بالتوبة.

ثم يتفكر في نقل الأعضاء عن المعاصي إلى الطاعات، فيجعل شغل عينيه وشغل لسانه الذكر والاستغفار والتسبيح والتهليل والأذكار، وكذلك سائر أعضائه في الليل والنهار، يستعملها في طاعة الواحد القهار.

ثم يتفكر في مبادرة الأوقات بالنوافل طلبا للربح في دار الأرباح، فيصلي لله تعالى زيادة على الفرض ما استطاع، وكذلك ينظر في أمر الصيام كالخميس والإثنين والأيام الشريفة التي هي مواسم الخير والطاعات، فلا يغفل عنها.

ثم بعد ذلك ينظر إن وجبت عليه زكاة أخرجها لمستحقها، وإلا فليتصدق.

ثم بعد ذلك ينظر في قصر عمره، فليتنبه له قبل أن يذهب وهو لا يشعر.

ثم بعد ذلك يتفكر في صفات الباطن، فيترك الخصال المذمومة، كالكبر والعجب والبخل والحسد، ويفعل الخصال المحمودة، مثل الصدق والإخلاص والصبر والخوف.

ويتفكر في زوال الدنيا وفنائها، فيتركها لأهلها، وفي بقاء الآخرة ودوامها، فيطلبها ويعمرها، كما قال بعض العارفين لإخوانه:

زوروا الآخــرة بقلــوبكم كــل يــوم وشــاهدوا المواقف بأذهـانكم وتوسـدوا القبـور بأفكـاركم واعلموا أن ذلك كائن لا محالة. وقال:

أَلَا أَيُّهَــا النَّاسِــي لِيَــوْمِ رَحِيلِــهِ=أَرِاكَ عَنِ الموتِ المُفرِّقِ لاهِيًا

وَلَا تَرْعَوِي بِالظَّاعِنِينَ إِلَى الْبَلَى=وَقَدْ تَرَكُوا الدُّنْيَا جَمِيعًا كَمَا هَيَا

وَلَمْ يَخْرُجُوا إِلا بِقُطْنٍ وَخِرْقَةٍ=وَمَا عَمَّرُوا مِنْ مَنْزِلٍ ظَلَّ خَالِيَا

وَهُمْ فِي بُطُــــونِ الْأَرْضِ صَــــرْعَى جَفَاهُمِ=صَدِيقٍ وخل كَانَ قبْل مُوَافِيَا

وَأَنْتَ غَــدًا أَوْ بَعْــدَهُ فِي جِــوَارِهِمْ=وَحِيــدًا فَرِيدًا فِي المَقَابِرِ ثَاوِيَا

جَفَـاكَ الَّذِي قَـدْ كُنْتَ تَرْجُـو وِدَادَهُ=وَلَمْ تَـرَ إِنْسَانًا لِعَهْدِكَ وَافِيَا

وَكُنْ مستعدا للحمام فإنه=قريب ودع عنك المنى والأمانيا

<u>وأما التفكر في المعبـود:</u> فقـد منـع الشـرع منه.

وحكي أن كسرى اضطجع ليلة على فراشه فنظر إلى الفلك فتفكـر في هيئتـه واسـتدارته، فقـال: إيهـا الفلـك إن بنـاءً أنت سـقفه لعظيم، وإن بيتــا أنت غطــاؤه لعظيم، وإن شــيئا أنت تظله لكبير، وإن فيـك لعجبـا للمتعجـبين، فليت شــعري أَعَلَى عمــد من تحتــك تتمســك، أم بمعـاليق من فوقـك تتعلـق، ولعمـري إن ملكـا أمسكتك قدرته لملك قدير، وإنه في اسـتدارتك

بتقـديره لحكيم خبـير، وإن جهـل من غفـل عن التفكـر في هـذه العظمـة لغـير صـغير، وليت شعري كم أفنت هـذه النجـوم من قـرون، وكم سـحبت قبلنا ممـا في سـالف العصـر، وليت شعري بم طلوعـك حين تطلعين، وبم مسـيرك حين تسـيرين، وأفولـك حين تـأفلين، وعلى مَ سقوطك حين تغيبين، ليت شعري أسـاكنة أنت أم تتحركين، أم كيف صفتك التي بهـا تتصـفين، ولونك الذي به تتوسمين، ومن سماك بأسمائك التي بهـا تعـرفين، سـبحان من لأمـره تنقـادين، وبمشـيئته تجـرين، وبصـنعة اسـتقامتك حين تستقيمين، ورجوعك حين تـرجعين، واسـتنارتك حين تستنيرين، وبروزك حين تبرزين.

ورضي الله عن الشـيخ عبـد القـادر الجيلي إذ يقول:

أَتَبْنِي بِنَاءَ الْـخَالِدِينَ وَإِنَّمَا=مَقَامُكَ فِيهَـا لَـوْ عَقَلْتَ قَلِيلُ

لَقَدْ كَـانَ فِي ظِـلِّ الأَرَاكِ كِفَايَـةٌ=لِمَنْ كُـلَّ يَوْمًا يَقْتَضِيهِ رَحِيلُ

أَلَا إِنَّ قُطَّاعَ الْفَيَـافِي إِلَى الْــحِمَى=كَثِـيرٌ وَأَمَّا الْوَاصِلُونَ قَلِيلُ

انتهى باختصار وحـذف وتقـديم وتـأخير من المجالس للفشني، وبضعه من غيرها.

فصل ينبغي وصله وإلحاقه بالفصول قبله
لما فيه من المناسبة والفائدة لمن ألهمه الله رشده

قال التاج رحمه الله في التنوير في إسقاط التدبير ما نص الغرض منه:

اعلم أن الحق سبحانه وتعالى إذا أراد أن يقوِّي عبدًا على ما يُريد أن يورده عليه من وجود حكمه، ألبسه من أنوار وصفه، وكساه من وجود نعته، فنزلت الأقدار، وقد سبقت إليه الأنوار، فكان بربه لا بنفسه، فقوي لأعبائها، وصبر للأوائها.

«وإنما يعينهم على حمل الأقدار، ورود الأنوار».

وإن شئت قلت: «إنما يعينهم على حمل الأحكام، فتح باب الإلهام».

وإن شئت قلت: «إنما يعينهم على حمل البلايا، واردات العطايا».

وإن شئت قلت: «إنما يقويهم على حمل أقداره، شهود حسن اختياره».

وإن شئت قلت: «إنما يصبِّرهم على وجود حكمه، علمهم بوجود علمه».

وإن شئت قلت: «إنما صبَّرهم على أفعاله، ظهوره عليهم بوجود جماله».

وإن شئت قلت: «إنما صبَّرهم على القضا، علمهم بأن الصبر يورث الرضا».
وإن شئت قلت: «إنما صبَّرهم على الأقدار، كشف الحجب والأستار».
وإن شئت قلت: «إنما قوَّاهم على حمل أثقال التكليف، ورود أسرار التعريف».
وإن شئت قلت: «إنما صبَّرهم على أقداره، علمهم بما أودعهم فيها من لطفه وإبراره».
فهذه عشرة أسباب توجب صبر العبد وثبوته لأحكام سيده، وتقوِّيه عند ورودها، وهو المعطي لكل ذلك بفضله، والمانّ على ذوي العناية من أهله.
ولنتكلم الآن على كل قسم منها لتكمل الفائدة، وتحصل الجدوى والعائدة.

فأما الأول وهو: «إنما يعينهم على حمل الأقدار، ورود الأنوار»:

وذلك أن الأنوار إذا وردت كشفت للعبد عن قرب الحق سبحانه منه، وأن هذه الأحكام لم تكن إلا عنه، فكان علمه بأن الأحكام إنما هي من سيده سلوة له، وسببا لوجود صبره. ألم تسمع ما قاله سبحانه وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: (**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ**) أي: ليس هو حكم غيره فيشق ذلك عليك، بل هو حكم سيدك، ولنا في هذا المعنى:

وخفف عني ما ألاقي من العنا=بأنك أنت المبتلي والمقدر

وما لأمري عما قضى الله معدل=وليس له منه الذي يتخير

ومثال ذلك: لو أن إنسانا في بيت مظلم، فضُرب بشيء ولم يدرِ من الضارب، وآلمه ذلك، فلما أدخل عليه مصباح نظر فإذا هو شيخه أو أميره. فإن علمه بذلك يوجب صبره على ما هنالك.

الثاني وهو قوله: «إنما يعينهم على حمل الأحكام، فتح باب الإلهام»:

إذا أورد الله تعالى على عبده حُكما، وفتح له باب الفهم عنه في ذلك الحكم فاعلم أنه أراد سبحانه أن يحمله عنه، وذلك أن الفهم يرجعك إلى الله سبحانه، ويوحشك إليه، ويجعلك متوكلا عليه، وقد قال سبحانه وتعالى: (**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**)، أي كافيه وواقيه، وناصره على الأغيار وراعيه، ولأن الفهم عن الله يكشف لك عن سر العبودية فكيف وقد قال سبحانه: (**أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**)، وكل هذه الوجوه العشرة مرجعها إلى الفهم، وإنما هي أنواع فيه.

الثالث وهو قوله: «إنما يعينهم على حمل البلايا، واردات العطايا»:

وذلك أن واردات العطايا السابقة من الله إليك، تذَكُرك لها مما يعينك على حمل أحكام الله، إذ كما قضى لك بما تحب، اصبر له على ما يحبه فيك، ألم تسمع قوله تعالى: (**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا**)،

فسلاهم الحق فيما أصيبوا بما أصابوا، وهذا في العطايا السابقة.

وقد يقترن بالبلايا في حين ورودها، ما يخفيها عن العباد المقربين، من ذلك أن يكشف لهم عن عظيم الأجر الذي ادخر لهم في تلك البلية، ومنها ما ينزله على قلوبهم من التثبيت والسكينة، ومنها ما يورده عليهم من دقائق اللطف وتنزلات المنن، حتى كان بعض الصحابة رضي الله عنه يقول في مرضه: أشدد خنقك، وحتى قال بعض العارفين: لقد مرضت مرضة، فأحببت أن لا تزول، لما ورد فيها من أمداد الله تعالى، وانكشف فيها عن وجود غيبه. وللكلام في سبب ذلك موضع غير هذا.

الرابع وهو: «إنما يقويهم على حمل أقداره، شهود حسن اختياره»:

وذلك أن العبد إذا شهد حسن اختيار الله له، علم أن الحق لا يقصد ألم عبده لأنه رحيم **(وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا)**. وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة معها ولدها فقال: « **أَتَرَوْنَ هذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟**» قالوا: لا يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**اللهُ أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**».

غير أنه يقضي عليك بالآلام لما يترتب عليه من الفضل والإنعام، ألم تسمع قوله تعالى: **(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)**.

ولو وكل الله تعالى العباد إلى اختيارهم لحرموا وجود منته، ومنعوا الدخول إلى جنته، فله الحمد على حسن الاختيار. ألم تسمع قوله تعالى: (**وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ**). وإن العبد الشفيق يسوق لابنه الحجام، لا لقصد الإيلام؛ وكالطبيب الناصح يعاينك بالمراهم الحادة، وإن كانت مؤلمة لك، ولو طاوع اختيارَك لبعد الشفاء عليك، ومن مُنع وعلِم أن المنع إنما هو إشفاق عليه، فهذا المنع في حقه عطاء، كالأم الشفيقة تمنع ولدها كثرة الأكل خشية التخمة.

ولذلك قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: اعلم أن الحق سبحانه وتعالى إذا منعك لم يمنعك عن بخل، وإنما يمنعك رحمة لك، فمنع الله لك عطاء، ولا يفهم العطاء في المنع إلا صديق.

وفي كلام أثبتناه في غير هذا الكتاب: ليخفف عنك ألم البلاء علمك بأنه سبحانه هو المبتلي لك، فالذي واجهتك منه الأقدار، هو الذي له فيك حسن الاختيار.

الخامس وهو قوله: «إنما يصبِّرهم على وجود حكمه، علمهم بوجود علمه»:

وذلك أن علم العبد بأن الحق سبحانه وتعالى مطلع عليه فيما ابتلاه يخفف أعباء البلايا عنه، ألم تسمع قوله سبحانه: (**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**)، أي ما تلقاه يا

محمد من كفار قريش من المعانـدة والتكـذيب فليس يخفى عنـا. والحكايـة المشـهورة: أن إنسانا ضُرب تسعة وتسعين سَـوْطًا ولم يتـأوَّه، فلما ضُرب السوط الذي هو كمال المائة تـأوَّه، فقيل له في ذلك فقال: كان الذي ضُرِبت لأجله في الحلقـة في التسـعة والتسـعين فلمـا ولَّى عني أحسسْتُ الألم.

السـادس وهـو: «إنمـا صـبَّرهم على أفعاله، ظهوره عليهم بوجود جماله»:

وذلـك أن الحـق سـبحانه وتعـالى إذا تجلَّى لعبـده في حين ملاقاتـه لبعض ألم البلايـا حمـل مرارتها عنه، مـا أذاق من حلاوة التجلي، فربمـا غيبهم ذلك على الإحساس بـالألم، ويكفيـك في ذلـــك: (**فَلَمَّا رَأَيْنَـــهُ أَكْبَرْنَـــهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ**).

السـابع وهـو: «إنمـا صـبَّرهم على القضا، علمهم بأن الصبر يورث الرضا»:

وذلك أن من صبر على أحكام اللـه تعـالى، ورَّثه ذلك الرضا من الله بتحملـه مرارتهـا طلبـا في رضاه، كما يتحسَّى الدواء المـر لمـا يـرجى من عاقبة الشفاء فيه.

الثـامن وهـو: «إنمـا صـبَّرهم على الأقدار، كشف الحجب والأستار»:

وذلك أن الحق سـبحانه وتعـالى إذا أراد أن يحمل على عبد ما يورده عليه، كشف الحجـاب عن بصيرة قلبـه فـأراه قربـه منـه، فغيبـه أنس القــرب عن إدراك المؤلمــات. ولــو أن الحــق

سبحانه تجلى لأهل النار بجماله وكماله لغيَّبهم ذلك عن إدراك العذاب، كما أنه لو احتجب عن أهل الجنة لما طاب لهم النعيم. فالعذاب إنما هو وجود الحجاب، وأنواع العذاب مظاهره، والنعيم إنما هو بالظهور والتجلي، وأنواع النعيم مظاهره.

التاسع وهو: «إنما قوَّاهم على حمل أثقال التكاليف، ورود أسرار التعريف»:

وذلك لأن التكاليف شاقة على العباد، ويدخل في ذلك امتثال الأوامر، والانكفاف عن الزواجر، والصبر على الأحكام، والشكر عند وجود الإنعام.

فهي إذًا أربعة: طاعة، ومعصية، ونعمة، وبلية. وهي أربع لا خامس لها، ولله عليك في كل واحدة من هذه الأربع عبودية يقتضيها منك بحكم الربوبية.

فحقه عليك في الطاعة: شهود المنة منه عليك فيها.

وحقه عليك في المعصية: الاستغفار مما صنعت فيها.

وحقه عليك في البلية: الصبر معه عليها.

وحقه عليك في النعمة: وجود الشكر منك فيها.

ويخفف عنك حمل أعباء ذلك كله: الفهم.

فإذا فهمت أن الطاعة راجعة إليك، وعائدة بالجدوى عليك، صبرك ذلك على القيام بها.

وإذا علمت أن الإصرار على المعصية والدخول فيها، يوجب العقوبة من الله آجلا، وانكساف نور الإيمان عاجلا، كان ذلك سببا للترك لك منها.

وإذا علمت إن الصبر تعود عليك ثمرته، وتنعطف عليك بركته، سارعت إليه، وعوَّلت عليه.

وإذا علمت أن الشكر يتضمن المزيد من الله تعالى لقوله تعالى: **(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)**، كان ذلك سببا لمثابرتك عليه، ونهوضك إليه.

وسنبسط الكلام على هذه الأربع في آخر هذا الكتاب -يعني التنوير-، ونفرد لها فصلا إن شاء الله تعالى.

العاشر وهو: «إنما صبرهم على أقداره، علمهم بما أودعهم فيها من لطفه وإبراره»:

وذلك أن المكاره أودع الله فيها سبحانه وجود الألطاف، ألم تسمع قوله سبحانه: (**وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**). وقوله صلى الله عليه وسلم: «**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**».

وفي البلايا والأسقام والفاقات من أسرار الألطاف ما لا يفهمه إلا أولوا البصائر. ألم تر أن البلايا تخمد النفس وتذلها، وتدهشها عن طلب حظوظها، ويقع مع البلايا وجود الذلة،

ومع الذلة تكون النصرة، **(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)**.

قلتُ: والفضل الذي وعد به هو قوله:

فصل: نذكر فيه مناجاة الحق لعبده على ألسنة هواتف الحقائق في شأن التدبير والرزق.

أيها العبد ألق سمعك وأنت شهيد، يأتك منا المزيد، وأصغ بسمع قلبك، فأنا عنك لست ببعيد.

أيها العبد كنت بتدبيري لك، من قبل أن تكون لنفسك، فكن لنفسك بأن لا تكون لها، وتوليت رعايتها قبل ظهورك، وأنا الآن على الرعاية لها.

أيها العبد أنا المنفرد بالخلق والتصوير، وأنا المنفرد بالحكم والتدبير، فلا تشاركني في حكمي وتدبيري. أنا المدبر لملكي، وليس لي فيه ظهير، وأنا المنفرد في حكمي ولا أحتاج إلى وزير.

أيها العبد من كان بتدبيره لك قبل الإيجاد، فلا تنازعه في المراد، ومن عوَّدك حسن النظر منه لك، فلا تقابله بالعناد.

أيها العبد عودتك حسن النظر مني لك، فعود في إسقاط التدبير معك مني.

أيها العبد أشكًّا بعد وجود التجربة، وحيرة بعد وجود البيان، وضلالا بعد وضوح الهدى؟

أما يحيلك على علمك بأنه لا مدبر لك غيري؟

أما يحيلك من المنازعة لي ما سبق من وجود خيري؟

أيها العبد انظر نسبة وجودك من أكواني، ترى أنك متلاش في الفاني، فما ظنك بما ليس بفاني، وقد سلمت قيامي بمملكتي، وأنت من مملكتي، فلا تنازع ربوبيتي، ولا تضادد بتدبيرك معي وجود إلهيتي.

أيها العبد أما يكفيك أني أكفيك؟ أما يوجب سكونك سوابق عوائدي فيك؟

أيها العبد متى أحوجتك إليك، حتى نحتال عليك؟ ومتى وكلت شيئا من مملكتي لغيري حتى أكل ذلك إليك؟

أيها العبد أعددت لك وجودي من قبل أن أظهرك لوجودي، وظهرت بقدرتي في كل شيء، فكيف يمكنك جحودي؟

أيها العبد متى خاب من كنت له مدبرا، أو متى خذِلَ من كنت له ناصرا؟

أيها العبد لتشغلك خدمتي عن طلب قسمتي، وليمنعك حسن الظن بي عن اتهام ربوبيتي.

أيها العبد لا ينبغي أن يتهم محسن، ولا أن ينازع مقتدر، ولا أن يضاد قهار، ولا أن يُعترض على حكيم، ولا أن يعال همّ مع لطيف.

أيها العبد لقد فاز بالنجح من خرج عن الإرادة معي، ولقد دل على يسير الأمر من احتال علي، ولقد ظفر بكنز الغنى من صدق في الفاقة إلي، ولقد استوجب النصر مني عبد

إذا تحـرَّك تحـرَّك بي، ولقـد استمسـك بـأقوى الأسباب من استمسـك بسـببي، إني آليت على نفسي أن أجازي أهـل التـدبير بوجـود التكـدير، وأن أهـدم مـا شـيدوا، وأحـل مـا عقـدوا، وأن أكِلهم إليهم، وأن أحيلهم عليهم، ممنـــوعين من روح الرضـا ونعيم التفـويض، فلـو فهمـوا عـني لاقتنعـوا بتـدبيري لهم عن تـدبيرهم لأنفسـهم، وبرعايتي لهم عن رعايتهم إياها، إذا كنت أسلك بهم طريق الرضا، وأنهج بهم منهج أهل الهـدى، وأسـعى بهم في طريـق بيضـا، وأجعـل عنـايتي لهم وقاية من كل ما يخافونه، وجالبة لهم جميع ما يرجونه، وذلك على الله يسير.

أيهـا العبد نريـد منـك أن تريـدنا ولا تريـد معنـا، ونختـار لـك أن تختارنـا ولا تختـار معنـا، ونرضى لك أن ترضانا ولا نرضى لك أن ترضـى سوانا.

أيهـا العبد إن رضـيت لـك فلإرادة ظهـور فضلي عليك، وإن قضيت عليـك فلأني أريـد أن أرُدَّ في قضائي أسرار لطفي إليك.

أيها العبد لا تجعل جزاء ما أظهـرت فيـك من نعمتي، وجود منازعتي، ولا تجعل عوض مـا أحسـنت لـك بالعقـل الـذي ميزتـك بـه، وجـود مضادتي.

أيهـا العبد لمـا سـلَّمت لي تـدبيري في أرضـي وسـمائي، وانفـرادي فيهمـا بحكمي وقضائي، سلِّم وجودك لي، فإنـك لي، ولا تـدبر

معي فإنـك بي، واتخـذني وكيلا، وثـق بي وكيلا، أعطيك عطاء جزيلا، وأهبك فخرا جليلا.

أيهــا العبد إني حكمتُ في أزلي، أنــه لا يجتمع في قلب عبدي ضياء التسليم لي وظلمة المنازعة معي، فمـتى كـان واحـدٌ منها لم يكن الآخر معه، فاختر لنفسك.

ويحـك إنـا أجللنـا قـدرك أن نجعلـك بـأمر نفسـك، فلا تضـعَنَّ قـدرك يـا من رفعنـاه، ولا تـدللن نفسـك بحوالتـك على غيرنـا، يـا من أعززناه.

ويحك أنت أجل عندنا من أن تشتغل بغيرنا، لحضـرتي خلقتـك، وإليهـا طلبتـك، وبجـواذب عنـايتي لهـا جـذبتك، فـإن اشـتغلت بنفسـك حجبتك، وان اتبعت هواها طردتك، وإن خـرجت عنهـا قربتـك، وإن تـوددت لي بإعراضـك عمـا سواي أجبتك.

أيها العبد أما كفاك لو اكتفيت، وهداك لـو اهتديت، أني أنا الذي خلقت فسويت، وتصدقت فأعطيت. أمـا يمنعـك ذلـك من منـازعتي فيمـا قضيت، ومعارضتي فيما ابتليت.

أيهــا العبد مــا آمن بي من نــازعني، ولا وحدني من دبَّر معي، ولا رضي بي من شكا مـا أنزلتـه بـه إلى غـيري، ولا اختـارني من اختـار معي، وما امتثل أمري من لم يستسلم لقهري، ولا عرفــني من لم يعــرض أمــره إلي، ولقــد جهلني من لم يتوكَّل علي.

أيها العبد يكفيك من الجهل أن تسكن لما في يدك، ولا تسكن لما في يدي، وأنا أختار لك أن تختارني فتختار عليّ؟

ويحك لا تجتمع عبودية واختيار، ولا ظلمة وأنوار، ولا توجهك لي، وتوجهك للآثار. فإما أنا لك أو أنت لنفسك، فاختر على بيان، ولا تستبدل الهدى بالخسران.

أيها العبد لو طلبت مني التدبير لنفسك جهلت، فكيف إذا تدبرت لها؟ ولو اخترت معي ما أنصفت، فكيف إذا اخترت علي؟

أيها العبد لو أذنت لك أن تدبر يجب عليك أن تستحي من أن تدبر، فكيف وقد أمرتك أن لا تدبر؟

يا مهموما بنفسه، لو ألقيتها إلينا لاسترحت.

ويحك أعباء التدبير لا يحملها إلا الربوبية، وليس يقوى عليها ضعيف البشرية.

ويحك أنت محمول فلا تكن حاملا، أردنا راحتك فلا تكن متعبا لنفسك. من دبرك في ظلمة الأحشا، وأعطاك بعد الوجود ما تشا، لا ينبغي لك أن تنازعه فيما يشا.

أيها العبد أمرتك بخدمتي، وضمنت لك قسمتي، فأهملت ما أمرتُ وشككت فيما ضمنتُ، ولم أكتفِ لك بالضمان حتى أقسمت، وما اكتفيت بالقسم حتى مثلت، فخاطبتُ عبادا يفهمون، فقلتُ: **(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ، فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)**.

ولقد اكتفى بوصفي العارفون، واحتال على كرمي الموقنون؛ فلو لم يكن وعدي لعلموا أني لا أقطـــع عنهم واردات رفـــدي؛ ولـــو لم يكن ضماني، لوثقوا بوجود إحساني؛ وقـد رزقت من غفل عني وعصاني، فكيف لا أرزق من أطاعني ورعاني؟.

ويحك الفارس للشجرة هو ساقيها، والممد للخليقة هو باريها، ويكفيها أنه كافيها ومكافيها.

مني كان الإيجاد، وعليَّ دوام الإمداد.

مني كان الخلق، وعليَّ دوام الرزق.

ويحــك هــل تــدع لــدارك إلا من تريــد أن تطعمـه؟ وهـل تنسـب لنفسـك إلا من تريـد أن تكرمه؟

أيـها العبد اجعـل همـك في مكـان همـك برزقي، أأدخلك داري، وأمنعك إبراري؟ أبرزتـك لكــوني، ونمنعــك وجــود عــوني؟ أخرجتـك إلى وجـــودي، ونمنعـــك جـــودي؟ أطالبـــك بحقي، وأمنعك وجود رزقي؟ أقتضي منك خــدمتي، ولا أقضي لك بقسمتي؟ لك قسـمة عنـدي لا تبقى لــك عنــدي، لــك هيـأت منـتي، وفيـك أظهـرت رحمتي، وما قنعت لك بالدنيا حتى ادخــرت لــك جنتي، وما اكتفيت بذلك حتى أتحفتك برؤيتي.

أيها العبد لا بد لنعمتي من آخذ، ولفضــلي من قابل، وأنا الغني عن الانتفـاع بالمنـافع، لمـا دل عليه الدليل القاطع. فلو سألتني أن أمنعــك رزقي مـا أجبتـك، ولـو سـألتني أن نحرمـك من فضلي ما حرمتك، فكيف وأنت دائمـا تسـألني؟

وكثيرا ما تطلبُ مني؟ فاستحيي مني أن كنت لا تستحي مني، وافهم عني، ولقد أعطي كل العطاء من فهم عني.

أيها العبد تخيرني ولا تتخير علي، ووجه قلبك بالصدق إلي، فانك إن تفعل أريك عجائب لطفي، وبدائع جودي، وأمتِّعُ سرَّك بشهودي.

لقد ظهرت الطرائق لأهل التحقيق، وتبيَّنت معالم الهدى لذوي التوفيق، فبحقٍ سلَّم إليَّ الموقنون، وببيان توكل عليَّ المؤمنون، وعلموا أني خير لهم من أنفسهم، وإن تدبيري لهم أجدى عليهم من تدبيرهم لها، فأذعنوا لربوبيتي مستسلمين، وطرحوا أنفسهم بين يدي مفوضين، فعوضتهم عوض ذلك راحة في نفوسهم، ونورا في عقولهم، ومعرفة في قلوبهم، وتحققا بقربي في أسرارهم. هذا في هذه الدار، ولهم عندي إذا قدموا علي أن أجل منصبهم، وأعلي محلهم، وأنشر ألوية عليهم، ولهم إذا أدخلتهم داري ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

أيها العبد الوقت الذي أنت تستقبله لم أطالبك فيه بالخدمة، فلا تطالبني فيه بالقسمة. فإذ كلفتك تكفلت لك، وإذا استخدمتك أطعمتك. واعلم بأني لا أنساك وإن نسيتني، وأني ذكرتك من قبل أن تذكرني، وأن رزقي عليك دائم وإن عصيتني. فإذا كنت كذلك في إعراضك عني، فكيف ترى أكون في إقبالك عليَّ؟.

وما قـدرتني حـق قـدري أن لم تستسـلم لقهري، ولا رعيت حق بري أن لم تمتثل أمري، فلا تعرض عني، فانك لا تجد من تستبدله مـني، ولا تغتني بغيري، فإن أحدا لا يغنيك عني.

أنا الخـالق لـك بقـدرتي، وأنـا الباسـط لـك منتي، فكمـا أنـه لا خـالق غـيري كـذلك لا رزاق غيري.

أأخلق وأحيـل على غـيري، وأنـا المتفضـل؟ وأمنع العباد وجود خيري؟

فثق بي أيها العبـد فأنـا رب العبـاد، واخـرج عن مـرادك معي أبلغـك عين المـراد، واذكـر أسرار لطفي، ولا تنس حق الوداد. اهـ. منه بخ.

فصل
في ذكر المداخل التي يأتي من قبلها الشيطان
ليكون على بصيرة منها الإنسان وذكر بعض ما يتعلق بالحياء من الآثار والأحاديث والأخبار

أمـا المـداخل المـذكورة، فيكفي فيهـا مـا ذكره فخر الدين الرازي رحمه الله في تفسيره منها وبينه، ونصه:

اعلم أن المداخل التي يـأتي الشـيطان من قبلها ثلاثة: الشهوات، والغضب، والهوى.

فبالشهوة يصير الإنسان ظالما لنفسه، وبالغضب يصير الإنسان ظالما لغيره، وبالهوى يتعدى ظلمه إلى حضرة جلال الله.

فلهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: **«الظُّلْمُ ثَلَاثَةٌ: فَظُلْمٌ لَا يُغْفَرُ، وَظُلْمٌ لَا يُتْرَكُ، وَظُلْمٌ عَسَى اللهُ أَنْ يَتْرُكَهُ. فَالظُّلْمُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ هُوَ الشِّرْكُ، وَالظُّلْمُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ هُوَ ظُلْمُ الْعِبَادِ، وَالظُّلْمُ الَّذِي عَسَى اللهُ أَنْ يَتْرُكَهُ هُوَ ظُلْمُ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ»**.

فمنشأ الظلم الذي لا يغفر هو الهوى، ومنشأ الظلم الذي لا يترك هو الغضب، ومنشأ الظلم الذي عسى الله أن يتركه هو الشهوة.

ثم لهذه الثلاثة نتائج: البخل والحرص نتيجة الشهوة، والعجب والكبر نتيجة الغضب، والكفر والبدعة نتيجة الهوى. فإذا اجتمعت هذه الستة في بني آدم تولّد منها سابعة وهي الحسد، فلهذا ختم الله جميع الشرور الإنسانية بالحسد، قال تعالى: **(وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)**، كما ختم مجامع الخبائث الشيطانية بالوسوسة، قال تعالى: **(يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ، مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ)**، فليس في بني آدم أشر من الحسد، بل قيل: إن الحاسد أشر من إبليس، قال فرعون لإبليس: هل تعلم أحدا أشر مني ومنك؟ قال: الحاسد، وهو أول معصية في السماء لأن إبليس حسد آدم، وأول

معصية في الأرض لأن قابيل حسد هابيل فقتله. اهـ. بخ. من النزهة.

وأما ما يتعلق بالحياء، فاعلم أنه قد روي أحاديث كثيرة، وآثار عديدة: منها ما روى عن عقبة بن عامر الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»**، فقوله: **«إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى»** أي مما اتفقت عليه الشرائع، لأنه جاء في أولها وتتابعت بقيتها عليه، إذ الحياء لم يزل في شرائع الأنبياء الأولين ممدوحا ومأمورا به، ولم ينسخ في شرع.

وفي الحديث: **«لَمْ يُدْرِكِ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى إِلَّا هَذَا، إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»**.

وقد اختلف العلماء في معناه: فقال بعضهم معناه الخبر وإن كان لفظه لفظ الأمر، فكأنه قال: إذا لم يمنعك الحياء فعلت ما شئت، فإن من لم يكن له حياء يحجزه عن محارم الله فسواء عليه فعل الصغائر وارتكاب الكبائر، قال بعضهم:

إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي=وَلَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ

فَلَا وَاللهِ مَا فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ=وَلَا الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ

وقال بعضهم: معناه الوعيد كقوله تعالى: (**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ**)، أي اصنع ما شئت فإن الله مجازيك. وقال انظر ما تريد أن تفعل فإن كان ذلك مما لا يستحيى منه فافعل منه ما شئت، فإن ذلك الفعل يكون جاريا على نهج السداد، وإن كان مما يستحيى منه فدعه.

ومعنى الحديث أن عدم الحياء يوجب الانهماك في هتك الأستار، وفيه معنى التحذير والوعيد على قلة الحياء، وفيه أن الحياء من أشرف الخصال، وأكمل الأحوال. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «**الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ، الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ**». وثبت أن الحياء شعبة من الإيمان، وقد كان صلى الله عليه وسلم أشد الناس حياء من البكر في خدرها. وفي الحديث: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ هَلَاكًا نَزَعَ مِنْهُ الْحَيَاءَ، فَإِذَا نَزَعَ مِنْهُ الْحَيَاءَ لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا بَغِيضًا مُبْغِضًا، فَإِنْ كَانَ بَغِيضًا مُبْغِضًا نَزَعَ مِنْهُ الْأَمَانَةَ فَلَمْ تَلْقَهُ إِلَّا خَائِنًا مُخَوَّنًا، فَإِذَا كَانَ خَائِنًا مُخَوَّنًا نَزَعَ مِنْهُ الرَّحْمَةَ فَلَمْ تَلْقَهُ إِلَّا فَظًّا غَلِيظًا، فَإِذَا كَانَ فَظًّا غَلِيظًا، نَزَعَ رِبْقَةَ الْإِيمَانِ مِنْ عُنُقِهِ، فَإِذَا نَزَعَ رِبْقَةَ الْإِيمَانِ مِنْ عُنُقِهِ لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا شَيْطَانًا لَعِينًا مَلْعُونًا**».

وينبغي أن يراعى في الحياء القانون الشرعي فإن منه ما يذم شرعا، كالحياء المانع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع وجود شروطه، وهذا في الحقيقة جبن لا حياء،

وتسميته حياء مجاز لمشابهته له، ومثله في العلم المانع من سؤاله عن مهمات الدين إذا أشكلت، ولذا قالت (السيدة عائشة) رضي الله تعالى عنها: «**نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ لَمْ يَمْنَعْهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَسْأَلْنَ عَنْ أَمْرِ دِينِهِنَّ**»، وفي حديث: «**إِنَّ دِينَنَا لَا يَصْلُحُ لِمُسْتَحْي**» أي حياء مذموما «**وَلَا لِمُتَكَبِّرٍ**». وجاء في الصحيحين عن أم سلمة رضي الله عنها: «**جَاءَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ، هَلْ عَلَى الْمَرْأَةِ مِنْ غُسْلٍ إِذَا هِيَ احْتَلَمَتْ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِذَا رَأَتِ الْمَاءَ**»، فلم تستح من السؤال عن دينها، وجاء: «شر النساء الوذرة المذرة» أي التي لا تستحي عند الجماع. وقال صلى الله عليه وسلم لمن رآه يعاتب أخاه في الحياء: «**دَعْهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنْ الْإِيمَانِ**» أي من أسباب أصل الإيمان وأخلاقه، لمنعه من الفواحش وحمله على البر والخير كما يمنع الإيمان صاحبه من ذلك وأولى الحياء.

الحياء من الله تعالى وهو أن لا يراك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك، وكمال الحياء ينشأ عن معرفته تعالى ومراقبته، وقد قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «**اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ**» . **قَالُوا: إِنَّا نَسْتَحْيِي يَا نَبِيَّ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ، قَالَ:**

«لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنْ مَنِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ فَلْيَحْفَظِ الرَّأسَ وَمَا وَعَى، وَلْيَحْفَظِ الْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْيَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبَلَا، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ».

واعلم أن أهل الحياء متفاوتون بحسب تفاوت أحوالهم، وقد جمع الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بين نوعي الحياء، فكان في الحياء الغريزي أشد من العذراء، وفي الكسبي واصلا إلى أعلى غاية.

وقوله: «**إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**» يتضمن الأحكام الخمسة، لأن فعل الإنسان إما أن يتسحيى منه أم لا، فالأول الحرام والمكروه، والثاني الواجب والمندوب والمباح، ولذا قيل على هذا مدار الإسلام لما ذكرناه.

تنبيه: يحرم كشف العورة بحضرة الناس، وأما بغير حضرة الناس فقد قال الإمام النووي رحمه الله في شرح مسلم: يجوز كشف العورة في محل قضاء الحاجة في الخلوة، كحالة الاغتسال والبول ومعاشرة الزوجة، وأما دخول الحمام فأيضا يطلب الحياء فيه، فقد قال العلماء رضي الله عنهم: يباح للرجال الدخول في الحمام ويجب عليهم غض البصر عما لا يحل لهم، وصون عورتهم عن الكشف بحضرة ما لا يحل له النظر إليها. وقد روي أن الرجل إذا دخل الحمام عاريا لعنه ملكاه، رواه

الدارقطني في تفسيره عند قوله تعالى: **(كِرَامًا كَاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ)**. وروى الحاكم عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**حَرَامٌ عَلَى الرِّجَالِ دُخُولُ الْحَمَّامِ إلَّا بِمِئْزَرٍ**»، وأما النساء فيكره لهن بلا عذر، لخبر: «**مَا مِنَ امْرَأَةٍ تَخْلَعُ ثِيَابَهَا فِي غَيْرِ بَيْتِهَا إِلَّا هَتَكَتْ، مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى**» رواه الترمذي، والأمر لهن مبني على التستر، ولما في خروجهن واجتماعهن من الفتنة والشر. اهـ. بخ. من مجالس الفشني.

فصل
في ذكر معنى الاستقامة وما ورد فيها من الأخبار الصحيحة

ففي مسلم فيما رواه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قلت: يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ، قَالَ: «**قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ**»، فقوله: «قلت: يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ» أي في شرائعه، «قَوْلًا» أي جامعا لمعاني الدين واضحا في نفسه بحيث لا يحتاج إلى تفسير (غيرك) أعمل به وأكتفي به بحيث «لَا أَسْأَلُ» أي لا يحوجني لما اشتمل عليه من الإحاطة والشمول ونهاية الإيضاح والظهور، إلى أن

أسأل «عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ، قال: «**قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ**»» أي جدد إيمانك بقلبك ولسانك لتستحضر جميع معاني الإيمان الشرعي، «**ثُمَّ اسْتَقِمْ**» على الطاعات والانتهاء عن جميع المخالفات، إذ لا تتأتى الاستقامة مع شيء من الاعوجاج.

وغاية الاستقامة ونهايتها أن لا يلتفت العبد إلى غير الله تعالى، وهي الدرجة القصوى التي بها كمال المعارف والأحوال وصفاء القلوب في الأعمال، وتنزيه العقائد عن مفاسد البدع والضلال.

قال أبو القاسم القشيري رحمه الله: من لم يكن مستقيما في حاله ضاع سعيه وخاب جده.

ولذا قيل: لا يطيق الاستقامة إلا الأكابر، فإنها لا تحصل إلا بالخروج عن المألوفات، ومفارقة العادات، والقيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق.

ولعزتها أخبر صلى الله عليه وسلم أن الناس لا يطيقونها، فيما أخرجه الإمام أحمد: «**اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُطِيقُوا**». وحاصله إن الإسلام توحيد وطاعة، فالتوحيد حاصل بالجملة الأولى، والطاعة بجميع أنواعها ضمن الجملة الثانية، إذ الاستقامة مرجعها إلى امتثال كل مأمور واجتناب كل منهي. وزاد الترمذي في هذا الحديث: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ، وَقَالَ:

«هَذَا»، ففيـه أن أعظم مَـا يُـرَاعى اسـتقامته بعـد الْقلب اللِّسَـان فَإِنَّهُ ترجمـان القلب. وقـد أخرج الإمام أحمد: «**لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَـانُ عَبْـدٍ حَتَّى يَسْـتَقِيمَ قَلْبُـهُ، وَلَا يَسْـتَقِيمُ قَلْبُـهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ**».

وليعلم أن اللسان في بعض المواضع أضـر من سيف قاطع، وسـنان محـدد. قـال سـفيان: لأن تـرمي إنسـانا بسـهم أهـون من أن ترميـه بلسـانك، فـإن السـهم قـد يخطئـه واللسـان لا يخطئه.

وقيل:

جِرَاحَـاتُ السِّـنَانِ لَهَـا الْتِئَامٌ=وَلَا يَلْتَئِمُ مَـا جَرَحَ اللِّسَانُ

والاستقامة خير من ألف كرامة، ومـا أكـرم اللـه تعـالى عبـدا بكرامـة خـير من الاسـتقامة، ولهذا لم ينقل عن الصـحابة رضـي اللـه تعـالى عنهم إلا القليــل من الكرامــات، ونقــل عن المتأخرين من المشايخ والصـادقين والمريـدين أكـثر من ذلـك رحمـة اللـه عليهم أجمعين، لأن الصحابة رضي الله عنهم ببركة النبي صلى الله عليـه وسـلم وصـحبتهم لـه ومشـاهدة الـوحي، وتـردد الملائكـة وهبوطهـا بين يديـه، تنـوَّرت قلــوبهم، وتــزكت نفوســهم، فعـاينوا الآخـرة واســتغنوا بمــا أعطــوا عن رؤيــة الكرامــة، واشتغلوا بالعبادة والاستقامة، وزهدوا في الدنيا الدنية، كما في خبر حارثة المشهور.

ويقال في قول الله عـز وجـل: (**إِنَّ الَّذِينَ قَـالُوا رَبُّنَـا اللـهُ ثُمَّ اسْـتَقَامُوا**)، قـالوا بألسنتهم ثم استقاموا فصدقوا بقلوبهم؛ ويقال: قالوا مصدقين بهـا ثم اسـتقاموا على التصـديق حتى ماتوا مسلمين؛ ويقال: قالوها بالإيمـان ثم استقاموا بالطاعة والإحسان.

وقيل: إن من أطاع الله تعـالى أطاعـه كـل شيء، ومن خاف الله تعالى خافه كل شيء.

قال عوف بن أبي شداد العبـدي: بلغـني أن الحجاج بن يوسف لما ذكـر لـه سـعيد بن جبـير أرسل إليه قائـدا يسـمى المتلمس بن الأخـوص ومعه عشرون رجلا من أهل الشـام من خاصـة أصحابه، فبينما هم يطلبونـه إذا هم بـراهب في صومعة له، فسألوه عنه فقال الـراهب: صـفوه لي، فوصفوه له فدلهم عليه، فانطلقوا فوجدوه سـاجدا ينـاجي ربـه بـأعلى صـوته، فـدنوا منـه فسلموا عليه فرفع رأسه فتم بقية صلاته ثم رد عليهم السـلام، فقـالوا: أرسـل الحجـاج إليـك فأجبـه، قـال: ولا بـد من الإجابـة؟ قـالوا: لا بـد، فحمد الله وأثنى عليـه وصـلى على نبيـه صـلى اللـه عليـه وسـلم، ثم قـام فمشـى معهم حـتى انتهوا إلى دير الراهب، فقال الراهب: يا معشر الفرسـان أصـبتم صـاحبكم؟ قـالوا: نعم، قـال لهم: اصعدوا الـدير فـإن اللبـوة والأسـد يأويـان الدير فعجلوا الدخول قبل المساء، ففعلوا ذلـك وأبى سعيد أن يدخل الدير، فقالوا له: ما نـراك إلا تريد الهرب منا، قال: لا ولكن لا أدخل منزل

مشرك أبدا، قـالوا: فإنـا لا نـدعك فـإن السـباع تقتلك، قال سـعيد: إن معي ربي يصـرفها عـني ويجعلها حرسا حولي تحرسني من كل سوء إن شاء الله تعالى، قالوا: فأنت من الأنبياء؟ قـال: مـا أنـا من الأنبيـاء ولكـني عبـد من عبيـد اللـه خاطئ مذنب، فقـالوا: احلـف لنـا أنـك لا تـبرح، فحلف لهم. فقـال لهم الـراهب: اصـعدوا الـدير وأوتروا القسـي، فـإذا هم بلبـوة فلمـا دنت من سعيد تحككت به وتمسحت به ثم ربضت قريبـا منه، وأقبل الأسـد فصـنع مثـل ذلـك، فلمـا رأى الراهب ذلك وأصـبحوا نـزل فسـأله عن شـرائع دينـه وسـنن رسـوله صـلى اللـه عليـه وسـلم، ففسـر لـه سـعيد ذلـك كلـه، فأسـلم الـراهب وحسـن إسـلامه. وأقبـل القـوم إلى سـعيد يعتـذرون، ويقبلـون يديـه ورجليـه، ويأخـذون الـتراب الـذي وطئـه بالليـل ويصـلون عليـه، ويقولـون: يـا سـعيد حلفنـا الحجـاج بـالطلاق والعتاق إن نحن رأيناك لا ندعك حتى نشخصـك إليه فمرنـا بمـا شـئت، فقـال: امضـوا لشـأنكم فإني لائذ بخالقي ولا راد لقضائه.

فساروا حتى وصلوا إلى واسط، فلم انتهـوا إليهـا قـال لهم سـعيد: يـا معشـر القـوم قـد تحرمت لكم وصـحبتكم ولسـت أشـك أن أجلي قد حضر وأن المدة قد انقضت، فدعوني الليلـة آخذ أهبة المـوت وأسـتعد لمنكـر ونكـير وأذكـر عذاب القبر ومـا يحـثى علي من الـتراب، فـإذا أصـبحتم فالميعـاد بيـني وبينكم المكـان الـذي

تريدون. فقال بعضهم: لا نريد أثرا بعد عين، وقال بعضهم: قد بلغتم أمنكم فلا تعجزوا عنه، فقال بعضهم: هو عليَّ أدفعه إليكم إن شاء الله. فنظروا إلى سعيد وقد دمعت عيناه وتغير لونه ولم يأكل ولم يشرب ولم يضحك منذ لقوه وصحبوه، فقالوا بأجمعهم: يا خير أهل الأرض، ليتنا لم نعرفك ولم نرسل إليك الويل لنا كيف أتينا بك؟ ما عذرنا عند خالقنا يوم الحشر الأكبر فإنه القاضي الأكبر والعدل الذي لا يجور؟ فلما فرغوا من البكاء قال له كفيله: أسألك بالله يا سعيد ألا ما زودتنا من دعائك وكلامك فإنا لم نلق مثلك أبدا، فدعا لهم سعيد، فخلوا سبيله، فغسل رأسه ومدرعته وكساءه وهم مختفون الليل كله، فلما انشق عمود الصبح جاءهم سعيد يقرع الباب، فقالوا: من بالباب؟ قال: صاحبكم ورب الكعبة، فنزلوا إليه وبكوا معه طويلا، ثم ذهبوا به إلى الحجاج. فدخل عليه المتلمس فسلم عليه وبشره بقدوم سعيد بن جبير. فلما مثل بين يديه قال له: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبير.

قال: أنت شقي بن كسير.

قال: بل أمي كانت أعلم باسمي منك.

قال: شقيت أنت وشقيت أمك.

قال: الغيب يعلمه غيرك.

قال: لأبدلنك بالدنيا نار لظى.

قال: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهًا.

قال: فما قولك في محمد؟

قال: نبي الرحمة.
قال: فما قولك في علي، في الجنة هو أم في النار؟
قال: لو دخلتهما وعرفت أهلهما عرفت من فيهما.
قال: فما قولك في الخلفاء؟
قال: لست عليهم بوكيل.
قال: فأيهم أعجب إليك؟
قال: أرضاهم لخالقي.
قال: فأيهم أرضى للخالق؟
قال: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم.
قال: فما بالك لا تضحك؟
قال: أيضحك مخلوق خلق من الطين، والطين تأكله النار.
قال: فما بالنا نضحك؟
قال: لم تستو القلوب.
قال: ثم أمر الحجاج باللؤلؤ والزبرجد والياقوت فوضع بين يدي سعيد، فقال سعيد: إن كنت جمعت هذا لتفتدي به من فزع يوم القيامة فصالح، وإلا ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت، ولا خير في شيء جمع للدنيا إلا ما طاب وزكا.
ثم دعا الحجاج بآلات اللهو، فبكى سعيد.
فقال الحجاج: ويلك يا سعيد أي قتلة تريد؟
قال: اختر لنفسك يا حجاج، فوالله لا تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة.

قال: أفتريد أن أعفو عنك؟

قال: إن كان العفو من الله بلى، وأما أنت فلا.

قال: اذهبوا به فاقتلوه.

فلما خرج من الباب ضحك، فأخبر الحجاج بذلك فأمر برده فقال: ما أضحكك؟ قال: عجبت من جراءتك على الله وحلم الله عليك.

فأمر بالنطع فبسط بين يديه فقال: اقتلوه، فقال سعيد: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا مسلما وما أنا من المشركين.

قال: وجهوه لغير القبلة.

قال سعيد: **(فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ)**.

قال: كبوه لوجهه.

فقال سعيد: **(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)**.

فقال الحجاج: اذبحوه.

فقال سعيد: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله. ثم قال: اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي.

فذبح على النطع، رحمه الله تعالى ورضي عنه. فكانت رأسه بعد قطعها تقول لا إله إلا الله.

وعاش الحجاج بعد قتله خمس عشرة ليلة، وذلك في سنة خمس وتسعين، وكان عمر

سيعد تسعا وأربعين سنة. اهـ. بخ. من مجالس العلامة الفشني أيضا.

فصل في ذكر ما يتعلق بالإيثار من الآثار والأخبار

اعلم أن الإيثار أمر عظيم مدح الله تعالى أمره في كتابه الكريم فقال في حق الأنصار على جهة المدح: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ الآية.

قال العلماء: الإيثار على أنواع: إيثار في الطعام، وإيثار في الشراب، وإيثار في النفس والروح، وإيثار في الحياة.

فإما الإيثار في الطعام: فقد روي إن رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أهدي إليه رأس مشوي، فقال: أخي فلان وعياله أحوج إلى هذا منا، فبعثه إليه. وبعثه ذلك الرجل إلى آخر، فلم يزل يبعث به من واحد إلى واحد حتى تداولته سبع بيوت، فرجع إلى الأول. وفي ذلك نزل قوله سبحانه: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾.

وقيل: إن الآية نزلت في ضيف أضاف النبي صلى الله عليه وسلم، فبعث إلى بيت نسائه فقلن: ما عندنا إلا الماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ أَكْرَمَ ضَيْفِي هَذِهِ اللَّيْلَةَ فَلَهُ الْجَنَّةُ**» فَقَالَ رَجُلٌ:

أَنَا. فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ الصِّبْيَانِ. فَقَالَ: هَيِّئِي طَعَامَكِ، وَأَصْلِحِي سِرَاجَكِ، وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عِشَاءً. فَفَعَلَتْ، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ، فَجَعَلَا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ، وَنَامَا طَاوِيَيْنِ. فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: **«ضَحِكَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا أَوْ مِنْ فِعَالِكُمَا»** . فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى الآية.

وحكي عن أبي الحسين الأنطاكي أنه اجتمع إليه نيف وثلاثون نفسا في قرية تعرف بالري، وكان لهم أرغفة فعدوه لم تشبع جميعهم فكسروا الرغفان وأطفؤوا السراج وجلسوا للطعام، فلما رُفع فإذا الطعام على حاله، ولم يأكل منهم أحد إيثارا لصاحبه على نفسه.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أَيُّمَا امْرِئٍ اشْتَهَى شَهْوَةً فَرَدَّ شَهْوَتَهُ وَآثَرَ عَلَى نَفْسِهِ غُفِرَ لَهُ**».

حُكي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان مريضا، فعوفي من مرضه فاشتهى على جماعة سمكة مشوية، فأتي إليه بها، فلما وضعت بين يديه وإذا السائل واقف على الباب يسأل، فقال لغلامه: ادفع إليه هذه السمكة، فقال له: أنت أحببتها ولم تأكلها،

فقال: إن الله تعالى يقول: (**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**).

وحُكي أن إبراهيم بن أدهم وشقيقا البلخي اجتمعا يوما، فقال شقيق لإبراهيم: كيف تعملون إذا لم تجدوا؟ فقال: إن أعطينا شكرنا، وإن منعنا صبرنا. فقال شقيق: هكذا عندنا كلاب بلخ. فقال إبراهيم: كيف تعملون أنتم؟ فقال: إن أعطينا آثرنا، وإن منعنا شكرنا. فقام إبراهيم وقبَّل رأس شقيق وقال: أنت الأستاذ.

وأما الإيثار بالماء: فما حكي أن جماعة استشهدوا باليرموك، فأتي بماء وفيهم الروح، فأتي إلى واحد منهم بالماء فأشار إليهم أن اسقوا فلانا، فأتوا إليه (فأشار إليهم أن اسقوا فلانا)، وهكذا. فماتوا كلهم ولم يشربوا من الماء إيثارا منهم لأصحابهم.

وأما الإيثار بالنفس والروح: فما رُوي أن عليا رضي الله عنه بات على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام إني آخيت وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة؟ فاختار كلاهما الحياة، فأوحى الله سبحانه إليهما: أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب؟ آخيت بينه وبين نبيي محمد صلى الله عليه وسلم فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة؟ اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه. فكان جبريل عند رأسه، وميكائيل عند رجليه، وجبريل ينادي: بخ بخ من

مثلـك يـا ابن أبي طـالب وربـك يبـاهي بـك الملائكة.

وأما الإيثار في باب الحيـاة: فمـا ذكـره ابن عطـاء أنـه قـال: سـعى شـاب في جماعـة من الصوفية إلى بعض الخلفـاء وطعن فيهم عنـده، فأخـذوا النـوري وأبـا حمـزة وجماعـة منهم، فأدخلوهم على الخليفة، فأمر بضرب أعنـاقهم. فبادر النوري إلى السياف ليضرب عنقه، فقـال له السياف: مالك بـادرت من بين أصـحابك إلى القتـل؟ فقـال: أحببت أن أوثـر أصـحابي بحيـاة هذه اللحظة. فأعجب السياف وجميع من حضر فعلـه، وأخـبر الخليفـة بـذلك فـردَّ أمـرهم إلى القاضـي، فتقـدم إليـه النـوري، فسـأله عن الفـرائض وسـنن الشـرائع، (فأجابـه) ثم قـال: وبعد هذا فإن لله عبادا يأكلون باللـه ويشـربون بالله ويسمعون بالله ويلبسون باللـه ويصـدرون بالله ويردون بالله. فلمـا سـمع القاضـي كلامـه بكى بكاء شديدا، ثم دخل على الخليفة وقـال: إن كان هؤلاء زنادقة فمن الموحد؟ ثم أطلقهم.

تنبيه يتعلـق باصـطناع المعـروف، وأن المعروف لا يضيع ولو مع غير أهله:

يحكى أن رجلا كان يعرف بابن حمير، وكان له ورد وكان ذا ورع يصوم النهار ويقـوم الليـل، وكان مبتليا بـالقنص. فخـرج ذات يـوم يصـيد إذ عرضـت لـه حيـة فقـالت: يـا محمـد بن حمـير أجرني أجارك الله، فقال لها: ممن؟ قالت: من عـدو ظلمـني، قـال لهـا: وأين عـدوك؟ قـالت:

ورائي، قال لها: ومن أي أمـة أنت؟ قـالت: من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، قـال: ففتحت ردائي وقلت لهـا ادخلي فيـه، قـالت: يـراني عدوي، قلت لها: فما الذي أصنع بك؟ قالت: إن أردت اصطناع المعروف فـافتح لي فـاك حتى أدخل فيه، قال: (أخشى) أن تقتليني، قـالت: لا والله لا أقتلك، الله شـاهد علي بـذلك وملائكتـه وأنبياؤه ورسله وحملة عرشه وسكان سـماواته إن أنا قتلتك.

قال محمد: ففتحت فمي فانسابت فيـه، ثم مضيتُ. فعارضـني رجـل معـه صمصامة يعـني حربة، فقال: يا محمد، قلتُ: ومـا تشـاء؟ قـال: لقيتَ عـدوي؟ قلت: ومن عـدوك؟ قـال: حيـة، قلتُ: لا، واسـتغفرت ربي من قـولي لا مائـة مـرة، وقـد علمت أين هي. ثم مضـيت قليلا، فأخرجت رأسها من فمي وقالت: انظـر مضى هذا العـدو، فـالتفتُّ فلم أرَ أحـدًا، فقلت: لم أر أحـدًا إن أردت أن تخـرجي فـاخرجي فمـا أرى إنسانا، فقالت: الآن يـا محمـد اختـر واحـدا من اثنين: إما أن أفتت كبدك، وإما أن أثقب فؤادك وأدعـك بلا روح. فقلت: يـا سـبحان اللـه، أين العهد الذي عهـدت إلي، واليمين الـذي حلفتـه؟ وما أسرع ما نسيته! قالت: يا محمد لِمَ نسـيتَ العـداوة الـتي كـانت بيـني وبين أبيـك آدم حيث أخرجتـه من الجنـة؟ على أي شـيء اصـطناع المعروف مع غـير أهلـه؟ (قلت لهـا: ولا بـد من أن تقتليني؟ قـالت: لا بـد من ذلـك)، قلت لهـا:

فامهليني حتى أصير إلى تحت هذا الجبل فامهِّد لنفسي موضعا، قالت: شأنك. قال: فمضيت أريد الجبل وقد أيست من الحياة، فرفعت طرفي إلى السماء وقلت: يا لطيف يا لطيف الطف بي بلطفك الخفي، يا لطيف بالقدرة التي استويت بها على العرش فلم يعلم العرش أين مستقرك منه إلا كفيتني هذه الحية.

ثم مشيت، فعارضني رجل صبيح الوجه طيب الرائحة نقي من الدرن فقال لي: سلام عليك، قلت: وعليك السلام يا أخي، قال: ما لي أراك قد تغير لونك؟ قلت: من عدو قد ظلمني، قال: وأين عدوك؟ قلت: في جوفي، قال لي: افتح فاك، قال: ففتحت فمي فوضع فيه مثل ورقة الزيتون أخضر، ثم قال: امضغ وابلع، فمضغت وبلعت، قال: فلم ألبث إلا يسيرا حتى مغصتني بطني ودارت في بطني، فرميت بها من أسفل قطعة قطعة. فتعلقت بالرجل فقلت: يا أخي من أنت الذي منَّ الله عليَّ بك؟ فضحك ثم قال: ألا تعرفني؟ قلت: لا، قال: إنه لما كان بينك وبين الحية ما كان، ودعوت بذلك الدعاء، ضجت ملائكة السموات السبع إلى الله عز وجل، فقال: وعزتي وجلالي، بعيني كل ما فعلت الحية بعبدي، وأمرني سبحانه وتعالى بالمجيء إليك، وأنا يقال لي المعروف مستقري في السماء الرابعة، أن انطلق إلى الجنة فخذ ورقة خضراء فالحق بها عبدي محمد بن حمير. يا محمد عليك باصطناع المعروف

فإنه يقي مصارع السوء، وإن ضيعه المصطنع إليه لم يضع عند الله عز وجل. اهـ. بخ. وتصرف منها أيضا.

فصل

اعلم أنه لا جرم أن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم فرض عين، وأن طاعته وتصديقه فيما جاء به واتباع سنته واجب دون مين.

وقد وردت في ذلك آيات محكمة، وآثار وأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم كثيرة.

قال تعالى: (**فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا**)، وقال: (**فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ**) الآية، وقال: (**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ**).

وقال صلى الله عليه وسلم كما في الصحيح: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ**».

والإيمان به عليه السلام هو تصديق نبوته ورسالة الله له، وتصديقه في جميع ما جاء به وما قاله، ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادة

اللسان بأنه رسول الله، فإذا اجتمع التصديق به بالقلب والنطق بالشهادة بذلك باللسان ثم الإيمان به والتصديق له كما ورد في هذا الحديث نفسه من رواية عبد الله بن عمر: **«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ»**، وقد زاده وضوحا في حديث جبريل إذ قال: «أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ»، فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ»**، وذكر أركان الإسلام؛ ثم سأله عن الإيمان، فقال: **«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ»** الحديث.

فقد قرَّر أن الإيمان به محتاج إلى العقد بالجنان، والإسلام به اضطر إلى النطق باللسان، وهذه الحال المحمودة التامة.

وأما الحالة المذمومة فالشهادة باللسان دون تصديق القلب، وهذا هو النفاق، قال تعالى: (**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**)، أي كاذبون في قولهم ذلك، عن اعتقادهم وتصديقهم وهم لا يعتقدونه، فلما لم تصدق ذلك ضمائرهم لم ينفعهم أن يقولوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فخرجوا عن اسم الإيمان ولم يكن لهم في الآخرة حكمه إذ لم يكن معهم، ولحقوا بالكافرين في الدرك الأسفل،

وبقي عليهم حكم الإسلام بإظهار شهادة اللسان في أحكام الدنيا المتعلقة بالآية. وحكام المسلمين الذين أحكامهم على الظواهر بما أظهروه من علامة الإسلام إذا لم يجعل للبشر سبيل إلي السرائر. اهـ. محل الحاجة بخ. مع تقديم وتأخير من الشفاء.

وإذا علم هذا وتقرر، فالحزم هو الاحتراز بما يقع فيه الجهلة من الاستخفاف بهذا المقام، والحذر الحذر.

فصل

اعلم أنه إذا وجب الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم والتصديق بما جاء به، وجبت طاعته وتعيَّنت على جميع الخلق متابعته، لأن ذلك مما أتى به الكتاب والسنة.

قال تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ**)، وقال: (**وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**)، وقال: (**وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**)، وقال: (**وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا**)، وقال: (**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ**).

فجعل تعالى طاعة رسوله طاعته، وقرن طاعته بطاعته، ووعد على ذلك بجزيل الثواب، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب، وأوجب امتثال أمره واجتناب نهيه.

قال المفسرون والأئمة: طاعة الرسول في التزام سنته والتسليم لما جاء به.

وقالوا: وما أرسل الله من رسول إلا فرض طاعته على من أرسله إليه.

وقالوا: من يطع الرسول في سنته يطع الله في فرائضه، ومن سنته كثرة الصلاة والتسليم عليه، وحبه وحب آله، وتعظيم من يصلي عليه. انظر المفهوم.

وسئل سهل بن عبد الله عن شرائع الإسلام فقال: فقال (**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ**). وقال السمرقندي: يقال: أطيعوا الله في فرائضه، والرسول في سننه. وقيل: أطيعوا لله فما حرم عليكم، والرسول فيما بلغكم. ويقال: أطيعوا الله بالشهادة له بالربوبية، والنبي بالشهادة له بالنبوءة.

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه سمع أبا هريرة يقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي**». فطاعة الرسول من طاعة الله، إذ الله أمر بطاعته، فطاعته امتثال لما أمر الله به وطاعة له.

وحكى الله عن الكفار في دركات جهنم: (**يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا**)، فتمنوا طاعته حيث لا ينفعهم التمني.

وقـــال عليـــه الســـلام: «**إِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَــيْءٍ فَــاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَــرْتُكُمْ بِشَــيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**».

وفي حديث أبي هريرة عنـه عليـه السـلام: «**كُلُّ أُمَّتِي يَــدْخُلُونَ الْــجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى**» قَالُوا: وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «**مَنْ أَطَـاعَنِي دَخَـلَ الْـــجَنَّةَ وَمَنْ عَصَــانِي فَقَــدْ أَبَى**» أي من دخول الجنة.

وعنــه عليــه الســلام: «**مَثَلِي وَمَثَـلُ مَـا بَعَثَنِي اللــهُ بِــهِ كَمَثَــلِ رَجُــلٍ أَتَى قَوْمًــا فَقَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْـــجَيْشَ بِعَيْنَيَّ وَإِنِّي أَنَــــا النَّذِيرُ الْعُرْيَــــانُ فَالنَّجَــــاءَ، (فَأَطَاعَــهُ) طَائِفَــةٌ مِنْ قَوْمِــهِ فَأَدْلَــجُوا فَــانْطَلَقُوا عَلَى مَهَلِهِمْ فَنَجَــوْا، وَكَــذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَــلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ وَمَثَــلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنْ الْـحَقِّ**».

وفي الحديث الآخر في مثله: «**كَمَثَــلِ مَنْ بَنَى دَارًا وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً وَبَعَثَ دَاعِيًــا، فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَــلَ مِنَ الْـمَأْدُبَةِ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الـــدَّارَ وَلَمْ يَأْكُــلْ مِنَ الْـــمَأْدُبَةِ، فَالـــدَّارُ الْـجَنَّةُ، وَالدَّاعِي مُحَمَّدٌ صَــلَّى اللــهُ عَلَيْــهِ وَسَــلَّمَ، فَمَنْ أَطَــاعَ مُحَمَّدًا فَقَــدْ أَطَــاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا فَقَدْ عَصَى اللهَ، وَمُحَمَّدٌ فَــرْقٌ بَيْنَ النَّاسِ**». اهــ. بخ. منهــا

أيضا مع زيادة الإيضاح، فليتأمل، ففيه للسعيد الفلاح.

فصل

في ذكر الدليل من الكتاب والسنة على وجوب اتباعه وامتثال سنته والاقتداء بهديه.

قال تعالى: (**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**).

وقال: (**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ**) أي ينقادون لحكمك (**وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**) يقال سلم واستسلم وأسلم إذا انقاد.

وقال: (**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ**) (**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**). قال الترمذي: الأسوة في الرسول الاقتداء به والاتباع لسنته وترك مخالفته في قول أو فعل. وقال غير واحد من المفسرين بمعناه.

وقال سهل في قوله تعالى: (**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**) قال بمتابعة السنة،

فأمرهم الله تعالى بذلك ووعدهم الاهتداء باتباعه، أن الله أرسله بالهدى ودين الحق ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويهديهم إلى صراط مستقيم، ووعدهم محبته تعالى في الآية الأخرى، ومغفرته إذا اتبعوه وآثروه على أهوائهم، وما تجنح إليه نفوسهم، وأن صحة إيمانهم بانقيادهم له ورضاهم بحكمه وترك الاعتراض عليه. اهـ.

قلت: ومن الاعتراض عليه نهي بعض الظلمة عن الصلاة عليه عليه الصلاة والسلام، وبغض من صلى عليه. نسأل الله العفو والعافية مما يفضي إلى سخط الله وغضبه وسوء المقام.

وروي عن الحسن أن قوما قالوا: يا رسول الله إنا نحب الله، فأنزل الله تعالى: (**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ**) الآية. وروي أن الآية نزلت في كعب بن الأشرف وغيره، وأنهم قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، ونحن أشد حبا لله، فأنزل الله الآية.

وقال الزجاج: معناه إن كنتم تحبون الله أن تقصدوا طاعته، فافعلوا ما أمركم به، إذ محبة العبد لله والرسول طاعته لهما، ورضاه بما أمرا، ومحبة الله لهم عفوه عنهم، وإنعامه عليهم برحمته. ويقال: الحب من الله عصمة وتوفيق، ومن العباد طاعة، كما قال القائل:

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ=هَذَا لَعَمْرِي في القِيَاسِ بَدِيعُ

لَـوْ كَـانَ حُبُّكَ صَـادِقًا لأَطَعْتَـهُ=إِنَّ الْـمُحِبَّ لِـمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

ويقال محبة العبد لله تعظيمه له وهيبته منه، ومحبة الله له رحمته وإرادته الجميل له، وتكون بمعنى مدحه وثنائه عليهم.

قال عليه السلام كما في حديث العرباض بن سارية: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلِّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**» وفي حديث جابر: «**وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ**».

وعنه عليه السلام كما في حديث عائشة، أنه صنع عليه السلام شيئا ترخص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فحمد الله ثم قال: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنْ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ فَوَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً**».

وقال عليه السلام: «**الْقُرْآنَ صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ، وَهُوَ الْحَكَمُ، فَمَنِ اسْتَمْسَكَ بِحَدِيثِي وَفَهِمَهُ وَحَفِظَهُ جَاءَ مَعَ الْقُرْآنِ، وَمَنْ تَهَاوَنَ بِالْقُرْآنِ وَحَدِيثِي خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ أَمَرْتُ أُمَّتِي أَنْ يَأْخُذُوا بِقَوْلِي وَيُطِيعُوا أَمْرِي وَيَتَّبِعُوا سُنَّتِي، فَمَنْ رَضِيَ بِقَوْلِي فَقَدْ رَضِيَ بِالْقُرْآنِ قَالَ تَعَالَى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ) الآية**».

وقال عليه السلام: «**مَنْ اقْتَدَى بِي فَهُوَ مِنِّي، وَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**».

وعن أبي هريرة أن النبي عليه السلام قال: «**إِنَّ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا**».

وعنه أيضا عليه السلام: «**الْمُتَمَسِّكُ بِسُنَّتِي عِنْدَ فَسَادِ أُمَّتِي لَهُ أَجْرُ مِائَةِ شَهِيدٍ**».

وعنه عليه السلام: «**إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقُوا عَلَى اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ أُمَّتِي تَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**» قَالُوا: وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي**».

وعنه عليه السلام كما في حديث أنس: «**مَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحْيَانِي وَمَنْ أَحْيَانِي كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ**».

وعنه عليه السلام فيما رواه عمرو بن عوف المزني أنه قال لبلال بن الحارث: «**مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي قَدْ أُمِيتَتْ بَعْدِي، فَإِنَّ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلَ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ ابْتَدَعَ بِدْعَةَ ضَلَالَةٍ لَا تُرْضِي اللهَ وَرَسُولَهُ كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ عَمِلَ بِهَا لَا**

يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أَوْزَارِ النَّاسِ شَـيْئًا». اهــ. بخ. مع زيادة للبيان، ونسأل الله الختم بالإيمان.

قلت: ومن السـنة الإكثـار من الصـلاة على رسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم آنـاء الليـل وأطراف النهار، ومن البدعة تركها والاستخفاف بها كما هي حال بعض المغترين الفجار.

فصل

في ذكر بعض ما ورد عن السلف الصالح والأئمة المهتدين من اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتداء بهديه وسيرته حتى أتاهم اليقين

روي عن رَجُـلِ مِنْ آلِ خَالِـدِ بْنِ أَسِـيدٍ أَنَّهُ سَأَلَ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّا نَجِـدُ صَـلاَةَ الْخَـوْفِ وَصَـلاَةَ الحضَـرِ فِي الْقُرْآنِ، وَلاَ نَجِدُ صَلاَةَ السَّفَرِ؟ فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّ اللـهَ بَعَثَ إِلَيْنَـا مُحَمَّدًا صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، وَلاَ نَعْلَمُ شَـيْئًا، فَإِنَّمَـا نَفْعَـلُ كَمَـا رَأَيْنَاهُ يَفَعْلُ.

وعن عمر بن عبد العزيز: سنَّ رسـول اللـه صلى الله عليـه وسـلم وولاة الأمـر بعـده سـننا الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستعمال لطاعـة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها ولا

تبـــديلها ولا النظـــر في رأي من خالفهـــا، من اقتـدى بهـا مهتـد ومن انتصـر بهـا منصـور ومن خالفها واتبع غير سـبيل المؤمـنين ولاه اللـه مـا تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا.

وقال ابن شهاب: بلغنا عن رجـال من أهـل العلم قالوا: الاعتصام بالسنة نجاة.

وكتب عمـر بن الخطـاب رضـي اللـه عنـه بتعلم السنة والفرائض واللحن، أي اللغة.

وقال: إِنَّ نَاسًـا يُجَـادِلُونَكُمْ يعـني بـالْقُرْآنِ، فَخُـذُوهُمْ بِالسُّنَنِ، فَـإِنَّ أَصْـحَابَ السُّـنَنِ أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللهِ.

وخـبره حين صـلى بـذي الحليفـة ركعـتين فقال: أَصْنَعُ كَمَـا رَأَيْتُ رَسُـولَ اللـهِ صَـلَّى اللـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْنَعُ.

وعن علي كرم الله وجهه حين قـرن فقـال له عثمان رضي الله عنه: أَتَرَى أَنِّي أَنْهَى النَّاسَ عَنْهُ وَتَفْعَلُهُ؟ قَالَ: لَمْ أَكُنْ **أَدَعُ** سُنَّةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقَوْلِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ.

وعنه رضي الله عنه: أَلَا إِنِّي لَسْتُ بِنَبِيٍّ وَلَا يُوحَى إِلَيَّ وَلَكِنِّي أَعْمَلُ بِكِتَـابِ اللـهِ وَسُـنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا اسْتَطَعْتُ.

وكان ابن مسـعود رضـي اللـه عنـه يقـول: الْقَصْدُ فِي السُّنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الِاجْتِهَادِ فِي الْبِدْعَةِ.

قال ابن عمر رضي الله عنه: صَلَاةُ السَّـفَرِ رَكْعَتَانِ مَنْ خَالَفَ السُّنَّةَ كَفَرَ.

وعن أبي بن كعب: عَلَيْكُمْ بِالسَّبِيلِ وَالسُّنَّةِ، فَإِنَّهُ مَـا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ عَبْـدٍ عَلَى السَّـبِيلِ

وَالسُّنَّةِ ذَكَرَ اللهَ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ فَيُعذِّبَهُ اللهُ أَبَدًا، وَمَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ عَبْدٍ عَلَى السَّبِيلِ وَالسُّنَّةِ ذَكَرَ اللهَ فِي نَفْسِهِ فَاقْشَعَرَّ جِلْدُهُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ إِلَّا كَانَ مَثَلُهُ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ قَدْ يَبِسَ وَرَقُهَا فَهِيَ كَذَلِكَ إِذَا أَصَابَتْهَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ فَتَحَاتَّ عَنْهَا وَرَقُهَا إِلَّا حَطَّ اللهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ، كَمَا تَحَاتَّ عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَرَقُهَا، وَإِنَّ اقْتِصَادًا فِي سَبِيلٍ وَسُنَّةٍ خَيْرٌ مِنَ اجْتِهَادٍ فِي خِلَافِ سَبِيلٍ وَسُنَّةٍ، وَانْظُرُوا أَنْ يَكُونَ عَمَلُكُمْ إِنْ كَانَ اجْتِهَادًا أَوِ اقْتِصَادًا أَنْ يَكُونَ عَلَى مِنْهَاجِ الْأَنْبِيَاءِ وَسُنَّتِهِمْ.

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إلى عمر رضي الله عنه بحال بلده وكثرة لصوصه، هل يأخذهم بالظنة أو يحملهم على البينة وما جرت به السنة؟ فكتب إليه عمر: خُذْهُمْ بِالْبَيِّنَةِ وَمَا جَرَتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ، فَإِنْ لَمْ يُصْلِحْهُمُ الْحَقُّ فَلَا أَصْلَحَهُمُ اللهُ.

وعن عطاء في قوله تعالى: (**فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ**) إلى كتاب الله وسنة رسول الله.

وقال أبو عثمان الحيري: مَنْ أَمَّرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ، وَمَنْ أَمَّرَ الْهَوَى عَلَى نَفْسِهِ نَطَقَ بِالْبِدْعَةِ.

وجاء في تفسير قوله تعالى: (**وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**) أنه الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم.

وحكي أن أحمد بن حنبل قال: كنت يوما مع جماعة تجردوا ودخلوا الماء، فاستعملت الحديث: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَدْخُلْ الْحَمَّامَ إِلَّا بِمِئْزَرٍ**» ولم أتجرد، فرأيت تلك الليلة قائلا يقول: يا أحمد أبشر فإن الله قد غفر لك باستعمال السنة وجعلك إماما يقتدى بك، قلت: من أنت؟ قال: جبريل. اهـ. منه أيضا بخ. فليتأمل ففيه الشفاء لمن برسول الله صلى الله عليه وسلم اقتفى.

فصل

اعلم أنه لا شك أن مخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبديل سنته ضلال وبدعة متوعَّد من الله عليه بالخذلان والعذاب.

قال الله تعالى: (**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**)، وقال تعالى: (**وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**).

روى مالك عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى المقبرة وذكر الحديث في صفة أمته «**فَلَيُذَادَنَّ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ، فَأُنَادِيهِمْ: أَلاَ هَلُمَّ، أَلاَ**

هَلُمَّ، أَلاَ هَلُمَّ، فيُقَـالُ: إِنَّهُمْ قَـدْ بَـدَّلُوا بَعْـدَكَ، فَـأَقُولُ: فَسُـحْقًا فَسُـحْقًا فَسُحْقًا».

وعن أنس رضي اللـه عنـه أن رسـول اللـه صلى اللـه عليـه وسـلم قـال: «**مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**».

وقال صلى الله عليه وسـلم: «**مَنْ أَدْخَـلَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهْوَ رَدٌّ**».

وروى ابن أبي رافع عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْـرُ مِنْ أَمْـرِي بِمَا أَمَـرْتُ بِـهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْـهُ، فَيَقُـولُ: لَا أَدْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللهِ اتَّبَعْنَـاهُ**».

زاد في حـديث المقـدام: «**أَلَا وَإِنَّ مَـا حَـرَّمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ مِثْـلُ مَا حَرَّمَ اللهُ**».

وقال صلى الله عليه وسـلم، وجيء بِكِتَـابٍ فِي كَتِـفٍ: «**كَفَى بِقَـوْمٍ حُمْقًـا، أَوْ قَـالَ ضَلَالًا، أَنْ يَرْغَبُوا عَمَّا جَاءَ بِـهِ نَبِيُّهُمْ إِلَى غَيْرِ نَبِيِّهِمْ أَوْ كِتَابٍ غَيْرِ كِتَابِهِمْ**»، فـنزلت: **(أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَـا عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ)** الآية».

وقـال صـلى اللـه عليـه وسـلم: «**هَلَـكَ الْـمُتَنَطِّعُونَ**».

وقـال أبـو بكـر الصـديق رضـي اللـه عنـه: لَسْتُ تَارِكًا لِشَيْءٍ كَانَ رَسُولُ اللـهِ صَـلَّى اللـهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْمَلُ بِهِ إِلَّا عَمِلْتُ بِهِ، إِنِّي أَخْشَى إِنْ تَرَكْتُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ أَنْ أَزِيغَ.

اهـ. بخ. منه أيضا. وفيه كفاية لمن وفقه الله في هذا الباب، وهو الهادي من يشاء إلى سواء الصواب.

فصل في لزوم محبته صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى: (**قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ**) الآية.

فكفى بهذا حضًّا وتنبيها ودلالة وحجة، على إلزام محبته ووجوب فرضها وعظم خطرها، واستحقاقه لها صلى الله عليه وسلم، إذ قرع الله تعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله، وأوعدهم بقوله تعالى: (**فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ**)، ثم فسقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله.

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ**

وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»، ونحوه لأبي هريرة رضي الله عنه.

وعن أنس أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**».

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، إِلَّا نَفْسِي الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَنْ يُؤْمِنَ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ**» . فقال عمر رضي الله عنه: وَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيَّ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْآنَ يَا عُمَرُ**».

قال سهل: من لم ير ولاية الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع الأحوال، ويرى نفسه في ملكه عليه السلام لا يذوق حلاوة سنته، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ**» الحديث. اهـ. بخ. منه أيضا وحذف وزيادة.

قلتُ: تأمل هذه الحال التي كان عليها السلف، مع حال الجهلة من أبناء الزمان وخصوصا من ينتسب من الخلف، تجد أكثرهم

فاسقين، خارجين عن دائرة الشريعة والدين، في شهواتهم وأهوائهم ورياستهم وجهالتهم سكارى، وعما طلب منهم وفيما ضمن لهم حيارى، نسأل الله اللطيف الخبير، المعافاة مما ابتلى به هؤلاء من موجبات سخط القدير، آمين آمين آمين.

فصل

في ذكر ما أعد الله من الأجر والثواب
لمن أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاز بحسن المآب.

عن أنس رضي الله عنه أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: مَتَى السَّاعَةُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **«مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟»** قَالَ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَبِيرِ صَلاَةٍ وَلاَ صَوْمٍ وَلاَ صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، قَالَ: **«أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»**.

وعن صفوان بن قدامة رضي الله عنه: هاجرت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأتيته فقلت: يا رسول الله ناولني يدك أبايعك، فناولني يده فبايعته، فقلت: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أُحِبُّكَ، قال: **«الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»**. وروى

هذا اللفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن مسعود وأبو موسى وأنس رضي الله عنهم، وعن أبي ذر رضي الله عنه بمعناه.

وعن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أَخَذَ بِيَدِ حَسَنٍ وَحُسَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فَقَالَ: «**مَنْ أَحَبَّنِي وَأَحَبَّ هَذَيْنِ وَأَبَاهُمَا وَأُمَّهُمَا كَانَ مَعِي فِي دَرَجَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

وروي أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يَا رَسُولَ اللهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي، وَإِنِّي لَأَذْكُرُكَ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى أَجِيءَ فَأَنْظُرَ إِلَيْكَ، وَإِنِّي ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتَكَ فَعَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ النَّبِيِّينَ وَإِنْ دَخَلْتُهَا لَا أَرَاكَ. **فَأَنْزَلَ اللهُ**: (**وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**)، فدعا به فقرأها عليه.

وفي حديث آخر كان رجل عند النبي ينظر إليه لا يطرف، فقال: «**مَا بَالُكَ**؟» قال: بِأَبِي وَأُمِّي أَتَمَتَّعُ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْكَ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ رَفَعَكَ اللهُ بِتَفْضِيلِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ الْآيَةَ.

وفي حديث أنس رضي الله عنه: «**وَمَنْ أَحَبَّنِي كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ**». اهـ. منه بخ. وحذف.

فهنيئا ثم هنيئا لمن أحياه الله على هذه الحال وأماته عليها، وبشرى ثم بشرى يوم يحشر مع محبوبه صلى الله عليه وسلم بفراديس الجنة وأعلاها، وسحقا ثم سحقا لمن خذله وأضله وطبع على قلبه وأعمى بصره، وبئس مثوى من سجل عليه بالحرمان، فخسر الدنيا والآخرة، ألا ذلك هو الخسران.

فصل
في ذكر ما كان عليه السلف وصالح الأمة من محبتهم للنبي صلى الله عليه وسلم وشوقهم له

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا، نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ**»، ومثله عن أبي ذر رضي الله عنه.

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه: «مَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وعن عبدة بنت خالد بن معدان قالت: ما كان خالد يأوي إلى فراش إلا وهو يذكر من شوقه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،

وإلى أصـحابه من المهـاجرين والأنصـار رضـي اللـــه عنهم، يســميهم ويقـــول: «هم أصـــلي وفصلي، وإليهم يحنُّ قلبي، طال شـوقي إليهم، فعجل ربي قبضي إليك»، حتى يغلبه النوم.

وروي عن أبي بكر رضي الله عنه أنـه قـال للنـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم: «وَالَّذِي بَعَثَـكَ بِالْـحَقِّ لَإِسْلَامُ أَبِي طَالِبِ (كَـانَ أَقَـرَّ لِعَيْنِي مِنْ إِسْلَامِهِ -يعني أباه أبا قحافـة- وَذَلِـكَ أَنَّ إِسْـلَامَ أَبِي طَالِبِ) كَانَ أَقَرَّ لِعَيْنِـكَ». ونحـوه عن عمـر بن الخطاب رضي الله عنه، قاله للعبـاس: «أَنْ تُسْـلِمَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يُسْـلِمَ الْـــخَطَّابُ، لِأَنَّ ذَلِـكَ أَحَبُّ إِلَى رَسُـولِ اللـهِ صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ».

وعن ابن إسحاق أن امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحـد مـع رسـول اللـه صلى الله عليه وسلم، فقالت: مَا فَعَـلَ رَسُـولُ اللهِ صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ؟ قَـالُوا: خَيْـرًا هُـوَ بِحَمْدِ اللهِ كَمَا تُحِبِّينَ، قَالَتْ: أَرُونِيـهِ حَتَّى أَنْظُـرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: كُلُّ مُصِيبَةٍ بَعْدَكَ جَلَلٌ.

وسئل علي بن أبي طالب: كيف كان حبكم لرسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم؟ قـال: « **كَانَ وَاللهِ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ أَمْوَالِنَا وَأَوْلَادِنَـا وَآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا وَمِنَ الْـــمَاءِ الْبَـارِدِ عَلَى الظَّمَإِ**».

وعن زيد بن أسلم رحمـه اللـه قـال: خـرج عمر رضى الله عنه ليلة يحرس فـرأى مصـباحا في بيت وإذا عجوز تنفش صوفا وتقول:

عَلَى مُحَمَّدٍ صَـلَاةُ الْأَبْـرَارْ=صَـلَّى عَلَيْـهِ الطَّيِّبُونَ الْأَخْيَارْ
قَدْ كُنْتَ قَوَّامًا بُكًا بِالْأَسْحَارْ=يَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْـمَنَايَا أَطْوَارْ
هَلْ تَجْمَعُنِي وَحَبِيبِيَ الدَّارْ

تعني النبي صلى الله عليه وسلم. فجلس عمر رضى الله عنه يبكي، وفى الحكاية طول.

وروي أن عبـد اللـه بن عمـر رضـي اللـه عنهما خدرت رجله، فقيل له: اذكر أحب الناس إليك يزول عنك، فصاح: يَا مُحَمَّدَاهْ، فانتشرت.

ولما احتضر بلال نادت امرأته: واحزناه! فقال: وَاطَرَبَاهْ، غَدًا أَلْقَى الْأَحِبَّهْ مُحَمَّدًا وَحِزْبَهْ.

ويروى أن امرأة قالت لعائشة رضى اللـه عنها: اكشفي لى قبر رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم، فكشفته لها فبكت حتى ماتت.

ولما أخرج أهل مكة زيد بن الدثنة من الحرم ليقتلوه قال له أبو سفيان بن حرب: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ فقال زيد رضي الله عنه: وَاللـهِ مَا أُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا الْآنَ فِي مَكَانِـهِ الَّذِي هُـوَ فِيـهِ تُصِيبُهُ شَـوْكَةٌ وَإِنِّي جَالِسٌ فِي أَهْلِي، فقال أبـو سـفيان: مَا رَأَيْتُ مِنَ النَّاسِ أَحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعن ابن عباس رضـي اللـه عنـه: كَـانَتِ الْـمَرْأَةُ إِذَا أَتَتِ النَّبِيَّ صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ حَلَّفَهَا بِاللَّهِ مَـا خَـرَجَتْ مِنْ بُغْضِ زَوْجٍ وَلَا رَغْبَـةً

عَنْهُ بِـأَرْضٍ عَنْ أَرْضٍ، وَمَـا خَـرَجَتْ إِلَّا حُبًّا للـهِ وَرَسُولِهِ.
وَوَقَفَ ابْنُ عُمَـرَ رضـي اللـه عنـه على ابْنِ الزبير رحمه الله بعد قتله، فاستغفر لـه وقـال: كنتَ وَاللهِ فيما علمت صوَّاما قوَّامـا تحب اللـهَ ورسولهُ. اهـ. بخ. منه أيضا وتغيير ما.
فـإذا علمت هــذا فينبغي لكــل مــؤمن أن يســلك ســبيل هــؤلاء الســادات، لينخــرط في سلكهم كل الأوقات، ويتجنب سبيل أهل الردى، لئلا يحشر في زمرتهم غدا، والله الموفق.

فصل
في ذكر علامات محبته صلى الله عليه وسلم

اعلم أنه لا شك أن من أحب شيئا آثره وآثر موافقتــه، وإلا لم يكن صــادقا في حبــه وكــان مدعيا.
فالصـادق في حب النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم من تظهر علامات ذلك عليه:
-وأولاها: الاقتـداء بـه، واسـتعمال سـنته، واتباع أقواله وأفعاله، وامتثال أوامـره واجتنـاب نواهيــه والتــأدب بآدابــه، في عســره ويســره، ومنشـطه ومكرهـه، وشـاهد هـذا قولـه تعـالى: (**قُــلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللــهَ فَــاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ**).

-**وإيثار** ما شرعه وحض عليه على هوى نفسه وموافقة شهوته، قال الله تعالى: (**وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ**) إلى: (**خَصاصَةٌ**).

-**وإسخاط** العباد في رضا الله تعالى. عن سعيد بن المسيب قال: قال أنس بن مالك: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا بُنَيَّ إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِيَ لَيْسَ فِي قَلْبِكَ غِشٌّ لِأَحَدٍ فَافْعَلْ**»، ثُمَّ قَالَ لِي: «**يَا بُنَيَّ وَذَلِكَ مِنْ سُنَّتِي وَمَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَحَبَّنِي كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ**».

فمن اتصف بهذه الصفة فهو كامل المحبة لله ورسوله، ومن خالفها في بعض هذه الأمور فهو ناقص المحبة ولا يخرج عن اسمها، ودليله قوله صلى الله عليه وسلم للذى حدَّه في الخمر فلعنه بعضهم وقال: مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لَا تَلْعَنْهُ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**».

-**ومن علاماتها:** كثرة ذكره له صلى الله عليه وسلم، فمن أحب شيئا أكثر ذكره.

-**ومنها كثرة شوقه** إلى لقائه، فكل حبيب يحب لقاء حبيبه. وفى حديث الأشعريين عند قدومهم المدينة أنهم كانوا يرتجزون: غَدًا نَلْقَى الْأَحِبَّةْ مُحَمَّدًا وَصَحْبَهْ.

-**ومن علاماته مع كثرة ذكره تعظيمه له**، وتوقيره عند ذكره، وإظهار الخشوع

والانكماش مع سماع اسمه. قال إسحاق التجيبي: كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعده لا يذكرونه إلا خشعوا واقشعرت جلودهم وبكوا، وكذلك كثير من التابعين رضي الله عنهم، منهم من يفعل ذلك محبة له وشوقا إليه، ومنهم من يفعله تهيبا وتوقيرا.

-ومنها محبته لمن أحب النبي صلى الله عليه وسلم، ومن هو بسببه من آل بيته وصحابته من المهاجرين والأنصار، وعداوة من عاداهم وبغض من أبغضهم وسبَّهم، فمن أحب شيئا أحب من يحب، وقد قال عليه السلام في الحسن والحسين رضي الله عنهما: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا**»، وفى رواية في الحسن: «**فَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُ**»، وقال: «**مَنْ أَحَبَّهُمَا فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَحَبَّنِي فَقَدْ أَحَبَّ اللهَ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَنِي، وَمَنْ أَبْغَضَنِي فَقَدْ أَبْغَضَ اللهَ**»، وقال عليه السلام: «**اللهَ اللهَ فِي أَصْحَابِي لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللهَ، وَمَنْ آذَى اللهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ**»، وقال في فاطمة رضى الله عنها: «**إِنَّهَا بَضْعَةٌ مِنِّي، يُغْضِبُنِي مَا أَغْضَبَهَا**»، وقال لعائشة رضي الله عنها في أسامة بن زيد رضي الله عنه: «**أَحِبِّيهِ فَإِنِّي أُحِبُّهُ**»، وقال: «**آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ وَآيَةُ النِّفَاقِ**

بُغْضُهُمْ»، وفي حديث ابن عمر رضي الله عنه: «**مَنْ أَحَبَّ الْعَرَبَ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ**».

فبالحقيقة من أحب شيئا أحب كل شئ يحبه، وهذه سيرة السلف حتى في المباحات وشهوات النفس، وقد قال أنس رضي الله عنه حين رأى النبي صلى الله عليه وسلم يتتبع الدباء من حوالي القصعة: فَمَا زِلْتُ أُحِبُّ الدُّبَّاءَ مِنْ يَوْمِئِذٍ.

وهذا الحسن بن على وعبد الله بن عباس وابن جعفر أتوا سلمى وسألوها أن تصنع لهم طعاما مما كان يعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان ابن عمر يلبس النعال السبتية، ويصبغ بالصفرة، إذ رأى النبي صلى الله عليه وسلم يفعل نحو ذلك.

-ومنها بغض من أبغض الله ورسوله، ومعاداة من عاداه، ومجانبة من خالف سنته وابتدع في دينه، واستثقاله كل أمر يخالف شريعته. قال الله تعالى: **﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾**، وهؤلاء أصحابه صلى الله عليه وسلم قد قتلوا أحباءهم، وقاتلوا آباءهم وأبناءهم في مرضاته، وقال له عبد الله بن عبد الله بن أبي: «لَوْ شِئْتَ لَأَتَيْتُكَ بِرَأْسِهِ»، يعنى أباه.

-ومنها أن يحب القرآن الذي أتى به النبي صلى الله عليه وسلم وهدى به واهتدى

وتخلق به، حتى قالت عائشة رضى الله عنها: كَانَ خَلْقُهُ الْقُرْآنُ. وحبه للقرآن تلاوته وتفهمه والعمل به، ويحب سنته ويقف عند حدودها.

قال سهل بن عبد الله رحمه الله: عَلَامَةُ حُبِّ اللهِ حُبُّ الْقُرْآنِ، وَعَلَامَةُ حُبِّ اللهِ وَحُبِّ الْقُرْآنِ حُبُّ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَلَامَةُ حُبِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُبُّ السُّنَّةِ، وَعَلَامَةُ حُبِّ السُّنَّةِ حُبُّ الْآخِرَةِ، وَعَلَامَةُ حُبِّ الْآخِرَةِ بُغْضُ الدُّنْيَا، وَعَلَامَةُ بُغْضِ الدُّنْيَا أَلَّا يَدَّخِرَ مِنْهَا إِلَّا زَادًا وَبُلْغَةً إِلَى الْآخِرَةِ.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «لَا يَسْأَلُ أَحَدٌ عَنْ نَفْسِهِ إِلَّا الْقُرْآنَ، فَإِنْ كَانَ يُحِبُّ الْقُرْآنَ فَهُوَ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ».

-ومن علاماتها شفقته على أمته، ونصحه لهم، وسعيه في مصالحهم، ورفع المضار عنهم، كما كان صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين رءوفا رحيما.

-ومن علامات تمام محبته صلى الله عليه وسلم زهد مدعيها في الدنيا، وإيثاره الفقر واتصافه به. وقد قال عليه السلام لأبى سعيد الخدري رضي الله عنه: **«إِنَّ الْفَقْرَ إِلَى مَنْ يُحِبُّنِي مِنْكُمْ أَسْرَعُ مِنَ السَّيْلِ مِنْ أَعْلَى الْوَادِي أَوِ الْجَبَلِ إِلَى أَسْفَلِهِ».**

وفي حديث عبد الله بن مغفل: قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أُحِبُّكَ، قَالَ: «انْظُرْ مَا تَقُولُ»، قَالَ: وَاللهِ إِنِّي

أُحِبُّكَ- ثَلَاثَ مَـرَّاتٍ-، قَـالَ: **«إِنْ كُنْتَ تُحِبُّنِي فَأَعِدَّ لِلْفَقْرِ تِجْفَافًا»**، ثم ذكـر نحـو حـديث أبى سعيد بمعناه. اهـ. بخ. منه أيضا مع تغيير ما وزيادة.

فليتخلق بهذا الخلق جهده من أراد اللـه بـه خيرا، وليتخلَّ عما تحلى به من أراد به خسرا.

فصل
في ذكر معنى المحبة للنبي صلى الله عليه وسلم وحقيقتها

اعلم أنه قد اختلف الناس في تفسير محبة الله ومحبة النبي صلى الله عليه وسلم، وكثرت عباراتهم في ذلك وليسـت ترجـع بالحقيقـة إلى اختلاف مقال، ولكنها اختلاف في حال.

فقال سفيان رضي الله عنه: الْـمَحَبَّةُ اتِّبَـاعُ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كأنه التفت إلى قولـه تعـالى: (**قُـلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللـهَ فَاتَّبِعُونِي**) الآية.

وقال بعضهم: محبة الرسـول عليـه السلام اعتقاد نصرته، والذب عن سـنته، والانقيـاد لهـا، وهيبة مخالفته.

وقال بعضهم: المحبة دوام الذكر للمحبوب، وقال آخر: إيثار المحبوب.

وقال بعضهم: المحبة مواطأة القلب لمـراد الرب، فيحب ما أحب ويكره ما كره.

وقال آخر: المحبة ميل القلب إلى موافق له.

وأكثر العبارات المتقدمة إشارة إلى ثمرات المحبة دون حقيقتها، وحقيقة المحبة الميل إلى ما يوافق الإنسان، وتكون موافقته له إما لاستلذاذه بإدراكه (كحب الصور الجميلة والأصوات الحسنة والأطعمة والأشربة الذيذة وأشباهها مما كل طبع سليم مائل إليها لموافقتها له، أو لاستلذاذه بإدراكه) بحاسة عقله وقلبه معاني باطنة شريفة كمحبة الصالحين والعلماء وأهل المعروف المأثور عنهم السير الجميلة والأفعال الحسنة، فإن طبع الإنسان مائل إلى الشغف بأمثال هؤلاء حتى يبلغ التعصب بقوم لقوم والتشيع من أمة في أخرى، ما يؤدي إلى الجلاء عن الأوطان وهتك الحرم واخترام النفوس، أو يكون حبه إياه لموافقته له من جهة إحسانه له وإنعامه عليه، فقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها.

فإذا تقرر لك هذا نظرت هذه الأسباب كلها في حقه صلى الله عليه وسلم، فعلمت أنه صلى الله عليه وسلم جامع لهذه المعاني الثلاثة الموجبة للمحبة.

أما جمال الصورة والظاهر وكمال الأخلاق والباطن، فقد تقرر منها في غير هذا الباب ما لا يحتاج إلى زيادة.

وأما إحسانه وإنعامه على أمته، فكذلك.

وإذا كان كذلك فقد استبان لك أنه عليه السلام مستوجب للمحبة الحقيقية شرعا بما قدمناه من صحيح الآثار، وعادة وجبلة بما ذكرناه آنفا، لإفاضته الإحسان وعمومه الإجمال. فإذا كان الإنسان يحب من منحه في دنياه مرة أو مرتين معروفا، أو استنقذه من هلكة أو مضرة، مدة التأذي بها قليل منقطع، فمن منحه ما لا يبيد من النعيم ووقاه ما لا يفنى من عذاب الجحيم أولى بالحب. وإذا كان يحب بالطبع ملك لحسن سيرته، أو حاكم لما يؤثر من قوام طريقته، أو قاص بعيد الدار لما يشاد من علمه، أو كرم شيمته، فمن جمع هذه الخصال على غاية مراتب الكمال أحق بالحب وأولى بالميل، وقد قال علي رضى الله عنه في صفته صلى الله عليه وسلم: «مَنْ رَآهُ بَدِيهَةً هَابَهُ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ». وذكرنا عن بعض الصحابة أنه كان لَا يصرف بصره عنه محبة فيه صلى الله عليه وسلم. اهـ. بخ. منه أيضا وتغيير ما، فليتحفظ عليه، ويلقى كل البال إليه، فإنه جدير باتخاذ مطالعته وردا، سيما من تقادم جهله به عهدا.

فصل

في ذكر وجوب مناصحة النبي صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى: (**وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا للهِ وَرَسُولِهِ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**).

قال أهل التفسير: (**إِذَا نَصَحُوا للهِ وَرَسُولِهِ**) إذا كانوا مخلصين مسلمين في السر والعلانية.

عن تميم الداري: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ**» قَالُوا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**للهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**».

قال أئمتنا رحمهم الله: النصيحة لله ولرسوله وأئمة المسلمين وعامتهم واجبة.

قال الإمام أبو سليمان البستي: النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة إرادة الخير للمنصوح له، وليس يمكن أن يعبر عنها بكلمة واحدة تحصرها، ومعناها في اللغة الإخلاص من قولهم نصحت العسل إذا خلصته من شمعه.

وقال أبو بكر ابن أبي إسحاق الخفاف: النصح فعل الشئ الذى فيه الصلاح والملاءمة، مأخوذ من النصاح وهو الخيط الذي يخاط به الثوب.

وقال أبو إسحاق الزجاج نحوه.

فنصيحة الله تعالى صحة الاعتقاد له بالوحدانية، ووصفه بما هو أهله، وتنزيهه عما لا

يجوز عليه، والرغبة في محابه والبعد من مساخطه، والإخلاص في عبادته.

والنصحية لكتابه: الإيمان به، والعمل بما فيه، وتحسين تلاوته، والتخشع عنده والتعظيم له، وتفهمه، والتفقه فيه، والذب عنه من تأويل الغالين وطعن الملحدين.

والنصيحة لرسوله صلى الله عليه وسلم: التصديق بنبوته، وبذل الطاعة له فيما أمر به ونهى عنه، قاله أبو سليمان.

وقال أبو بكر: وموازرته ونصرته وحمايته حيا وميتا، وإحياء سنته بالطلب والذب عنها ونشرها، والتخلق بأخلاقه الكريمة وآدابه الجملية.

وقال أبو إبراهيم إسحاق التجيبي: نصيحة رسول الله صلى الله عليه وسلم التصديق بما جاء به، والاعتصام بسنته، ونشرها والحض عليها، والدعوة إلى الله وإلى كتابه وإلى رسوله وإليها إلى العمل بها.

وقال أحمد بن محمد: من مفروضات القلوب اعتقاد النصيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال أبو بكر الآجري وغيره: والنصح له يقتضي نصحين: نصحا في حياته، ونصحا بعد مماته.

ففي حياته نصح أصحابه له بالنصر والمحاماة عنه ومعاداة من عاداه، والسمع والطاعة، وبذل النفوس والأموال دونه، كما

قال الله تعالى: (**رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ**) الآية، وقال: (**وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ**) الآية.

وأما نصيحة المسلمين له بعد وفاته صلى الله عليه وسلم فالتزام التوقير والإجلال، وشدة المحبة له، والمثابرة على تعلم سنته، والتفقه في شريعته، ومحبة آل بيته وأصحابه، ومجانبة من رغب عن سنته وانحرف عنها، وبغضه والتحذير منه، والشفقة على أمته، والبحث عن تعرف أخلاقه وسيره وآدابه، والصبر على ذلك.

فعلى ما ذكره تكون النصيحة إحدى ثمرات المحبة وعلامة من علاماتها كما قدمناه.

وحكى الإمام أبو القاسم القشيري: أن عمرو بن الليث أحد ملوك خراسان ومشاهير الثوار المعروف بالصفار، رؤي في النوم، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، فقيل: بماذا؟ قال: صعدت ذروة جبل يوما فأشرفت على جنودي فأعجبتني كثرتهم فتمنيت أني حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعنته ونصرته، فشكر الله لي ذلك وغفر لي.

وأما النصح لأئمة المسلمين: فطاعتهم في الحق، ومعونتهم فيه وأمرهم به، وتذكيرهم (إياه) على أحسن وجه، وتنبيههم على ما غفلوا عنه، وكتم عنهم من أمور المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتضريب الناس وإفساد قلوبهم عليهم.

والنصح لعامة المسلمين: إرشادهم إلى مصالحهم، ومعونتهم في أمر دينهم ودنياهم بالقول والفعل، وتنبيه غافلهم، وتبصير جاهلهم، ورفد محتاجهم، وستر عوراتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع إليهم. اهـ. بخ. منه أيضا وتغيير وزيادة، فليشد يده المؤمن عليه، وليمتثل ما دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه.

فصل
في وجوب توقيره وبره وتعظيم أمره

قال الله تعالى: **(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ)**.

وقال: **(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ)**.

وقال: **(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ)** الثلاث الآيات.

وَقَالَ تَعَالَى: **(لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا)**.

فأوجب تعالى تعزيره وتوقيره، وألزم إكرامه وتعظيمه.

قال ابن عباس رضي الله عنه: «**تُعَزِّرُوهُ**» تجلوه.

وقال المبرد: «تعزروه» تبالغوا في تعظيمه.
وقال الأخفش: تنصروه.
وقال الطبري: تعينونه.
ونهى عن التقدم بين يديه بالقول وسوء الأدب بسبقه بالكلام، على قول ابن عباس وغيره، وهو اختيار ثعلب.
قال سهل بن عبد الله: لا تقولوا قبل أن يقول، وإذا قال فاستمعوا له وأنصتوا.
ونهوا عن التقدم والتعجل بقضاء أمر قبل قضائه فيه، وأن يفتاتوا بشيء في ذلك من قتال أو غيره من أمر دينهم إلا بأمره، ولا يسبقوه به. إلى هذا يرجع قول الحسن ومجاهد والضحاك والسدي والثوري.
ثم وعظهم وحذرهم مخالفة ذلك فقال: (**وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**).
قال الماوردي: اتقوه يعني في التقدم.
وقال السلمي: اتقوا الله في إهمال حقه، وتضييع حرمته، إنه سميع لقولكم عليم بفعلكم.
ثم نهاهم عن رفع الصوت فوق صوته والجهر له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض ويرفع صوته. وقيل كما ينادي بعضهم بعضا باسمه.
قال أبو محمد مكي: أي لا تسابقوه بالكلام، وتغلظوا له بالخطاب، ولا تنادوه باسمه نداء بعضكم لبعض، ولكن عظموه ووقروه،

ونادوه بأشرف ما يحبُّ أن ينادى به: يا رسول الله، يا نبي الله.

وهذا كقوله في الآية الأخرى: **«لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا»** على أحد التأويلين.

قال غيره: لا تخاطبوه إلا مستفهمين.

ثم خوفهم الله تعالى بحبط أعمالهم إن هم فعلوا ذلك، وحذرهم منه.

قيل: نزلت الآية في وفد بني تميم، وقيل في غيرهم، أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فنادوه: يا محمد، يا محمد، اخرج إلينا. فذمهم الله تعالى بالجهل، ووصفهم بأن أكثرهم لا يعقلون.

وقيل: نزلت الآية الأولى في محاورة كانت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم واختلاف جرى بينهما حتى ارتفعت أصواتهما.

وقيل: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، خطيب النبي صلى الله عليه وسلم، في مفاخرة بني تميم، وكان في أذنيه صمم فكان يرفع صوته. فلما نزلت هذه الآية أقام في منزله وخشي أن يكون حبط عمله. وأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا نَبِيَّ اللهِ، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ هَلَكْتُ، نَهَانَا اللهُ أَنْ نَجْهَرَ بِالْقَوْلِ، وَأَنَا امْرُؤٌ جَهِيرُ الصَّوْتِ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يَا ثَابِتُ، أَمَا تَرْضَى**

أَنْ تَعِيشَ حَمِيدًا وَتُقْتَلَ شَهِيدًا وَتَدْخُلَ الْجَنَّةَ»، فقتل يوم اليمامة رضي الله عنه.

وروي أن أبا بكر لما نزلت هذه الاية قال: والله يَا رَسُولَ الله لَا أُكَلِّمُكَ بَعْدَهَا إِلَّا كَأَخِي السِّرَارِ.

وَأَنَّ عُمَرَ رضي الله عنه كان إِذَا حَدَّثَهُ حدَّثه كَأَخِي السِّرَارِ، ما كان يَسْمَعُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هَذِهِ الآيَةِ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ فَأَنْزَلَ الله تعالى فيهم: **(إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)**.

وقيل: نَزَلَتْ **(إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)** في غير بني تميم، نَادَوْهُ بِاسْمِهِ.

وروى صفوان بن عسَّال: بَيْنَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم في سفر إذ نَادَاهُ أَعْرَابِيٌّ: أَيَا مُحَمَّدُ، أَيَا مُحَمَّدُ، أَيَا مُحَمَّدُ. فقلنا لَهُ: اغْضُضْ صَوْتَكَ فَإِنَّكَ قَدْ نُهِيتَ عن رفع الصوت.

وقال الله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا)**، قال بعض المفسرين: هي لغة كانت في الأنصار نهوا عن قولها تعظيما للنبي صلى الله عليه وسلم وتبجيلا له، لأن معناها إِرْعَنَا نَرْعَكَ، فنهوا عن قولها إذ مقتضاها كأنهم لا يرعونه إلا برعايته لهم، بل حقه أن يرعى على كل حال.

وقيل: كانت اليهود تعرض بها للنبي عليه السلام بالرعونة، فنُهِيَ المسلمون عن قولها قطعا للذريعة، ومنعا للتشبه بهم لمشاركة اللفظة، وقيل: غير هذا والله أعلم. اهـ. بخ. وتغيير، فلينظر هذا التأكيد على تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم وتوقيره وبره، والحض على القيام به في حق الأنام وأولى في حق أمته.

فصل
في ذكر ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم من تعظيمه صلى الله عليه وسلم، وتوقيره وإجلاله صلى الله عليه وسلم

عن أبي شماسة المهري قال: حضرنا عمرو بن العاص فذكر حديثا طويلا فيه، عن عمرو قال: وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنِي مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنِي مِنْهُ.

وروى الترمذي عن أنس رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَخْرُجُ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنَ المهاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَهُمْ جُلُوسٌ، فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ رضي الله عنهما

فَلَا يَرْفَعُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَيْهِ بَصَرَهُ إِلَّا أبو بكر وعمر، فَإِنَّهُمَا كَانَا يَنْظُرَانِ إِلَيْهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِمَا، وَيَتَبَسَّمَانِ إِلَيْهِ وَيَتَبَسَّمُ إليهما.

وروى أسامة بن شريك رضي الله عنه: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه حوله كأنما على رؤوسهم الطَّيْرُ.

وَفِي حَدِيثِ صِفَتِهِ صلى الله عليه وسلم: إِذَا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ جلساؤه كأنما على رُؤوسهم الطَّيْرُ.

وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ حِينَ وَجَّهَتْهُ قُرَيْشٌ عَامَ الْقَضِيَّةِ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَأَى مِنْ تَعْظِيمِ أَصْحَابِهِ لَهُ مَا رَأَى، وَأَنَّهُ لَا يَتَوَضَّأُ إِلَّا ابْتَدَرُوا وَضُوْءَهُ وَكَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَيْهِ، وَلَا يَبْصُقُ بُصَاقًا وَلَا يَتَنَخَّمُ نُخَامَةً إِلَّا تَلَقَّوْهَا بِأَكُفِّهِمْ فدلكوا بِهَا وُجُوهَهُمْ وَأَجْسَادَهُمْ، وَلَا تَسْقُطُ مِنْهُ شَعْرَةٌ إِلَّا ابْتَدَرُوهَا، وَإِذَا أَمَرَهُمْ بِأَمْرٍ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ. فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنِّي جِئْتُ كِسْرَى فِي مُلْكِهِ، وَقَيْصَرَ فِي مُلْكِهِ، وَالنَّجَاشِيَّ فِي مُلْكِهِ، وَإِنِّي وَاللهِ مَا رَأَيْتُ مَلِكًا فِي قَوْمٍ قَطُّ مِثْلَ مُحَمَّدٍ فِي أَصْحَابِهِ.

وَفِي رِوَايَةٍ: إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ مُحَمَّدًا أَصْحَابُهُ، وَقَدْ رَأَيْتُ قَوْمًا لَا يُسْلِمُونَهُ أَبَدًا.

وعن أنس رضي الله عنه: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والحلاق يحلقه،

وأطاف بِهِ أَصْحَابُهُ، فَمَا يُرِيدُونَ أَنْ تَقَعَ شَعْرَةٌ إِلَّا فِي يَدِ رَجُلٍ.

وَمِنْ هَذَا: لَمَّا أَذِنَتْ قُرَيْشٌ لِعُثْمَانَ رضي الله عنه فِي الطَّوَافِ بِالْبَيْتِ حِينَ وَجَّهَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فِي الْقَضِيَّةِ أَبَى وَقَالَ: «مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ حَتَّى يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وفي حديث طلحة رضي الله عنه: أَنَّ أَصْحَابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا لِأَعْرَابِيٍّ جَاهِلٍ: سَلْهُ عَمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ، وَكَانُوا يَهَابُونَهُ وَيُوَقِّرُونَهُ. فَسَأَلَهُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، إِذْ طَلَعَ طَلْحَةُ فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: **«هَذَا مِمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ»**.

وَفِي حَدِيثِ قَيْلَةَ: فَلَمَّا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى الله عليه وسلم جَالِسًا الْقُرْفُصَاءَ أَرْعَدْتُ مِنَ الْفَرَقِ، وَذَلِكَ هَيْبَةً لَهُ وَتَعْظِيمًا.

وَفِي حَدِيثِ المغيرة رضي الله عنه: كَانَ أَصْحَابُ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَعُونَ بابه بالأظفار.

وَقَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رضي الله عنه: لَقَدْ كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْأَمْرِ فَأُؤَخِّرُهُ سِنِينَ مِنْ هَيْبَتِهِ. اهـ. بخ. منه أيضا مع تغيير، فعلى المؤمن الصادق أن يقتدي بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في سيرتهم معه، ويتخلق بخلقهم عسى أن يفتح الله عليه ويشرح صدره.

فصل
في الإعلام بأن حرمة النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازم كما كان حال حياته وذلك عند ذكره صلى الله عليه وسلم، وذكر حديثه وسنته، وسماع اسمه وسيرته، ومعاملة أهله وعترته، وتعظيم أهل بيته وصحابته رضي الله عنهم

قال أبو إبراهيم التجيبي: وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ مَتَّى ذَكَرَهُ أَوْ ذُكِرَ عِنْدَهُ أَنْ يَخْضَعَ وَيَخْشَعَ، وَيَتَوَقَّرَ وَيُسَكِّنَ مِنْ حَرَكَتِهِ، وَيَأْخُذَ فِي هَيْبَتِهِ وَإِجْلَالِهِ بِمَا كَانَ يَأْخُذُ بِهِ نَفْسَهُ لَوْ كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَيَتَأَدَّبُ بِمَا أَدَّبَنَا الله به.

قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه: هَذِهِ كَانَتْ سِيرَةَ سَلَفِنَا الصَّالِحِ وَأَئِمَّتِنَا الماضِين رضي الله عنهم.

عن يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل عن أبي حميد قال: نَاظَرَ أَبُو جَعْفَرٍ أَمِيرُ المؤْمِنِينَ مَالِكًا رضي الله عنه فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ مَالِكٌ: يَا أَمِيرَ المؤمِنِينَ لَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ فِي هَذَا المسجد، فَإِنَّ الله عز وجل أَدَّبَ قَوْمًا فَقَالَ: **(لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ)** الْآيَةَ، وَمَدَحَ قَوْمًا فَقَالَ: **(إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ**

أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ) الْآيَةَ، وَذَمَّ قَوْمًا فَقَالَ: (**إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ)** الْآيَةَ، وَإِنَّ حُرْمَتَهُ مَيِّتًا كَحُرْمَتِهِ حَيًّا. فَاسْتَكَانَ لَهَا أَبُو جَعْفَرٍ وَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ أَأَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ وَأَدْعُو أَمْ أَسْتَقْبِلُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ: وَلِمَ تَصْرِفُ وَجْهَكَ عَنْهُ وَهُوَ وَسِيلَتُكَ وَوَسِيلَةُ أَبِيكَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى اللهِ يَوْمَ القيامة؟ بَلِ اسْتَقْبِله واستشفِع بِهِ فَيُشَفِّعَكَ اللهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **(وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ)** الْآيَةَ.

وقال مالك وقد سُئِلَ عَنْ أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيِّ: مَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ أَحَدٍ إِلَّا وَأَيُّوبُ أفضل منه. قال: وَحَجَّ حَجَّتَيْنِ فَكُنْتُ أَرْمُقُهُ وَلَا أَسْمَعُ مِنْهُ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا ذُكِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَكَى حَتَّى أَرْحَمَهُ، فَلَمَّا رَأَيْتُ مِنْهُ مَا رَأَيْتُ مِنْ إِجْلَالِهِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَتَبْتُ مِنْهُ.

وَقَالَ مُصْعَبُ بْنُ عَبْدِ الله: كَانَ مَالِكٌ رحمه الله إِذَا ذُكِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ وَيَنْحَنِي حَتَّى يَصْعُبَ ذَلِكَ عَلَى جُلَسَائِهِ، فَقِيلَ لَهُ يَوْمًا فِي ذَلِكَ فَقَالَ: لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَمَا أَنْكَرْتُمْ عَلَيَّ مَا تَرَوْنَ، لَقَدْ كُنْتُ أَرَى مُحَمَّدَ بْنَ المنْكَدِرِ وَكَانَ سَيِّدَ الْقُرَّاءِ، لَا يَكَادُ تَسْأَلُهُ عَنْ حَدِيثٍ أَبَدًا إِلَّا بَكَى حَتَّى تَرْحَمَهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَرَى جعفر بن محمد، وَكَانَ كَثِيرَ الدُّعَابَةِ وَالتَّبَسُّمِ فَإِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اصْفَرَّ وَمَا رَأَيْتُهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم إلا على طهارة، وَلَقَدِ اخْتَلَفْتُ

إِلَيْهِ زَمَانًا، فَمَـا كُنْتُ أَرَاهُ إِلَّا عَلَى ثَلَاثِ خِصَـالٍ، إِمَّا مُصَـلِّيًا وَإِمَّا صَـامِتًا، وَإِمَّا يَقْـرَأُ الْقُـرْآنَ، وَلَا يَتَكَلَّمُ فِيمَـا لَا يَعْنِيـهِ، وَكَـانَ مِنَ الْعُلَمَـاءِ وَالْعُبَّادِ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ.

وَلَقَدْ كَـانَ عَبْـدُ الـرَّحْمَنِ بْنُ الْقَاسِـمِ يَـذْكُرُ النَّبِيَّ صَلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ فَيُنْظَـرُ إِلَى لَوْنِـهِ كَأَنَّهُ نَزَفَ مِنْهُ الدَّمُ، وَقَدْ جَـفَّ لِسَـانُهُ فِي فَمِـهِ هَيْبَةً لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَلَقَدْ كُنْتُ آتِي عَامِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بن الزبير، فإذا ذكر عِنْدَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَكَى حَتَّى لَا تَبْقَى فِي عَيْنِهِ دُمُوعٌ.

وَلَقَـدْ رَأَيْتُ الزُّهْـرِيَّ وَكَـانَ مِنْ أَهْنَـإِ النَّاسِ وَأَقْرَبِهِمْ، فَإِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ النَّبِيُّ صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ فَكَأَنَّهُ مَا عَرَفَكَ وَلَا عَرَفْتَهُ.

وَلَقَدْ كُنْتُ آتِي صَفْوَانَ بْنَ سُلَيْمٍ، وَكَـانَ مِنَ المتَعَبِّدِينَ المجْتَهِدِينَ، فَإِذَا ذُكِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ بَكَى، فَلَا يَـزَالُ يَبْكِي حَتَّى يَقُـومَ النَّاسُ عَنْهُ وَيَتْرُكُوهُ.

وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَـمِعَ الحـدِيثَ أَخَذَهُ الْعَوِيلُ وَالزَّوِيلُ.

وَلَمَّا كَثُـرَ عَلَى مَالِـكٍ النَّاسُ قِيـلَ لَـهُ: لَـوْ جَعَلْتَ مُسْـتَمْلِيًا يُسْـمِعُهُمْ، فَقَـالَ: قَـالَ اللـه تعـالى: **(يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا لَا تَرْفَعُـوا أَصْوَاتَكُمْ فَـوْقَ صَـوْتِ النَّبِيِّ)** وَحُرْمَتُـهُ حَيًّا وَمَيِّتًا سَوَاءٌ.

وَكَانَ ابْنُ سِـيرِينَ ربمـا يضـحك، فـإذا ذكـر عنده حديث النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَشَعَ.

وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ إِذَا قَرَأَ حَدِيثَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَهُمْ بِالسُّكُوتِ، وَقَالَ: **(لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ)**، وَيَتَأَوَّلُ أَنَّهُ يَجِبُ لَهُ مِنَ الْإِنْصَاتِ عِنْدَ قِرَاءَةِ حَدِيثِهِ مَا يَجِبُ لَهُ عِنْدَ سَمَاعِ قوله. اهـ. بخ. وتغيير.

إذا عرفت هذا وتأملته وأمعنت النظر فيه كل الإمعان، عرفت ما عليه جهلة بعض أولاد الصالحين الجلامدة من العدوان، وذلك أنهم إذا سمعوا بعض الذاكرين والمصلين على النبي صلى الله عليه وسلم يذكرون الله ويصلون على النبي انقبضوا وأرسلوا ألسنتهم في سبهم وشتمهم ولعنهم والسعاية بهم لولاة الأمر والقضاة، والتشنيع والتشديد عليهم بما لا يفعله عبدة الأوثان الغلاة، وذلك شاهد على ضعف إيمانهم وتوهين نسبتهم، ومعاذ الله أن يتخلق بهذا الخلق السيء الفظيع، حديث عهد بالإسلام فضلا عن غيره فضلا عمن يزعم أنه من أبناء الصالحين، فضلا عمن يدعي ادلالية لرسول الله المشفع الشفيع. هذا والله عنوان على كذبه، وانتفاء نسبه، إذ اللائق الواجب على كامل الإيمان محبة الله ورسوله ومحبة من يذكره ويصلي على سيد ولد عدنان، وتقدم ما يشفي الغليل، وينعش العليل، قبل هذا من الفصول، فانظره تقف على صحة ما أقول، ولا زالوا على الانتقاد والطعن والتكفير وغير ذلك مما لا يصدر إلا من زنديق أو منافق أو ولد بغية

أو حملت به أمه في غير طهر حتى إنه لو استفتى في أحوالهم وأفعالهم عالم عامل لأجاب بارتدادهم أو زندقتهم السائل، نعوذ بالله مما اتصف به هؤلاء الأشرار، المفضي إلى سخط الجبار، والخلود في دار الخزي والبوار، مع الأشرار الفجرة الكفار. اهـ.

فصل
في ذكر سيرة السلف في تعظيم رواية حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته

روى المسعودي عن مسلم البطين عن عمرو بن ميمون قال: اخْتَلَفْتُ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنهُ سَنَةً فَمَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ: قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أَنَّهُ حَدَّثَ يَوْمًا فَجَرَى عَلَى لِسَانِهِ قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ثم عَلَاهُ كَرْبٌ حَتَّى رَأَيْتُ الْعَرَقَ يَتَحَدَّرُ عَنْ جَبْهَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَكَذَا إِنْ شَاءَ الله أو فوق ذَا أَوْ مَا دونَ ذَا أَوْ مَا قَرِيبٌ مِنْ ذَا.

وفي رواية: فتربد وجهه، وفي رواية: فقد تغرغرت عَيْنَاهُ وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ.

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ قُرَيْمٍ الْأَنْصَارِيُّ قَاضِي المدينة: مَرَّ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ عَلَى أَبِي حَازِمٍ وَهُوَ يُحَدِّثُ فَجَازَهُ وَقَالَ: إِنِّي لَمْ

أَجِدْ مَوْضِعًا أَجْلِسُ فِيهِ، فَكَرِهْتُ أَنْ آخُذَ حَـدِيثَ رَسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا قَائِمٌ.

وَقَالَ مَالِكٌ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ المسيب فَسَأَلَهُ عَنْ حَدِيثٍ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ، فَجَلَسَ وَحَدَّثَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: وَدِدْتُ أَنَّكَ لَمْ تَتَعَنَّ، فَقَالَ: إني كرهت أن أحدثك عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا مضطجع.

وَرُوِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ يَضْحَكُ فَإِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ حَدِيثُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَشَعَ.

وَقَالَ أَبُو مُصْعَبٍ: كَانَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ لَا يُحَدِّثُ بِحَدِيثِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا وَهُوَ عَلَى وُضُوءٍ إِجْلَالًا لَهُ.

وَحَكَى مَالِكٌ ذَلِكَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ.

وَقَالَ مصعب بن عبد الله: كَانَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ إِذَا حَدَّثَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَوَضَّأَ وَتَهَيَّأَ وَلَبِسَ ثِيَابَهُ ثُمَّ يُحَدِّثُ. قَالَ مُصْعَبٌ: فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: إِنَّهُ حَدِيثُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ مُطَرِّفٌ: كَانَ إِذَا أَتَى النَّاسَ مَالِكًا خَرَجَتْ إِلَيْهِمُ الجارِيَةُ فَتَقُولُ لَهُمْ: يَقُولُ لَكُمُ الشَّيْخُ: تُرِيدُونَ الْحَدِيثَ أَوِ المسَائِلَ؟ فَإِنْ قَالُوا المسائِلَ خَرَجَ إِلَيْهِمْ، وإن قالوا الحديث دخل مغتسله وَاغْتَسَلَ وَتَطَيَّبَ، وَلَبِسَ ثِيَابًا جُدُدًا، وَلَبِسَ سَاجَهُ، وتعمَّم، ووضع على رأسه رداءه، وَتُلْقَى لَهُ مِنَصَّةٌ فَيَخْرُجُ فَيَجْلِسُ عَلَيْهَا وَعَلَيْهِ

الخشوع، ولا يزال يتبخر بِالْعُودِ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ غَيْرُهُ: وَلَمْ يَكُنْ يَجْلِسُ عَلَى تِلْكَ المنَصَّةِ إِلَّا إِذَا حَدَّثَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ ابْنُ أَبِي أُوَيْسٍ: فَقِيلَ لِمَالِكٍ في ذلك، فقال: أُحِبُّ أَنْ أُعَظِّمَ حَدِيثَ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا أُحَدِّثُ بِهِ إِلَّا على طَهَارَةٍ مُتَمَكِّنًا.

قال: وَكَانَ يَكْرَهُ أَنْ يُحَدِّثَ فِي الطَّرِيقِ أَوْ وَهُوَ قَائِمٌ أَوْ مُسْتَعْجِلٌ، وَقَالَ: أُحِبُّ أَنْ أُفْهِمَ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ ضِرَارُ بْنُ مرة: كانوا يكرهون أن يحدثوا على غير وضوء. وَنَحْوَهُ عَنْ قَتَادَةَ.

وَكَانَ الْأَعْمَشُ إِذَا أحبَّ أَنْ حَدَّثَ وَهُوَ عَلَى غَيْرِ وُضُوءٍ تَيَمَّمَ.

وكان قتادة لا يحدث إلا على طهارة، ولا يقرأ حديث النبي صلى الله عليه وسلم إلا على وضوء.

قال عبد الله بن المبارك: كُنْتُ عِنْدَ مَالِكٍ وَهُوَ يحدثنا فلدغته عَقْرَبٌ سِتَّ عَشْرَةَ مَرَّةً وَهُوَ يَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ وَيَصْفَرُّ، وَلَا يَقْطَعُ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ المجلسِ وتفرق الناس عنه قلت له: يا أبا عبد الله، لقد رأيت منك اليوم عجبا، قال: إنما صَبَرْتُ إِجْلَالًا لحديثِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَـالَ ابْنُ مَهْـدِيٍّ: مَشَـيْتُ يَوْمًـا مَـعَ مَالِكٍ رحمـه اللـه إِلَى الْعَقِيـقِ، فَسَـأَلْتُهُ عَنْ حَـدِيثٍ فَانْتَهَرَنِي وَقَالَ لِي: كُنْتَ فِي عَيْنِي أَجَـلَّ مِنْ أَنْ تَسْأَلَ عَنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللـهِ صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَمْشِي.

وَسَأَلَهُ جَرِيـرُ بْنُ عَبْدِ الحميـدِ الْقَاضِـي عَنْ حَدِيثٍ وهو قـائم، فَـأَمَرَ بِحَبْسِـهِ، فَقِيـلَ لَـهُ. إِنَّهُ قَاضٍ، قَالَ: الْقَاضِي أَحَقُّ مَنْ أُدِّبَ.

وَذَكَرَ أَنَّ هِشَامَ بْنَ الْغَازِي سَـأَلَ مَالِكًـا عَنْ حَدِيثٍ وَهُوَ وَاقِـفٌ فَضَـرَبَهُ عِشْـرِينَ سَـوْطًا، ثُمَّ أَشْفَقَ عَلَيْهِ فَحَدَّثَهُ عِشْرِينَ حَدِيثًا، فَقَالَ هِشَامٌ: وَدِدْتُ لَوْ زَادَنِي سِيَاطًا وَيَزِيدُنِي حَدِيثًا.

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ صَالِحٍ: كَانَ مَالِكٌ وَاللَّيْثُ لَا يَكْتُبَانِ الحديث إِلَّا وَهُمَا طَاهِرَانِ.

وَكَـانَ قَتَـادَةُ يَسْـتَحِبُّ أن لَا تُقْـرَأَ أَحَـادِيثَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا على وضـوء، وَلَا يُحَدِّثُ إِلَّا عَلَى طَهَـارَةٍ. اهـ. بخ. منـه أيضـا مـع تغيير.

قلت: وإذا كـــان هـــذا الأدب والإجلال من السـلف لحـديث رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم، وإملائه، فمـا بالـك بالصـلاة عليـه وعلى آلـه وأصـحابه الـتي يكـره أهـل الغي سـماعها، وينهون عنها، ويبغضون من ثابر عليهـا، مـا ذاك إلا طـرد وخسـران وإبعـاد، وشـقاوة وحرمـان وعنوان على سوء الخاتمـة وابتـداع سـلامة من أصـر على ذلـك من أبعـد البعيـد بئس مثـواه وبئس المهاد.

فصل

في ذكر ما جاء في أن من تَوْقِيرِهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِرِّهِ بِرُّ آلِهِ وَذُرِّيَّتِهِ وَأُمَّهَاتِ الـمؤْمِنِين أَزْوَاجِـهِ رضوان الله عليهم كَمَا حَضَّ عَلَيْهِ عليه السلام وَسَلَكَهُ السَّلَفُ الصَّالِحُ رضي الله عنهم

قَالَ الله تعالى: **(إِنَّما يُرِيدُ اللـهُ لِيُـذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ)** الاية.

وقال تعالى: **(وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ).**

عن زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قـال: **«أُنْشُدُكُمُ اللـهَ فِي أَهْـلِ بَيْتِي»** ثَلَاثًا، قُلْنَا لِزَيْدٍ: مَنْ أَهْلُ بَيْتِـهِ؟ قَـالَ: آلُ عَلِيٍّ، وَآلُ جَعْفَـــرٍ، وَآلُ عَقِيـــلٍ، وَآلُ الْعَبَّاسِ، رضي الله عن جميعهم.

وقال عليه السلام: **«إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَـا إِنْ أَخَـذْتُمْ بِـهِ لَمْ تَضِـلُّوا: كِتَـابَ اللـهِ وَعِتْـرَتِي أَهْـلَ بَيْتِي، فَـانْظُرُوا كَيْـفَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا».**

وقال صلى الله عليه وسلم: **«مَعْرِفَـةُ آلِ مُحَمَّدٍ بَـــرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ، وَحُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ جَوَازٌ عَلَى الصِّـرَاطِ، والولايـةُ لِآلِ مُحَمَّدٍ أَمَانٌ مِنَ العَذَابِ».**

قال بعض العلماء: مَعْرِفَتُهُمْ هِيَ مَعْرِفَةُ مَكَانِهِمْ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِذَا عَرَفَهُمْ بِذَلِكَ عَرَفَ وُجُوبَ حَقِّهِمْ وَحُرْمَتِهِمْ بِسَبَبِهِ.

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ: لَمَّا نَزَلَتْ **(إنما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ)** الآية، وَذَلِكَ فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ، دَعَا فَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا فَجَلَّلَهُمْ بِكِسَاءٍ وَعَلِيٌّ خَلَفَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي، فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا**».

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أبي وقاص: لما نزلت آية المباهلة دَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا وَفَاطِمَةَ، وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي**».

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ**».

وَقَالَ فِيهِ: «**لَا يُحِبُّكَ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا يَبْغَضُكَ إِلَّا مُنَافِقٌ**».

وقال للعباس رضي الله عنه: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَدْخُلُ قَلْبَ رَجُلٍ الْإِيمَانُ حَتَّى يُحِبَّكُمْ للهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ آذَى عَمِّي فَقَدْ آذَانِي وَإِنَّمَا عَمُّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ**».

وقال للعباس رضي الله عنه: «**اغْدُ عَلَيَّ يَا عَمِّ مَعَ وَلَدِكَ**»، فَجَمَعَهُمْ وجلّلهم بملاءته، فقال: «**هذا عَمِّي وَصِنْوُ أَبِي، وَهَؤُلَاءِ**

أَهْلُ بَيْتِي، فَاسْتُرْهُمْ مِنَ النَّارِ كَسَتْرِي إِيَّاهُمْ»، فَأَمَّنَتْ أَسْكُفَّةُ الْبَابِ وَحَوَائِطُ الْبَيْتِ أمين آمين.

وكان يأخذ بيد أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَالحسَنَ وَيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا**».

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ارْقُبُوا مُحَمَّدًا فِي أَهْلِ بَيْتِهِ».

وَقَالَ أَيْضًا: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَرَابَةُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي».

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم: «**أَحَبَّ اللهُ مَنْ أَحَبَّ حَسَنًا وَحُسَيْنًا**».

وقال: «**مَنْ أَحَبَّنِي وَأَحَبَّ هَذَيْنِ -وَأَشَارَ إِلَى حَسَنٍ وَحُسَيْنٍ- وَأَبَاهُمَا وَأُمَّهُمَا كَانَ مَعِي فِي دَرَجَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَهَانَ قُرَيْشًا أَهَانَهُ اللهُ**».

وَقَالَ: «**قَدِّمُوا قُرَيْشًا وَلَا تَقَدَّمُوهَا**».

وقال عليه السلام لأم سلمة: «**لَا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ**».

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ: رَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللهِ عَنْهُ وَجَعَلَ الحسَنَ عَلَى عُنُقِهِ وَهُوَ يَقُولُ: بِأَبِي شَبِيهٌ بِالنَّبِي لَيْسَ شَبِيهًا بِعَلِي، وَعَلِيٌّ يضحك.

وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَسَنٍ قَالَ: أَتَيْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ في حاجة، فقال لي: إذا

كــان لَـكَ حَاجَــةٌ فَأَرْسِــلْ إِلَيَّ أَوِ اكْتُبْ فَــإِنِّي أستحي مِنَ اللهِ أَنْ يَرَاكَ عَلَى بَابِي.

وَعَنِ الشَّـعْبِيِّ: صَـلَّى زَيْـدُ بْنُ ثَـابِتٍ عَلَى جِنَازَةِ أُمِّهِ ثُمَّ قُرِّبَتْ لَهُ بَغْلَتُهُ لِيَرْكَبَهَـا فَجَـاءَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَخَذَ بِرِكَابِهِ، فَقَالَ زَيْدٌ: خلّ عنك يـا ابن عم رسول اللـه، فَقَـالَ: هَكَـذَا نَفْعَـلُ بِالْعُلَمَـاءِ، فَقَبَّلَ زَيْدٌ يَـدَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَـالَ: هَكَـذَا أُمِرْنَـا أَنْ نَفْعَلَ بِأهل بيت نبينا.

وَرَأَى ابْنُ عُمَـرَ مُحَمَّدَ بْنَ أُسَــامَةَ بْنِ زَيْـدٍ فَقَالَ: لَيْتَ هَذَا عَبْدِي، فَقِيـلَ لَـهُ: هُـوَ مُحَمَّدُ بْنُ أُسَــامَةَ، فَطَأْطَـأَ ابْنُ عُمَـرَ رَأْسَــهُ وَنَقَـرَ بِيَـدِهِ الْأَرْضَ وَقَالَ: لَوْ رَآهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَأَحَبَّهُ.

وَقَـالَ الْأَوْزَاعِيُّ دَخَلَتْ بِنْتُ أُسَـامَةَ بْنِ زَيْـدٍ صَاحِبِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رحمه الله وَمَعَهَا مَوْلًى لَهَــا يُمْسِكُ بِيَدِهَا، فَقَامَ لَهَا عُمَرُ وَمَشَـى إليهـا حـتى جعل يدها بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَدَاهُ فِي ثِيَابِهِ، وَمَشَـى بِهَـا حَتَّى أَجْلَسَـهَا عَلَى مَجْلِسِـهِ، وَجَلَسَ بَيْنَ يَـدَيْهَا وما ترك لها حاجة إلا قضاها.

وَلَمَّا فَـرَضَ عُمَـرُ بْنُ الخطَّابِ رضـي اللـه عنه لِابْنِهِ عَبْدِ اللـه فِي ثَلَاثَـةِ آلَافٍ وَلِأُسَامَةَ بْنِ زَيْـدٍ في ثلاثـة آلاف وخمسمئة، قَـالَ عَبْـدُ اللـه لِأَبِيهِ: لِمَ فَضَّلْتَهُ؟ فَوَاللهِ مَا سَبَقَنِي إِلَى مَشْـهَدٍ، فَقَالَ لَهُ: لِأَنَّ زَيْـدًا كَـانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُـولِ اللـهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ مِنْ أَبِيـكَ، وَأُسَـامَةَ أَحَبُّ

إِلَيْهِ مِنْكَ، فَآثَرْتُ حُبَّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حُبِّي.

وَبَلَغَ مُعَاوِيَةَ أَنَّ كَابِسَ بْنَ رَبِيعَةَ يُشَبَّهُ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ مِنْ بَابِ الدَّارِ قَامَ عَنْ سَرِيرِهِ وَتَلَقَّاهُ وقبّل بين عينيه وأقطعه المرغاب لِشَبَهِهِ صُورَةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَرُوِيَ أَنَّ مَالِكًا رضي الله عنه لما ضَرَبَهُ جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، وَنَالَ مِنْهُ مَا نَالَ، وَحُمِلَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، دَخَلَ عَلَيْهِ النَّاسُ فَأَفَاقَ فَقَالَ: أُشْهِدُكُمْ أَنِّي جَعَلْتُ ضَارِبِي فِي حِلٍّ. فَسُئِلَ بَعْدَ ذَلِكَ فَقَالَ: خِفْتُ أَنْ أَمُوتَ فَأَلْقَى النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْتَحِي مِنْهُ أَنْ يَدْخُلَ بَعْضُ آلِهِ النَّارَ بِسَبَبِي.

وَقِيلَ: إِنَّ المنصُورَ أَقَادَهُ مِنْ جَعْفَرٍ فَقَالَ لَهُ: أَعُوذُ بِالله، وَاللهِ مَا ارْتَفَعَ مِنْهَا سَوْطٌ عَنْ جِسْمِي إِلَّا وَقَدْ جَعَلْتُهُ فِي حِلٍّ لِقَرَابَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ: لو أتاني أبو بكر وَعُمَرُ وَعَلِيٌّ رضي الله عنهم لَبَدَأْتُ بِحَاجَةِ عَلِيٍّ قَبْلَهُمَا لِقَرَابَتِهِ مِنْ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ولئن أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ أَحَبُّ إِلَيَّ من أن أقدمهما عليه.

وَقِيلَ لِابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: مَاتَتْ فُلَانَةُ -لِبَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَسَجَدَ فَقِيلَ لَهُ: أَتَسْجُدُ هَذِهِ السَّاعَةَ؟ فَقَالَ: أَلَيْسَ قَالَ رسول الله صلى الله عليه

وسلم: «**إِذَا رَأَيْتُمْ آيَةً فَاسْجُدُوا**»؟ وَأَيُّ آيَةٍ أَعْظَمُ مِنْ ذَهَابِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟.

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رضي الله عنهما يَزُورَانِ أُمَّ أَيْمَنَ مَوْلَاةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَقُولَانِ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يزورها.

وَلَمَّا وَرَدَتْ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَسَطَ لَهَا رِدَاءَهُ وَقَضَى حَاجَتَهَا، فَلَمَّا تُوُفِّيَ وَفَدَتْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وعمر رضي الله عنهما فصنعا بها مثل ذلك. اهـ. به منه أيضا كذلك.

قلتُ: وهذا عام أريد به العموم، والله أعلم خلاف ما فهمه من لا مسيس له بالمرتبة من الضُّلّال والعجم، وحمله على غير ظاهره جهل، وتخصيصه خرق وخروج عن الأصل.

فصل مناسب لما قبله

اعلم أن من توقيره وبره عليه السلام أيضا، توقير أصحابه وبرهم، ومعرفة حقهم، والاقتداء بهم، وحسن الثناء عليهم، والاستغفار لهم، والإمساك عما شجر بينهم، ومعاداة من عاداهم، والإضراب عن أخبار المؤرخين، وجهلة الرواة، وضلال الشيعة والمبتدعين القادحة في

أحد منهم، وأن يلتمس لهم فيما نقـل عنهم من مثـل ذلـك فيمـا كـان بينهم من الفتن أحسـن التأويلات، أو يخرج لهم أصـوب المخـارج، إذهم أهل ذلك. ولا يذكر أحد منهم بسـوء، ولا يغمص عليه أمر، بل تذكر حسناتهم وفضـائلهم وحميـد سيرهم، ويسكت عما وراء ذلك، كما قال صلى اللـه عليـه وسـلم: «**إِذَا ذُكِـرَ أَصْـحَابِي فَأَمْسِكُوا**».

قـال اللـه تعـالى: (**مُحَمَّدٌ رَسُـولُ اللـهِ وَالَّذِينَ مَعَـهُ أَشِـدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمـاءُ بَيْنَهُمْ**) إلى آخر السورة.

وقـال: (**وَالسَّـابِقُونَ الْأَوَّلُـونَ مِنَ الْـمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ**) الآية.

وقال: (**لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْـمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**).

وقال: (**رِجالٌ صَدَقُوا مَـا عاهَـدُوا اللـهَ عَلَيْهِ**) الآية.

عن حذيفة أن رسول الله صلى اللـه عليـه وسلم قال: «**اقْتَدُوا بِالَّذَيْنِ مِنْ بَعْـدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ**» رضي الله عنهما.

وَقَـالَ: «**أَصْـحَابِي كَـالنُّجُومِ بِـأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ**».

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ: «**مَثَـلُ أَصْـحَابِي مَثَـلُ الْمِلْحِ فِي الطَّعَامِ لَا يَصْلُحُ الطَّعَامُ إِلَّا بِهِ**».

وَقَـالَ عليـه السـلام: «**اللـهَ اللـهَ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْـدِي، فَمَنْ**

أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللهَ، وَمَنْ آذَى اللهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ».

وقال عليه السلام: **«لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ».**

وَقَالَ: **«مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا».**

وقال عليه السلام : **«إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا».**

وَقَالَ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ: **«إِنَّ اللهَ اخْتَارَ أَصْحَابِي عَلَى جَمِيعِ الْعَالَمِينَ سِوَى النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، وَاخْتَارَ لِي مِنْهُمْ أَرْبَعَةً: أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَعَلِيًّا، فَجَعَلَهُمْ خَيْرَ أَصْحَابِي، وَفِي أَصْحَابِي كُلِّهِمْ خَيْرٌ».**

وَقَالَ: **«مَنْ أَحَبَّ عُمَرَ فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَبْغَضَ عُمَرَ فَقَدْ أَبْغَضَنِي».**

وَقَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ وَغَيْرُهُ: مَنْ أَبْغَضَ الصَّحَابَةَ وَسَبَّهُمْ فَلَيْسَ لَهُ فِي فَيْءِ الْمُسْلِمِينَ حَقٌّ وَنَزَعَ بِآيَةِ الْحَشْرِ: **(وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ)** الْآيَةَ.

وَقَالَ: مَنْ غَاظَهُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ فَهُوَ كَافِرٌ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: **(لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ).**

وقال عبد الله بن المبارك: خصلتان من كَانَتَا فِيه نَجَا: الصّدْق، وَحُبُّ أصْحَاب مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم.

قال أيُّوب السَّخْتِيَانِي: من أحَبَّ أَبَا بَكْرٍ فَقَدَ أقام الدين، ومن أحَبَّ عُمَر فَقَد أوْضَح السَّبِيل، ومن أحَبَّ عُثْمَان فَقَد اسْتَضَاء بِنُور الله، ومن أَحَبَّ عَلِيًّا فَقَد أخَذ بِالْعُرْوَة الْوُثْقَى، ومن أحْسَن الثَّنَاء عَلَى أصْحَاب مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم فَقَد بَرِئ من النفاق، ومن انْتَقَص أحَدًا منهم فَهُو مُبْتَدع مُخَالِف لِلسُّنَّة وَالسَّلف الصَّالِح وأخاف أن لا يصعد له عمل إلى السماء حتى يحبهم جميعا ويكون قلبه لهم سليما.

وفي حديث خالد بن سعيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَاضٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ فَاعْرِفُوا لَهُ ذَلِكَ، أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لأَهْلِ بَدْرٍ وَالْحُدَيْبِيَةَ، أَيُّهَا النَّاسُ احْفَظُونِي فِي أَصْحَابِي، وَأَصْهَارِي، وَأَخْتَانِي، لَا يُطَالِبَنَّكُمْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِمَظْلَمَةٍ فَإِنَّهَا مَظْلَمَةٌ لَا تُوهَبُ فِي الْقِيَامَةِ غَدًا**».

وقال رجل للمعافى بن عمران: أَيْنَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مِنْ مُعَاوِيَةَ؟ فَغَضِبَ وَقَالَ: لَا يُقَاسُ بِأَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَحَدٌ، مُعَاوِيَةُ صَاحِبُهُ وَصِهْرُهُ وَكَاتِبُهُ وَأَمِينُهُ عَلَى وَحْيِ اللهِ.

وأتي النبي صلى الله عليه وسلم بجنازة رجل فلم يصل عليه وقال: **«كَانَ يُبْغِضُ عُثْمَانَ فَأَبْغَضَهُ اللهُ».**

وَقَالَ صلى الله عليه وسلم فِي الْأَنْصَارِ: **«اعْفُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ، وَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ».**

وَقَالَ: **«احْفَظُونِي فِي أَصْحَابِي وَأَصْهَارِي، فَإِنَّهُ مَنْ حَفِظَنِي فِيهِمْ حَفِظَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ لَمْ يَحْفَظْنِي فِيهِمْ تَخَلَّى اللهُ مِنْهُ، وَمَنْ تَخَلَّى اللهُ مِنْهُ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ».**

وعنه عليه السلام: **«مَنْ حَفِظَنِي فِي أَصْحَابِي كُنْتُ لَهُ حَافِظًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».**

وَقَالَ: **«مَنْ حَفِظَنِي فِي أَصْحَابِي وَرَدَ عَلَيَّ الْحَوْضَ، وَمَنْ لَمْ يَحْفَظْنِي فِي أَصْحَابِي لَمْ يَرِدْ عَلَيَّ الْحَوْضَ وَلَمْ يَرَنِي إِلَّا مِنْ بَعِيدٍ».**

قال مالك رحمه الله: هَذَا النبي صلى الله عليه وسلم مؤدب الخلق الَّذِي هَدَانَا اللهُ بِهِ وَجَعَلَهُ رَحمَة لِلْعَالَمِين يَخْرُجُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ إِلَى الْبَقيع فَيَدْعُو لهم، وَيَسْتَغْفِرُ لهم كَالْمُوَدِّعِ لَهم، وَبِذَلِكَ أَمَرَهُ الله تعالى، وَأَمَرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِحُبِّهِمْ وَمُوَالَاتِهِمْ، وَمُعَادَاةِ مَنْ عَادَاهُمْ.

وَرُوِيَ عَنْ كَعْبٍ رضي الله عنه: لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ عليه السلام إِلَّا لَهُ شَفَاعَةٌ

يَـوْمَ القيامـة. وَطَلَبَ مِنَ المغِـيرَةِ بْنِ نَوْفَـلٍ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

اهـ. به منه كذلك أيضـا. وسـيق لإغـراء من وفقه الله على التأسي بهم في مآثرهم، عسـى أن ينخـرط في سـلكهم. وفيـه من النصـيحة والفائدة ما لا يخفى، وفق الله جميعنا لما يحبـه ويرضاه بجاه نبيه المصطفى، آمين.

فصل

اعلم أن الله تبارك وتعـالى قـد أعلم خلقـه بصلاته عليه وولايته لـه، ودفعـه العـذاب بسـببه صلى الله عليه وسلم.

فقـال جـل من قائـل: (**وَمَـا كَـانَ اللـهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ**)، أي ما كنت بمكة.

فلما خرج النبي صلى الله عليـه وسـلم من مكـة وبقي فيهـا من بقي من المؤمـنين نـزل: (**وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**). وهذا مثـل قولـه تعـالى: **(لَوْ تَزَيَّلُـوا لَعَـذَّبْنَا)** الآية، وقوله: (**وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ**) الآية.

فلما هاجر المؤمنون نزلت: (**وَمَا لَـهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ**).

وهذا من أبين ما يظهـر مكانتـه صـلى اللـه عليـه وسـلم، ودرأ بـه العـذاب عن أهـل مكـة بسـبب كونـه، ثم كـون أصـحابه بعـده بين أظهرهم، فلما خلت مكة منهم عذبهم بتسـليط

المؤمـــنين عليهم، وغلبتهم إيـــاهم، وحكَّم فيهم سيوفهم، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم.

وفي الآية أيضا تأويـل آخـر: عن أبي بريـدة بن أبي موســى عن أبيـه رضـي اللـه عنـه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**أَنْـزَلَ اللهُ عَلَيَّ أَمَانَيْنِ لِأُمَّتِي: (وَمـا كـانَ اللهُ لِيُعَـذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ، وَمـا كـانَ اللـهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)، فَـإِذَا مَضَـيْتُ تَرَكْتُ فِيكُمُ الِاسْتِغْفَارَ**».

ونحو منه قوله تعالى: (**وَمَا أَرْسَـلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**).

وقال صلى اللـه عليـه وسـلم: «**أَنَا أَمَـانٌ لِأَصْـحَابِي**». قيـــل: من البـــدع، وقيـــل: من الاختلاف والفتن.

قـال بعضـهم: الرسـول صـلى اللـه عليـه وسلم هو الأمان الأعظم مـا عـاش، ومـا دامت سنته باقية فهو باق، فإذا أميتت سنته فانتظروا البلاء والفتن.

وقـال اللـه تعـالى: (**إِنَّ اللـهَ وَمَلَائِكَتَـهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ**) الآيـة. أبـان اللـه تعـالى فضل نبيه صلى الله عليه وسـلم بصـلاته عليـه، ثم بصلاة ملائكته، وأمر عباده بالصلاة والتسليم عليه.

وقـــد حكى أبـــو بكـــر بن فـــورك: أن بعض العلمـاء تـأول قولـه عليـه السـلام: «**وَجُعِلَتْ قُـرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّـلَاةِ**» على هـذا، أي في

صلاة الله تعالى علي، وملائكته، وأمره الأمة بذلك إلى يوم القيامة.

والصلاة منا ومن الملائكة له دعاء، ومن الله تعالى رحمة.

وقيل: (**يُصَلُّونَ**) يباركون، وقد فرق النبي صلى الله عليه وسلم حين علم الصلاة عليه بين لفظ الصلاة والبركة.

وذكر بعض المتكلمين في تفسير حروف **(كهيعص):**

-أَنَّ «الْكَافَ» مِنْ كَافٍ، أي كفاية الله لنبيه عليه السلام، قال تعالى: (**أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**).

-«وَالْهَاءَ» هِدَايَتُهُ لَهُ، قَالَ تعالى: **(وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)**.

-«والياء» تأييده له، قال تعالى: (**أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ**).

-«وَالْعَيْنَ» عِصْمَتُهُ لَهُ، قَالَ تعالى: **(وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ).**

-«وَالصَّادَ» صَلَاتُهُ عَلَيْهِ، قَالَ تعالى: **(إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ)**، صلى الله عليه وسلم.

وَقَالَ تَعَالَى: **(وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ)** الآية، **مَوْلاهُ** أيْ وَلِيُّهُ. **(وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ)** قِيلَ: الْأَنْبِيَاءُ، وَقِيلَ: الملَائِكَةُ عليهم السلام، وَقِيلَ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَقِيلَ: علي، وقيل: المؤمنون على ظاهره. اهـ. منه كذلك.

وإذا فهمت هــذا، وأمعنت النظــر فيــه وحققته، علمت أن من خالف ما أمر الله به عباده من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عرَّض لمقت الله نفسه، نسأل الله السلامة، في الدين والدنيا والآخرة.

فصل
في حكم الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم والتسليم عليه كذلك، وفرض ذلك، وفضيلته.

قال الله تعالى: (**إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ**) الآية، قال ابن عباس رضي الله عنه: مَعْنَاهُ: إِنَّ الله وملائكته يباركون على النبي. وقيل: إِنَّ اللهَ يَتَرَحَّمُ عَلَى النَّبِيِّ، وَمَلَائِكَتَهُ يَدْعُونَ لَهُ.

قال المبرد: وَأَصْلُ الصَّلَاةِ التَّرَحُّمُ، فَهِيَ مِنَ اللهِ رَحْمَةٌ وَمِنَ الْمَلَائِكَةِ رِقَّةٌ وَاسْتِدْعَاءٌ لِلرَّحْمَةِ مِنَ اللهِ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي الحدِيثِ صِفَةُ صَلَاةِ الْمَلَائِكَةِ عَلَى مَنْ جَلَسَ يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ**» فَهَذَا دعاء.

وقال أبو بكر القشيري: الصَّلَاةُ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِمَنْ دُونَ النَّبِيِّ رَحْمَةٌ، وَلِلنَّبِيِّ تَشْرِيفٌ وَزِيَادَةُ تَكْرِمَةٍ.
وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: صَلَاةُ اللهِ ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ الملَائِكَةِ، وَصَلَاةُ الملَائِكَةِ الدُّعَاءُ.
قَالَ أَبُو الْفَضْلِ رضي الله عنه: وَقَدْ فَرَّقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ تعليم الصلاة عليه بَيْنَ لَفْظِ الصَّلَاةِ وَلَفْظِ الْبَرَكَةِ، فَدَلَّ أَنَّهُمَا بِمَعْنَيَيْنِ.
وَأَمَّا التَّسْلِيمُ الَّذِي أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ عِبَادَهُ:
فَقَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ بُكَيْرٍ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَرَ اللهُ أَصْحَابَهُ أَنْ يُسَلِّمُوا عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ مَنْ بَعْدَهُمْ أُمِرُوا أَنْ يُسَلِّمُوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ حُضُورِهِمْ قَبْرَهُ وَعِنْدَ ذِكْرِهِ.
وَفِي مَعْنَى السَّلَام عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ أوجه:
أَحَدُهَا: السَّلَامَةُ لَكَ ومعك، وتكون السلامة مصدرا كاللذاذ واللذاذة.
الثاني: أي السلام على حفظك ورعايتك متول له وكفيل به، ويكون هنا السلام اسم الله.
الثالث: أن السلام بمعنى المسالمة له والانقياد، كما قال: (**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**). اهـ. منه كذلك، وفيه

الترياق والشفاء، من أدران قلـوب المحجـوبين والدواء.

فصل

في الإعلام بأن الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، وكذا التسليم، فرض على الجملة غير محدد بوقت، لأمر الله تعالى بالصلاة عليه، وحمل الأئمة والعلماء له على الوجوب، وأجمعوا عليه.

وحكى أبو جعفـر الطـبري أن محمـل الآيـة عنده على النـدب، وادَّعى فيـه الإجمـاع، ولعلـه فيما زاد على مرة.

والواجب منه الذي يسقط به الحرج، ومأثم ترك الفرض مرة، كالشهادة له بالنبوة، وما عدا ذلك فمنـدوب مـرغَّب فيـه من سـنن الإسـلام، وشعار أهله.

قــال القاضــي أبــو الحســن بن القصــار: المشــهور عن أصــحابنا أن ذلــك واجب في الجملة على الإنسان، وفرض عليه أن يـأتي بهـا مرة من دهره مع القدرة على ذلك.

وقال القاضي أبو بكر بن بكير: افترض الله على خلقه أن يصلُّوا على نبيه صـلى اللـه عليـه وسلم ويسلموا تسليما، ولم يجعل ذلـك لـوقت

معلوم. فالواجب أن يكثر المرء منها، ولا يغفل عنها.

قال القاضي أبو محمد بن نصر: الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم واجبة في الجملة.

قال القاضي أبو عبد الله محمد بن سعيد: ذهب مالك وأصحابه وغيرهم من أهل العلم أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فرض بالجملة بعقد الإيمان، لا يتعين في الصلاة، وأن من صلى عليه مرة واحدة من عمره سقط الفرض عنه.

وقال أصحاب الشافعي: الفرض منها الذي أمر الله به رسوله صلى الله عليه وسلم هو في الصلاة. قالوا: وأما في غيرها، فلا خلاف أنها غير واجبة.

وأما في الصلاة فحكى الإمامان أبو جعفر الطبري والطحاوي وغيرهما إجماع جميع المتقدمين والمتأخرين من علماء الأمة على أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في التشهد غير واجبة.

وشذ الشافعي في ذلك فقال: من لم يصل على النبي صلى الله عليه وسلم من بعد التشهد الأخير وقبل السلام فصلاته فاسدة، وإن صلى عليه قبل ذلك لم يجزه. ولا سلف له في هذا القول، ولا سنة يتبعها، وقد بالغ في إنكار هذه المسألة عليه لمخالفته فيها من

تقدمه جماعة وشنعوا عليه الخلاف فيها، منهم الطبري والقشيري وغير واحد.

وقال أبو بكر بن المنذر: يستحب أن لا يصلي أحد صلاة إلا صلى فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن ترك ذلك تارك فصلاته مجزئة في مذهب مالك وأهل المدينة، وسفيان الثوري، وأهل الكوفة من أصحاب الرأي، وغيرهم، وهو قول جمل أهل العلم.

وحكي عن مالك وسفيان أنها في التشهد الأخير مستحبة، وأن تاركها في التشهد مسيء. وشذ الشافعي فأوجب على تاركها في الصلاة الإعادة.

وأوجب إسحق الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان.

وحكى أبو محمد بن أبي زيد عن محمد بن المواز أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فريضة. قال أبو محمد: يريد ليست من فرائض الصلاة. وقاله محمد بن عبد الحكم وغيره.

وحكى ابن القصار وعبد الوهاب أن محمد بن المواز يراها فريضة في الصلاة كقول الشافعي.

وقد خالف الخطابي من أصحاب الشافعي وغيره، الشافعي في هذه المسألة. قال الخطابي: وليست بواجبة في الصلاة، وهو قول جماعة الفقهاء إلا الشافعي، ولا أعلم له فيها قدوة. والدليل على أنها ليست من فروض

الصلاة عمل السلف الصالح قبل الشافعي وإجماعهم عليه، وقد شنع الناس عليه هذه المسألة جدا، وهذا تشهد ابن مسعود رضي الله عنه الذي اختاره الشافعي وهو الذي علمه له النبي عليه السلام ليس فيه الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك كل من روى التشهد عن النبي صلى الله عليه وسلم كأبي هريرة وابن عباس وجابر وابن عمر وأبي سعيد الخدري وأبي موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير لم يذكروا فيه صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. وقد قال ابن عباس وجابر: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا التَّشَهُّدَ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، ونحوه عن أبي سعيد.

وقال ابن عمر: كَانَ أَبُو بَكْرٍ يُعَلِّمُنَا التَّشَهُّدَ عَلَى المنبرِ كَمَا تُعَلِّمُونَ الصِّبْيَانَ فِي الْكُتَّابِ، وعلمه أيضاً على المنبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وفي الحديث: «**لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ**»، قال ابن القصار معناه كاملة، أو لمن لم يُصَلِّ عليَّ مرة في عمره. وضعَّف أهل الحديث رواة هذا الحديث كلهم.

وفي حديث أبي جعفر عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ صَلَّى صَلَاةً وَلَمْ يُصَلِّ فِيهَا عَلَيَّ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ**». قال الدارقطني: الصواب أنه من قول أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين: لَوْ

صَلَّيْتُ صَلَاةً لَمْ أُصَلِّ فِيهَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ لَرَأَيْتُ أَنَّهَا لَا تَتِمُّ. اهـ. بخ. منه كذلك. وفيه ترهيب للغافل، وترغيب للعاقل.

فصل
في ذكر فضيلة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والتسليم عليه، والدعاء له.

عن عبد الرحمن بن جبير مولى نافع أنه سمع عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مَرَّةً وَاحِدَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا لِيَ الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ**».

وَرَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وَحَطَّ عَنْهُ عَشْرَ خَطِيئَاتٍ، وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**وَكَتَبَ لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ**».

وعن أنس عنه عليه السلام: «**أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَانِي فَقَالَ: مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا، وَرَفَعَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ**».

ومن رواية عبد الرحمن بن عوف عنه عليه السلام: «**لَقِيتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ لِي: إِنِّي أُبَشِّرُكَ أَنَّ اللهَ يَقُولُ: مَنْ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْكَ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ**». وَنَحْوَهُ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَمَالِكِ بْنِ أَوْسِ بْنِ الْحَدَثَانِ وَعُبَيْدِ اللهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ.

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ الْحُبَابِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَنْ قَالَ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَنْزِلْهُ الْمَنْزِلَ الْمُقَرَّبَ عِنْدَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي**».

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «**أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً**».

وَعَن أبَيّ بن كَعْب: كَان رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّم إذَا ذَهَب رُبُعُ اللَّيْلِ قَامَ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّهَ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ**»، فَقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ، فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟ قال: «**مَا شِئْتَ**»، قَالَ: الرُّبُعَ؟ قَالَ: «**مَا شِئْتَ وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ**»، (قَالَ: الثُّلُثَ؟ قَالَ: «**مَا شِئْتَ وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ**»)،

قَالَ: النِّصْفَ؟ قَالَ: «**مَا شِئْتَ وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ**»، قَالَ: الثُّلُثَيْنِ؟ قَالَ: «**مَا شِئْتَ وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ**»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَجْعَلُ صَلَاتِي كُلَّهَا لَكَ؟ قَالَ: «**إِذًا تُكْفَى هَمُّكَ وَيُغْفَرُ ذَنْبُكَ**».

وعن أبي طلحة: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فرأيت من بشره وطلاقته ولم أره قط فسألته، فقال: «**وَمَا يَمْنَعُنِي وَقَدْ خَرَجَ جِبْرِيلُ آنِفًا فَأَتَانِي بِبِشَارَةٍ مِنْ رَبِّي، إِنَّ اللهَ تَعَالَى بَعَثَنِي إِلَيْكَ أُبَشِّرُكَ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ يُصَلِّي عَلَيْكَ إِلَّا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَمَلَائِكَتُهُ بِهَا عَشْرًا**».

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَالدَّرَجَةَ الرَّفِيعَةَ وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «**مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا غُفِرَ لَهُ**».

وروى ابن وهب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**مَنْ سَلَّمَ عَلَيَّ عَشْرًا فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَ رَقَبَةً**».

وَفِي بَعْضِ الْآثَارِ: «لَيَرِدَنَّ عليّ أقوام مَا أَعْرِفُهُمْ إِلَّا بِكَثْرَةِ صَلَاتِهِمْ عَلَيَّ»، وَفِي آخَرَ: «إِنَّ أَنْجَاكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَهْوَالِهَا وَمَوَاطِنِهَا أَكْثَرُكُمْ عَلَيَّ صَلَاةً».

وعن أبي بكر رضي الله عنه: الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْحَقُ لِلذُّنُوبِ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ لِلنَّارِ، والسلام عليه أفضل من عتق الرقاب». اهـ. به منه كذلك.

قلت: قال حواري طريقنا، وخليفة شيخنا رضي الله عنهما أبو حفص الشيخ عمر الفوتي السوداني، على حديث أبي المتقدم ما نصه: وهذا صريح في جواز إهداء الثواب له صلى الله عليه وسلم، وقوله صلى الله عليه وسلم: «**إِذًا تُكْفَى هَمُّكَ وَيُغْفَر ذَنْبُك**» دليل على فضيلة إهداء الثواب له صلى الله عليه وسلم، وعلى أن نفعه راجع إلى المهدي لا إليه صلى الله عليه وسلم. اهـ. بخ. من بعض تآليفه، انظره في الرماح والسيوف إن شئت، وسنفرد هذه المسألة بفصل بعد هذا أودعه ما لشيخنا رضي الله عنه فيها، وكذا غيره من أهل الفتح الأكبر إن شاء الله.

فصل

في ذم من لم يصل على النبي صلى الله عليه وسلم

عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ رَمَضَانُ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الْكِبَرَ فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الْجَنَّةَ**». قال عبد الرحمن: وَأَظُنُّهُ قَالَ: «**أَوْ أَحَدُهُمَا**».

وفي حديث آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم صعد المنبر فقال: «**آمِينَ**»، ثُمَّ صَعِدَ فَقَالَ: «**آمِينَ**»، ثُمَّ صَعِدَ فَقَالَ: «**آمِينَ**»، فَسَأَلَهُ مُعَاذٌ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «**إِنَّ جِبْرِيلَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَانِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَنْ سُمِّيتَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ، فَأَبْعَدَهُ اللهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ**»، وَقَالَ فِيمَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ فَمَاتَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَمَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يَبِرَّهُمَا فَمَاتَ مِثْلَهُ.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**الْبَخِيلُ الَّذِي ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ**».

وعن جعفر بن محمد عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ أُخْطِيءَ بِهِ طَرِيقُ الْجَنَّةِ**».

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**الْبَخِيلُ كُلُّ الْبَخِيلِ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ**».

وعن أبي هريرة قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: «**أَيُّمَا قَوْمٍ جَلَسُوا مَجْلِسًا ثُمَّ تَفَرَّقُوا عَنْهُ قَبْلَ أَنْ يَذْكُرُوا اللهَ وَيُصَلُّوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَتْ عَلَيْهِمْ تِرَةً إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ**».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «**مَنْ نَسِيَ الصَّلَاةَ عَلَيَّ نُسِّيَ طَرِيقَ الْجَنَّةِ**».

وعن قتادة عنه صلى الله عليه وسلم: («**مِنَ الْجَفَاءِ أَنْ أُذْكَرَ عِنْدَ الرَّجُلِ فَلَا يُصَلِّي عَلَيَّ**».

وعن جابر عنه صلى الله عليه وسلم:) «**مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا، ثُمَّ تَفَرَّقُوا عَلَى غَيْرِ صَلَاةٍ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَّا تَفَرَّقُوا عَلَى أَنْتَنَ مِنْ رِيحِ الْجِيفَةِ**».

وعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لَا يَجْلِسُ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَا يُصَلُّونَ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى**

اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ إِلَّا كَـانَ عَلَيْهِمْ حَسْـرَةً وَإِنْ دَخَلُوا الْـجَنَّةَ لِمَا يَرَوْنَ مِنَ الثَّوَابِ».

وَحَكى أَبُو عِيسَـى التَرْمِـذي عَن بَعْض أَهْـل الْعِلْم قَـال: إِذَا صَـلَّى الرَّجُـل عَلَى النَّبِيّ صَـلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّم مَرَّة فِي المَجْلِسِ أَجْزَأَ عَنْهُ مَـا كَان فِي ذَلِكَ المَجْلِس. اهـ. به منه كذلك.

قلتُ: وفيـه تقريـع للمتجعـرفين في القـول والمتساهلين في الكلام، وذم للمتلاعبين بدينهم من الضلال واللئام.

فصل

في الجـواب عن شـيخنا رضـي اللـه عنه عن الاعتراض عليه في مسألتين:

-**الأولى:** هل يشفع للنبي صلى اللـه عليـه وسلم بصلاتنا عليه أو بما نهديه إليه، أو لا.

-**الثانية:** هل إهداء الثواب إليه صـلى اللـه عليه وسلم جائز شرعا، أو لا.

وقد أجاب رضي الله عنـه وأرضـاه، وجعلنـا في حمـاه، عن ذلـك كمـا في الجـواهر، ونصـه بنقل الخليفة المذكور قبل:

«وأختم شرح هذه الصلوات بمسـألة إهـداء الثواب له صلى اللـه عليـه وسـلم، فقـد سـألته

رضي الله عنه عن بيان ذلك، فأجاب رضي الله تعالى عنه بقوله:

اعْلَمْ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَنِيٌّ عَنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ جُمْلَةً وَتَفْصِيلاً، فَرْداً فَرْداً، وَعَنْ صَلَاتِهِمْ عَلَيْهِ، وَعَنْ إِهْدَائِهِمْ ثَوَابَ الأَعْمَالِ لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَهُوَ غَنِيٌّ بِرَبِّهِ أَوَّلاً وَبِمَا مَنَحَهُ مِنْ سُبُوغِ فَضْلِهِ، وَكَمَالِ طَوْلِهِ، فَهُوَ فِي ذَلِكَ عِنْدَ رَبِّهِ صَلَّى **اللهُ** عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَايَةٍ لَا يُمْكِنُ وُصُولُ غَيْرِهِ إِلَيْهَا وَلَا يَطْلُبُ مَعَهَا مِنْ غَيْرٍ زِيَادَةً أَوْ إِفَادَةً، يَشْهَدُ لِذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: **(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى).**

وَهَذَا العَطَاءُ، وَإِنْ وَرَدَ مِنَ الحَقِّ بِهَذِهِ الصِّفَةِ سَهْلَةُ المَأْخَذِ، قَرِيبَةُ المَحْتِدِ، فَإِنَّ لَهَا غَايَةً لَا تُدْرِكُ العُقُولُ أَصْغَرَهَا فَضْلاً عَنِ الغَايَةِ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُهَا، فَإِنَّ الحَقَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُعْطِيهِ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى قَدْرِ سَعَةِ رُبُوبِيَتِهِ، وَيُفِيضُ عَلَى مَرْتَبَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قَدْرِ حُظْوَتِهِ وَمَكَانَتِهِ عِنْدَهُ. وَمَا ظَنُّكَ بِعَطَاءٍ يَرِدُ مِنْ مَرْتَبَةٍ لَا غَايَةَ لَهَا، وَعَظَمَةُ ذَلِكَ العَطَاءِ عَلَى قَدْرِ تِلْكَ المَرْتَبَةِ، ثُمَّ يَرِدُ عَلَى مَرْتَبَةٍ لَا غَايَةَ لَهَا أَيْضًا، وَعَظَمَتُهُ عَلَى قَدْرِ وُسْعِهَا أَيْضًا، فَكَيْفَ يُقَدَّرُ هَذَا العَطَاءُ، وَكَيْفَ تَحْمِلُ العُقُولُ سَعَتَهُ، وَلِذَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: **(وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا).**

وَأَقَلُّ مَرَاتِبِهِ فِي غِنَاهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ مِنْ لَدُنِ بِعْثَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى

قِيَامِ السَّاعَةِ، كُلُّ عَامِلٍ يَعْمَلُ للهِ مِمَّنْ دَخَلَ فِي طَوْقِ رِسَالَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكُونُ لَهُ مَعَ ثَوَابِ عَمَلِهِ بَالِغًا مَا بَلَغَ، فَلَيْسَ يَحْتَاجُ مَعَ هَذِهِ المَرْتَبَةِ إِلَى زِيَادَةِ إِهْدَاءِ الثَّوَابِ لِمَا فِيهِمَا مِنْ كَمَالِ الغِنَى الَّذِي لَا حَدَّ لَهُ. وَهَذِهِ أَصْغَرُ مَرَاتِبِ غِنَاهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَيْفَ بِمَا وَرَاءَهَا مِنَ الفَيْضِ الأَكْبَرِ وَالفَضْلِ العَظِيمِ الأَخْطَرِ، الَّذِي لَا تُطِيقُ حَمْلَهُ عُقُولُ الأَقْطَابِ فَضْلًا عَمَّنْ دُونَهُمْ.

وَإِذَا عَرَفْتَ هَذَا، فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَتْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى صَلَاةِ المُصَلِّينَ عَلَيْهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا شُرِعَتْ لَهُمْ لِيَحْصُلَ لَهُ النَّفْعُ بِهَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَيْسَتْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى إِهْدَاءِ الثَّوَابِ مِمَّنْ يُهْدِي لَهُ ثَوَابَ الأَعْمَالِ، وَمَا مَثَلُ المُهْدِي لَهُ فِي هَذَا البَابِ ثَوَابَ العَمَلِ مُتَوَهِّمًا أَنَّهُ يَزِيدُهُ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ يُحَصِّلُ لَهُ نَفْعًا، إِلَّا كَمَنْ رَمَى نُقْطَةَ قَلَمٍ فِي بَحْرٍ طُولُهُ مَسِيرَةُ عَشْرِ مِائَةِ أَلْفِ عَامٍ وَعَرْضُهُ كَذَلِكَ وَعُمْقُهُ كَذَلِكَ، مُتَوَهِّمًا أَنَّهُ يَمُدُّ هَذَا البَحْرَ بِتِلْكَ النُّقْطَةِ وَيَزِيدُهُ، فَأَيُّ حَاجَةٍ لِهَذَا البَحْرِ بِهَذِهِ النُّقْطَةِ، وَمَا عَسَى أَنْ تَزِيدَ فِيهِ.

وَإِذَا عَرَفْتَ رُتْبَةَ غِنَاهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحُظْوَتَهُ عِنْدَ رَبِّهِ، فَاعْلَمْ أَنَّ أَمْرَ اللهِ لِلْعِبَادِ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُعَرِّفَهُمْ عُلُوَّ مِقْدَارِهِ عِنْدَهُ وَشُفُوفَ مَرْتَبَتِهِ لَدَيْهِ، وَعُلُوَّ اصْطِفَائِهِ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ، وَلِيُخْبِرَهُمْ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ العَمَلَ مِنْ عَامِلٍ إِلَّا بِالتَّوَسُّلِ إِلَى اللهِ بِهِ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَمَنْ طَلَبَ القُرْبَ مِنَ اللهِ تَعَالَى وَالتَّوَجُّهَ إِلَيْهِ دُونَ التَّوَسُّلِ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْرِضًا عَنْ كَرِيمِ جَنَابِهِ وَمُدْبِرًا عَنْ تَشْرِيعِ خِطَابِهِ كَانَ مُسْتَوْجِبًا مِنَ اللهِ غَايَةَ السَّخَطِ وَالغَضَبِ وَغَايَةَ اللَّعْنِ وَالطَّرْدِ وَالبُعْدِ، وَضَلَّ سَعْيُهُ، وَخَسِرَ عَمَلُهُ، وَلَا وَسِيلَةَ إِلَى اللهِ إِلَّا بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَالصَّلَاةِ عَلَيْهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَامْتِثَالِ شَرْعِهِ.

فَإِذًا، فَالصَّلَاةُ عَلَيْهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا تَعْرِيفٌ لَنَا بِعُلُوِّ مِقْدَارِهِ عِنْدَ رَبِّهِ، وَفِيهَا تَعْلِيمٌ لَنَا بِالتَّوَسُّلِ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَمِيعِ التَّوَجُّهَاتِ وَالْـمَطَالِبِ لَا غَيْرَ هَذِهِ مِنْ تَوَهُّمِ النَّفْعِ لَهُ بِهَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَا ذَكَرْنَاهُ سَابِقًا مِنْ كَمَالِ الغِنَى.

وَأَمَّا إِهْدَاءُ الثَّوَابِ لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَعَقَّلْ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الغِنَى أَوَّلًا، ثُمَّ تَعَقَّلْ مِثَالًا آخَرَ يُضْرَبُ لِإِهْدَاءِ الثَّوَابِ لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَلِكٍ عَظِيمِ الْـمَمْلَكَةِ، ضَخْمِ السَّلْطَنَةِ، قَدْ أُوتِيَ فِي مَمْلَكَتِهِ مِنْ كُلِّ مُتَمَوِّلٍ خَزَائِنَ لَا حَدَّ لِعَدَدِهَا، كُلُّ خِزَانَةٍ عَرْضُهَا وَطُولُهَا مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ، مَمْلُوءَةٌ كُلُّ خِزَانَةٍ عَلَى هَذَا القَدْرِ يَاقُوتًا أَوْ ذَهَبًا أَوْ فِضَّةً أَوْ زَرْعًا أَوْ غَيْرَهَا مِنَ الْمُتَمَوَّلَاتِ.

ثُمَّ قَدِّرْ فَقِيرًا لَا يَمْلِكُ مَثَلًا غَيْرَ خُبْزَتَيْنِ مِنْ دُنْيَاهُ، فَسَمِعَ بِالْـمَلِكِ وَاشْتَدَّ حُبُّهُ وَتَعْظِيمُهُ لَهُ فِي قَلْبِهِ، فَأَهْدَى لِهَذَا الْـمَلِكِ إِحْدَى الخُبْزَتَيْنِ مُعَظِّمًا لَهُ وَمُحِبًّا، وَالمَلِكُ مُتَّسِعُ الكَرَمِ، فَلَا شَكَّ

أَنَّ الْخُبْزَةَ لَا تَقَعُ مِنْهُ بِبَالٍ لِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الغِنَى الَّذِي لَا حَدَّ لَهُ، فَوُجُودُهَا عِنْدَهُ وَعَدَمُهَا عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ. ثُمَّ المَلِكُ لِاتِّسَاعِ كَرَمِهِ، عَلِمَ فَقْرَ الفَقِيرِ وَغَايَةَ جُهْدِهِ، وَعَلِمَ صِدْقَ حُبِّهِ وَتَعْظِيمَهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَنَّهُ مَا أَهْدَى لَهُ الخُبْزَةَ إِلَّا لِأَجْلِ ذَلِكَ، وَلَوْ قَدَرَ عَلَى أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ لَأَهْدَاهُ لَهُ، فَالْمَلِكُ يُظْهِرُ لَهُ الفَرَحَ وَالسُّرُورَ بِذَلِكَ الْفَقِيرِ وَبِهَدِيَّتِهِ لِأَجْلِ تَعْظِيمِهِ لَهُ وَصِدْقِ حُبِّهِ، لَا لِأَجْلِ انْتِفَاعِهِ بِالخُبْزَةِ، وَيُثِيبُ عَلَى تِلْكَ الْخُبْزَةِ بِمَا لَا يُقَدَّرُ قَدْرُهُ مِنَ العَطَاءِ لِأَجْلِ صِدْقِ الْمَحَبَّةِ وَالتَّعْظِيمِ، لَا لِأَجْل النَّفْع بِالخُبْزَةِ.

وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ (وَضَرْبِ المَثَلِ) قَدِّرْ إِهْدَاءَ الثَّوَابِ لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَأَمَّا غِنَاهُ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي ضَرْبِ الْمَثَلِ بِعَظَمَةِ البَحْرِ المَذْكُورِ أَوَّلًا، وَإِمْدَادِهِ بِنُقْطَةِ القَلَمِ. (وَأَمَّا إِثَابَتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَقَدْ ذُكِرَ الْمَثَلُ لَهَا بِإِهْدَاءِ الْخُبْزَةِ لِلْمَلِكِ المَذْكُورِ وَالسَّلَامُ». اهـ.

قال في الإبريز سائلا شيخه سيدي عبد العزيز الدباغ: هل ينتفع النبي صلى الله عليه وسلم بصلاتنا عليه أو لا ينتفع، فإن هذه مسألة اختلف فيها العلماء رضي الله عنهم.

فقال رضي الله عنه: لم يشرعها الله لنا بقصد نفع نبيه صلى الله عليه وسلم، وإنما شرعها الله لنا بقصد نفعنا خاصة، كمن له عبيد فنظر إلى أرض كريمة لا تبلغها الزراعة، فدعا

عبيده فأعطاهم تلك الأرض على أن يكون الزرع كله لهم يستبدون به، ولم يعطهم ذلك على وجه الشركة، فهكذا حال صلاتنا على النبي صلى الله عليه وسلم فأجرها كله لنا، وإذا اشتعل نور أجرها في بعض الأحيان واتصل بنوره صلى الله عليه وسلم تراه بمنزلة شيء راجع إلى أصله لا غير، لأن الأجور الثابتة للمؤمنين قاطبة إنما هي لأجل الإيمان الذي فيهم، والإيمان الذي فيهم إنما هو من نوره صلى الله عليه وسلم، فصارت الأجور الثابتة لنا إنما هي منه صلى الله عليه وسلم، ولا مثال له في المحسوسات إلا البحر المحيط مع الأمطار إذا جاءت بالسيول إلى البحر، فإن ماء الأمطار من البحر فإذا رجع إلى البحر فلا يقال إنه زاد في البحر.

إلى أن قال: وترى الرجل يقرأ دلائل الخيرات، فإذا أراد أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم صوَّره في فكره وصوَّر الأمور المطلوبة له كالوسيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود وغير ذلك مما هو مذكور في كل صلاة، وصوَّر نفسه طالبا لها من الله تعالى، وقدَّر في فكره أن الله تعالى يجيبه ويعطي ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم على يد هذا الطالب، فيقع في ظن الطالب أنه حصل منه للنبي صلى الله عليه وسلم نفع عظيم، فيفرح ويستبشر، ويزيد في القراءة، ويبالغ في الصلاة، ويرفع بها صوته، ويحس بها

خارجة من عروق قلبه، ويعتريه خشوع، وتـنزل به رقة عظيمة، ويظن أنـه في حالـة مـا فوقهـا حالة، وهو في هـذا الظن على خطـأ عظيم، فلا يصل بصلاته هذه إلى شيء من الله تعالى لأنها متعلقـة بمـا ظنـه وصـوره في فكـره، وظنـه باطل، والباطل لا يتعلق به سبحانه، وإنما يتصل بالحق سبحانه ما هو حق في نفس الأمر، فكـل مـا كـان كـذلك فهـو متعلـق بـالحق سـبحانه. فليحذر المصلي من هذه الآفـة العظيمـة، فـإن أكـثر النـاس لا يتفطنـون لهـا ويظنـون أن تلـك الرقـة والحلاوة الحاصـلة لهم من اللـه سـبحانه وتعـالى، وإنمـا هي من الشـيطان ليـدفعهم بهـا عن الحـق سـبحانه، ويزيـدهم بهـا بعـدا. وإنمـا ينبغي أن يكون الحامل محبته صـلى اللـه عليـه وسلم وتعظيمه لا غـير، وحينئـذ يشـتعل نورهـا. وأمـا إن كـان الحامـل عليهـا نفـع (العبـد، فإنـه يكون محجوبا وينقص أجره كما سبق. وكـذا إن كان الحامل عليها نفع) النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم، فإن صلاته حينئذ لا تتعلق بالحق سبحانه ولا تبلغ إليه. اهـ. بخ. بنقل صاحب الرماح رحمه اللـه، وفيـه تصـحيف، فليتنبـه العاقـل لهـذه الدسيسة، وليحذر من هذه الخديعة.

فصل

في ذكر ما هو في حق النبي صلى الله عليه وسلم سب أو نقص

من تعريض أو نص وتصريح، وتوضيح ذلك غاية التوضيح.

اعلم أن جميع من سب النبي صلى الله عليه وسلم أو عابه أو ألحق به نقصا في نفسه أو نسبه، أو دينه، أو خصلة من خصاله، أو عرض به أو شبهه بشيء على طريق السب له أو الإزراء عليه، أو التصغير لشأنه، أو الغض منه والعيب له فهو ساب له.

والحكم فيه حكم الساب يقتل ولا يمترى فيه، تصريحا كان أي ما ذكر أو تلويحا.

وكذلك من لعنه أو دعا عليه، أو تمنى مضرة له، أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم، أو عبث في جهته العزيزة بسخف من الكلام، أو هجر ومنكر من القول وزور، أو عيَّره بشيء مما جرى من البلاء والمحنة عليه أو غمصه ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه، وهذا كله إجماع من العلماء وأئمة الفتوى من لدن الصحابة رضوان الله عليهم إلى هلم جرا.

قال أبو بكر بن المنذر: أجمع عوام أهل العلم على أن من سب النبي صلى الله عليه وسلم يقتل. وممن قال ذلك مالك بن أنس والليث وأحمد وإسحاق وهو مذهب الشافعي.

قال القاضي ابن عياض: وهو مقتضى قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: ولا تقبل توبته عند هؤلاء ولا رجوعه، وبمثله قال أبو حنيفة

وأصحابه والثوري وأهل الكوفة والأوزاعي في المسلمين، لكنهم قالوا: هي ردة، وروى مثله الوليد بن مسلم عن مالك، وحكى الطبري عن أبي حنيفة وأصحابه مثله فيمن تنقصه صلى الله عليه وسلم أو برئ منه أو كذبه.

وقال سحنون فيمن سبه: ذلك ردة كالزندقة.

وعلى هذا وقع الخلاف في استتابته وتكفيره، وهل قتله حد أو كفر، ولا نعلم خلافا في استباحه دمه بين علماء الأمصار وسلف الأمة، وقد ذكر غير واحد الإجماع على قتله وتكفيره، وأشار بعض الظاهرة وهو أبو محمد علي بن أحمد الفارسي إلى الخلاف في تكفير المستخف، والمعروف ما قدمناه.

قال محمد بن سحنون: أجمع العلماء أن شاتم النبي صلى الله عليه وسلم المتنقِّص له كافر، والوعيد جارٍ عليه بعذاب الله له، وحكمه عند الأمة القتل، ومن شك في كفره وعذابه كفر.

واحتج إبراهيم بن حسن بن خالد الفقيه في مثل هذا بقتل خالد بن الوليد مالك بن نويرة لقوله عن النبي صلى الله عليه وسلم: «صاحبكم».

وقال أبو سليمان الخطابي: لا أعلم أحدا من المسلمين اختلف في وجوب قتله إذا كان مسلما.

وقال ابن القاسم عن مالك في كتاب ابن سحنون والمبسوط والعتبية، وحكاه مطرف عن مالك في كتاب ابن حبيب: من سب النبي عليه السلام من المسلمين قتل ولم يستتب، قال ابن القاسم في العتبية: من سبه أو شتمه أو عابه أو تنقصه فإنه يقتل، وحكمه عند الأمة القتل كالزنديق، وقد فرض الله تعالى توقيره وبره.

وفي المبسوط عن عثمان بن كنانة: من شتم النبي صلى الله عليه وسلم من المسلمين قتل أو صُلب حيا ولم يستتب، والإمام مخيَّر في صلبه حيا أو قتله.

ومن رواية أبي المصعب وابن أبي أويس سمعنا مالكا يقول: من سب رسول الله عليه السلام أو شتمه أو عابه أو تنقصه قتل مسلما كان أو كافرا ولا يستتاب، وقال أصبغ يقتل على كل حال.

وفي كتاب محمد: أخبرنا أصحاب مالك أنه قال: من سب النبي عليه السلام أو غيره من النبيين من مسلم أو كافر قتل ولم يستتب، وقال أصبغ، يقتل على كل حال أسر ذلك أو أظهره ولا يستتاب لأن توبته لا تعرف.

وروى ابن وهب عن مالك: من قال إن رداء النبي عليه السلام، ويروى زر النبي عليه السلام، وسخ أراد به عيبه، قتل.

وقال بعض علمائنا: أجمع العلماء على أن من دعا على نبي من الأنبياء بالويل أو بشئ من المكروه أنه يقتل بلا استتابة.

وأفتى أبو الحسن القابسي فيمن قال في النبي عليه السلام (الحمَّال يتيم أبي طالب) بالقتل.

وأفتى أبو محمد بن أبي زيد بقتل رجل سمع قوما يتذاكرون في صفة النبي عليه السلام، إذ مرَّ رجل قبيح الوجه واللحية، فقال لهم: (تريدون تعرفون صفته؟ هي في صفة هذا المار في خلقه ولحيته)، قال: ولا تقبل توبته وقد كذب لعنة الله وليس يخرج من قلب سليم الإيمان.

وقال أحمد بن أبي سليمان صاحب سحنون: من قال إن النبي صلى الله عليه وسلم كان أسودَ، يقتل، وقال في رجل قيل له: لا وحق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: فعل الله برسول الله كذا -وذكر كلاما قبيحا- قيل له: ما تقول يا عدو الله؟ فقال أشد من كلامه الأول، ثم قال: إنما أردت برسول الله العقرب، فقال ابن أبي سليمان للذي سأله: أشهد عليَّ وأنا شريكك، يريد في قتله وثواب ذلك.

قال حبيب بن الربيع: لأن ادعاءه التأويل في لفظ صراح لا يقبل لأنه امتهان وهو غير معزر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا

موقر له فوجب إباحة دمه. اهـ. بخ. من الشفاء أيضا.

وفيه مناسبة للفصول قبله لما فيه من تقريع المتساهلين في الأقوال، المنهمكين في مثل هذا من الزيغ والضلال.

فصل
في ذكر الحجة في إيجاب قتل من سبه أو عابه صلى الله عليه وسلم

فمن القرآن لعنه تعالى لمؤذيه في الدنيا والآخرة، وقرانه تعالى أذاه بأذاه صلى الله عليه وسلم.

ولا خلاف في قتل من سب الله تعالى، وأن اللعن إنما يستوجبه من هو كافر، وحكم الكافر القتل.

فقال تعالى: (**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**) الآية.

وقال تعالى في قاتل المؤمن مثل ذلك، فمن لعنته في الدنيا القتل. قال الله تعالى: (**مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا**).

وقال في المحاربين وذكر عقوبتهم: (**ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا**).

وقد يقع القتل بمعنى اللعن:

قال: (**قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ**)، و(**قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**)، أي لعنهم الله.

ولأنه فرق بين أذاهما وأذى المؤمنين، وفي أذى المؤمنين ما دون القتل من الضرب والنكال، فكان حكم مؤذي الله ونبيه أشد من ذلك، وهو القتل.

وقال تعالى: (**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**) الآية، فسلب اسم الإيمان عمن وجد في صدره حرجا من قضائه ولم يسلم له، ومن تنقصه فقد ناقض هذا.

وقال تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ**) إلى قوله: (**أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ**) ولا يحبط العمل إلا الكفر، والكافر يقتل.

وقد قال الله تعالى: (**وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ**)، ثم قال تعالى: (**حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ**)، وقال تعالى: (**وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ**)، ثم قال: (**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**)، وقال تعالى: (**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ**)، إلى قوله: (**قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**)، قال أهل التفسير: كفرتم بقولكم في رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأما الإجماع فقد ذكرناه، وأما الآثار:

فمما رواه الحسين بن علي عن أبيه رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«مَنْ سَبَّ نَبِيًّا فَاقْتُلُوهُ، وَمَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَاضْرِبُوهُ»**.

وفي الحديث الصحيح أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل كعب بن الأشرف، وقوله: **«مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الأشْرَفِ فَإِنَّهُ يُؤْذِي اللهَ وَرَسُولَهُ»**، وَوَجَّهَ إليه من قتله غيلة دون دعوة، بخلاف غيره من المشركين، وعلل بأذاه له، فدلَّ أن قتله إياه لغير الإشراك بل للأذى.

وكذلك قتل أبا رافع، قال البراء رضي الله عنه: وكان يؤذي رسول الله عليه السلام ويعين عليه.

وكذلك أمره يوم الفتح بقتل ابن خطل وجاريتيه اللتين كانتا تغنيان بسبه عليه السلام.

وفي حديث آخر أن رجلا كان يسبه عليه السلام، فقال: **«مَنْ يَكْفِينِي عَدُوِّي؟»** فقال خالد رضي الله عنه: أنا، فبعثه عليه السلام فقتله.

وكذلك أمر بقتل جماعة ممن كان يؤذيه من الكفار ويسبه، كالنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط، وعهد بقتل جماعة منهم قبل الفتح وبعده فقتلوا إلا من بادر بإسلامه قبل القدرة عليه.

وقد روى البزار عن ابن عباس رضي الله عنه أن عقبة بن أبي معيط نادى: يا معاشر

قريش ما لي أقتل من بينكم صبرا؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «**بِكُفْرِكَ وَافْتِرَائِكَ عَلَى رَسُولِ اللهِ**».

وذكر عبد الرزاق أن النبي صلى الله عليه وسلم سبه رجل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ يَكْفِينِي عَدُوِّي؟**»، فقال الزبير: أنا، فبارزه فقتله الزبير رضي الله عنه.

وروى أيضا أن امرأة كانت تسبه عليه السلام فقال: «**مَنْ يَكْفِينِي عَدُوَّتِي؟**»، فخرج إليها خالد بن الوليد فقتلها.

وروي أن رجلا كذب على النبي صلى الله عليه وسلم فبعث عليا والزبير ليقتلاه.

وروى ابن قانع أن رجلا جاء إلى النبي عليه السلام فقال: يا رسول الله سمعت أبي يقول فيك قولا قبيحا فقتلته، فلم يشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم.

وبلغ المهاجر بن أبي أمية أمير اليمن لأبي بكر رضي الله عنه أن امرأة هناك في الردة غنت بسب النبي صلى الله عليه وسلم فقطع يدها، ونزع ثنيتيها، فبلغ أبا بكر ذلك فقال له: لولا ما فعلت لأمرتك بقتلها، لأن حد الأنبياء عليهم السلام ليس يشبه الحدود.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: هجت امرأة من خطمة النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «**مَنْ لِي بِهَا؟**»، فقال رجل من قومها: أنا يا رسول الله، فنهض فقتلها، فأخبر

النبي عليه السلام بذلك فقال: «**لَا يَنْتَطِحُ فِيهَا عَنْزَانِ**».

وعن ابن عباس رضي الله عنه: أن أعمى كانت له أم ولد تسب النبي عليه السلام فيزجرها فلا تنزجر، فلما كانت ذات ليلة جعلت تقع في النبي عليه السلام وتشتمه فقتلها، وأعلم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فأهدر دمها.

وروى النسائي: أتيت أبا بكر وقد أغلظ لرجل فرد عليه، قال: فقلت: يا خليفة رسول الله دعني أضرب عنقه لسبه إياك، فقال: اجلس فليس ذلك لأحد إلا لرسول الله عليه السلام. قال القاضي أبو محمد بن نصر: ولم يخالف عليه أحد، فاستدل الأئمة بهذا الحديث على قتل من أغضب النبي عليه السلام بكل ما أغضبه أو آذاه أو سبه.

ومن ذلك كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عامله بالكوفة، وقد استشاره في قتل رجل سب عمر رضي الله عنه، فكتب عمر إليه: إنه لا يحل قتل امرئ مسلم بسب أحد من الناس إلا رجلا سب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن سبه فقد حل دمه.

وسأل الرشيد مالكا في رجل شتم النبي عليه السلام، وذكر له أن فقهاء العراق افتوه بجلده، فغضب مالك وقال: يا أمير المؤمنين ما بقاء الأمة بعد (شتم) نبيها؟ من شتم الأنبياء

قتل، ومن شتم أصحاب النبي عليه السلام جلد.

قال ابن عياض: كذا وقع في هذه الحكاية، ورواها غير واحد من أصحاب مناقب مالك ومؤلفي أخباره وغيرهم، ولا أدري من هؤلاء الفقهاء بالعراق الذين أفتوا الرشيد بما ذكر، وقد ذكرنا مذهب العراقيين بقتله، ولعلهم ممن لم يشهر بعلم، أو من لا يوثق بفتواه، أو يميل به هواه، أو يكون ما قاله يحمل على غير السب، فيكون الخلاف هل هو سب أم غير سب، أو يكون رجع وتاب عن سبه فلم يقله لمالك على أصله، وإلا فالإجماع على قتل من سبه كما قدمناه.

ويدل على قتله من جهة النظر والاعتبار أن من سبه أو تنقصه قد ظهرت علامة مرض قلبه وبرهان سوء طويته وكفره، ولذلك حكم له كثير من العلماء بالردة، وهي رواية الشاميين عن مالك والأوزاعي وقول الثوري وأبي حنيفة والكوفيين؛ والقول الآخر أنه دليل على الكفر فقتله حد، وإن لم يحكم له بالكفر إلا أن يكون متماديا على قوله غير منكر له ولا مقلع عنه فهذا كافر. وقوله إما صريح كفر كالتكذيب ونحوه، أو من كلمات الاستهزاء والذم، فاعترافه بها وترك توبته عنها دليل استحلاله لذلك، وهو كفر أيضا، فهذا كافر بلا خلاف، قال الله تعالى في مثله: (**يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا**

بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ)، فقال أهل التفسير: هي قولهم إن كان ما يقول محمد حقا لنحن شر من الحمير، وقيل: بل قول بعضهم: ما مثلنا ومثل محمد إلا قول القائل: سمن كلبك يأكلك و(**لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ**)، ويدل عليه أيضا أن قائل مثل هذا إن كان مستترا به أن حكمه حكم الزنديق يقتل، ولأنه قد غير دينه، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ غَيَّرَ دِينَهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَهُ**»، ولأن لحكم النبي عليه السلام في الحرمة مزية على أمته، وساب الحر من أمته يُحد، فكانت العقوبة لمن سبه عليه السلام القتل لعظيم قدره وشفوف منزلته على غيره. اهـ. به منه أيضا.

إذا عرفت هذا علمتَ ما ابتلي به بعض السخفاء الضلال من الاستخفاف بجانب النبي صلى الله عليه وسلم، وحكمتَ عليهم بما حكم به أئمة الإسلام في مثلهم من أهل الأهواء الأرذال.

فصل

في الجواب عما يرد على هذا من عدم قتل النبي عليه السلام اليهودي الذي قال له: السام عليكم، وهذا دعاء عليه؛ وكذا الآخر الذي قال له: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، وقد

تأذى النبي عليه السلام من ذلك، وقال عليه السلام: «**قَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**»؛ ولا قتل المنافقين الذين كانوا يؤذونه.

وهو، أي الجواب عن ذلك، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أول الإسلام يستألف عليه الناس، ويميل قلوبهم إليه، ويحبِّب إليهم الإيمان ويزينه في قلوبهم، ويداريهم، ويقول لأصحابه: «**إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُنَفِّرِينَ**»، ويقول: «**يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا وَسَكِّنُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا**»، ويقول: «**لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»، وكان عليه السلام يداري الكفار والمنافقين ويجمل صحبتهم ويغضي عنهم ويحتمل من أذاهم ويصبر على جفاهم ما لا يجوز لنا اليوم الصبر لهم عليهم، وكان يرفقهم بالعطاء والإحسان وبذلك أمره الله تعالى فقال: (**وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**)، وقال: (**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**)، وذلك لحاجة الناس للتألف أول الإسلام وجمع الكلمة عليه، فلما استقروا وأظهره الله على الدين كله قتل من قدر عليه، واستمرَّ أمره كفعله بابن خطل ومن عهد بقتله يوم الفتح ومن أمكنه قتله غيلة من يهود

وغـيرهم أو غلبـة ممن لم ينظمـه قبـل سـلك صحبته والانحراط في جملة مظهري الإيمان به ممن كـان يؤذيـه كـابن الأشـرف وأبي رافـع والنضر وعقبة، وكذلك هدر دم جماعـة سـواهم ككعب بن زهـير وابن الزبعـري وغيرهمـا ممن آذاه حـتى ألقـوا بأيـديهم ولقـوه مسـلمين، وبـواطن المنـافقين مسـتترة، وحكمـه عليـه السلام على الظاهر، وأكثر تلـك الكلمـات إنمـا كـان يقولهـا القائـل منهم خفيـة ومـع أمثالـه ويحلفـون عليهـا إذا نميت وينكرونهـا ويحلفـون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر، وكـان مـع هـذا يطمـع في فيـأتهم ورجـوعهم إلى الإسـلام وتـوبتهم، فيصـبر عليـه السـلام على هنـاتهم وجفوتهم كما صبر أولو العزم من الرسل، حتى فاء كثـير منهم باطنـا كمـا فـاء ظـاهرا، وأخلص سرا كما أظهر جهرا، ونفع الله بعد بكثير منهم، وقام منهم للدين وزراء وأعوان وحمـاة وأنصـار كما جاءت به الأخبار.

وبهـذا أجـاب بعض أئمتنـا رحمهم اللـه عن هذا السؤال.

وقيل لعله لم يثبت عنده عليـه السـلام من أقوالهم ما رفع وإنما نقله الواحد ومن لم يصل رتبة الشهادة في هذا الباب من صبي أو عبد أو امرأة، والدماء لا تستباح إلا بعدلين، وعلى هـذا يحمـل أمـر اليهـود في السـلام وأنهم لـووا بـه ألسنتهم ولم يـبينوه، ألا تـرى كيـف نبهت عليـه عائشة رضي الله عنها ولو كان صـرَّح بـذلك لم

تنفرد بعلمه، ولهذا نبه النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على فعلهم وقلة صدقهم في سلامهم وخيانتهم في ذلك ليًّا بألسنتهم وطعنا في الدين، فقال عليه السلام: «**إِنَّ الْيَهُودَ إِذَا سَلَّمَ أَحَدُهُمْ، فَإِنَّمَا يَقُولُ: السَّامُ عَلَيْكُمْ، فَقُولُوا: عَلَيْكُمْ**»، وكذلك قال بعض أصحابنا البغداديين أن النبي عليه السلام لم يقتل المنافقين بعلمه فيهم ولم يأت أنه قامت بينه على نفاقهم فلهذا تركهم، وأيضا فإن الأمر كان سرا وباطنا وظاهرهم الإسلام والإيمان، وإن كان من أهل الذمة فالعهد والجوار، والناس قريب عهدهم بالإسلام لم يتميز بعد الخبيث من الطيب، وقد شاع عن المذكورين في العرب كون من يتهم بالنفاق من جملة المؤمنين وصحابة سيد المرسلين وأنصار الدين بحكم ظاهرهم، فلو قتلهم النبي عليه السلام لنفاقهم وما يبدر منهم وعلمه بما أسروا في أنفسهم لوجد المنفر ما يقول ولارتاب الشارد وأرجف المعاند، وارتاع من صحبة النبي عليه السلام والدخول في الإسلام غير واحد، ولزعم الزاعم وظن العدو الظالم أن القتل إنما كان للعداوة وطلب أخذ الترة.

وقد رأيت معنى ما حررته منسوبا إلى مالك بن أنس رحمه الله، ولهذا قال عليه السلام: «**لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»، وقال: «**أُولَئِكَ الَّذِينَ نَهَانِي اللهُ عَنْ قَتْلِهِمْ**».

وهذا بخلاف إجراء الأحكام الظاهرة عليهم من حدود الزنا والقتل وشبهه، لظهورها واستواء الناس في علمها. وقد قال محمد بن المواز: لو أظهر المنافقون نفاقهم لقتلهم النبي عليه السلام، وقاله القاضي أبو الحسن بن القصار.

وقال قتادة في تفسير قوله تعالى: (**لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا، مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا، سُنَّةَ اللهِ**) الآية، قال: معناه إذا أظهروا النفاق.

وحكى محمد بن مسلمة في المبسوط عن زيد بن أسلم أن قوله

تعالى: (**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ**) نسخها ما كان قبلها.

وقال بعض مشايخنا: لعل القائل: "هذه قسمة ما أريد بها وجه الله"، وقوله: "أعدل"، لم يفهم النبي عليه السلام منه الطعن عليه والتهمة له، وإنما رآها من وجه الغلط في الرأي وأمور الدنيا والاجتهاد في مصالح أهلها، فلم ير ذلك سبا ورأى أنه من الأذى الذي له العفو عنه والصبر عليه، فلذلك لم يعاقبه. وكذلك يقال في اليهود إذ قالوا السام عليكم

ليس فيه صريح سب ولا دعاء إلا بما لا بـد منـه من الموت الذي لا بد من لحاقه جميع البشر.

وقيل: بل المـراد تسـأمون دينكم، والسـام والسآمة الملال، وهذا دعـاء على سـآمة الـدين ليس بصريح سـب، ولهـذا تـرجم البخـاري على هذا الحـديث: (بَـابُ إِذَا عَـرَّضَ الـذِّمِّيُّ أَوْ غَيْـرُهُ بِسَبِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ)، قـال بعض علمائنا وليس هـذا بتعـريض بالسـب وإنمـا هـو تعريض بالأذى. قـال ابن عيـاض: قـد قـدمنا أن الأذى والسـب في حقـه عليـه السـلام سـواء. وقال القاضي أبو محمد بن نصر مجيبا عن هـذا الحديث ببعض ما تقدم، ثم قال: ولم يـذكر في هذا (الحديث) هل كـان هـذا اليهـودي من أهـل العهد والذمة أو الحرب، ولا نترك موجب الأدلـة للأمر المحتمل، والأولى في ذلـك كلـه والأظهـر من هـذه الوجـوه مقصـد الاسـتئلاف والمـداراة على الـدين لعلهم يؤمنـون، ولـذلك تـرجم البخاري على حديث القسمة والخوارج: (بَـابُ مَنْ تَرَكَ قِتَالَ الخَوَارِجِ لِلتَّأَلُّفِ، وَلِئَلَّا يَنْفِرَ النَّاسُ مِنْهُ)، ولما ذكرنا معناه عن مالك وقررناه قبـل. وقد صبر لهم عليه السلام على سحره وسـمِّه، وهو أعظم من سبه، إلى أن نصـره اللـه عليهم وأذن له في قتـل من عينـه منهم، وأنـزلهم من صياصـيهم وقـذف في قلـوبهم الـرعب، وكتب على من شـاء منهم الجلاء، وأخـرجهم من ديارهم وخرب بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمـنين، وكاشفهم بالسـب فقـال: «**يَا إِخْـوَةَ الْقِـرَدَةِ**

وَالْخَنَازِيرَ» ، وحكم فيهم سيوف المسلمين، وأجلاهم عن جوارهم، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

فإن قلت: فقد جاء في الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنه عليه السلام **مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ قَطُّ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرُمَاتُ اللهِ، فَيَنْتَقِمُ للهِ»**.

فاعلم أن هذا لا يقتضي أنه لم ينتقم ممن سبه أو آذاه أو كذَّبه، فإن هذه من حرمات الله التي انتقم منها، وإنما يكون ما لا ينتقم منه فيما تعلق بسوء أدب أو معاملة من القول والفعل في النفس والمال مما لم يقصِد فاعله به أذاه، لكن مما جبلت عليه الأعراب من الجفا والجهل أو جبل عليه البشر من من الغفلة كجبذ الأعرابي بإزاره حتى أثر في عنقه عليه السلام، وكرفع صوت الآخر عنده، وكجحد الأعرابي شراءه منه فرسه التي شهد فيها خزيمة، وكما كان من تظاهر زوجيْه عليه، وأشباه هذا مما يحسن الصفح عنه.

وقد قال بعض علمائنا إن أذى النبي عليه السلام حرام لا يجوز بفعل مباح ولا غيره، وأما غيره من الناس فيجوز بفعل مباح مما يجوز للانسان فعله وإن تأذى به غيره. واحتج بعموم قوله تعالى: (**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**)، وبقوله عليه السلام في حديث فاطمة: «**إِنَّهَا**

بَضْعَةٌ مِنِّي يُؤْذِينِي مَا آذَاهَا، ألا وَإِنِّي لَا أُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ وَلَكِنْ لَا تَجْتَمِعُ ابْنَةُ رَسُولِ اللهِ وَابْنَةُ عَدُوِّ اللهِ عِنْدَ رَجُلٍ أَبَدًا».

أو يكون هذا مما آذاه به كافر رجا بعد ذلك إسلامه، كعفوه عن اليهودي الذي سحره، وعن الأعرابي الذي أراد قتله، وعن اليهودية التي سمَّته، وقد قيل قتلها. ومثل هذا مما يبلغه من أذى أهل الكتاب والمنافقين فصفح عنهم رجاء استئلافهم أو استئلاف غيرهم، كما قررناه قبل، وبالله التوفيق. اهـ. به منه أيضا، فتأمله وشد يدك عليه، واعمل بمقتضاه في كل ما يرجع إليه.

فصل
في ذكر حكم من سب النبي عليه السلام، أو شانأه، أو تنقصه، أو آذاه، وذكر عقوبته.

اعلم أن مشهور مذهب مالك وأصحابه وقول السلف وجمهور العلماء: قتله حدا، إلا إن أظهر التوبة منه، ولهذا لا تقبل عندهم توبته ولا تنفعه استقالته ولا فيأته كما قدمناه قبل. وحكمه حكم الزنديق ومسر الكفر في هذا

القول، وسواء كانت توبته على هذا بعد القـدرة عليه والشهادة على قوله ، أو جاء تائبا من قبل نفسه لأنـه حـد وجب لا تسقطه التوبة كسائر الحدود.

قال القابسي رحمه الله: إذا إذا أقر بالسب وتاب منه وأظهر التوبة قتل بالسب إذ هو حده. وقال ابن أبي زيد مثله. وأما مـا بينـه وبين اللـه تعالى فتوبته تنفعه.

وقـال ابن سحنون: من شتم النبي عليـه السلام من الموحدين ثم تاب عن ذلك لم تـزل توبته عنه القتل.

وكذلك قد اختلف في الزنديق إذا جاء تائبا: فحكى القاضي أبو الحسن بن القصار في ذلـك قـولين، قـال: من شـيوخنا من قـال أقتلـه بإقراره، لأنه كان يقـدر على ستر نفسـه فلما اعـترف خفنـا أنـه خشـي الظهـور عليـه فبـادر لذلك؛ ومنهم من قال أقبـل توبتـه لأني أسـتدل على صـحتها بمجيئـه فكأننـا وقفنـا على باطنـه بخلاف من أسرته البينة. قال ابن عيـاض: وهـذا قول أصبغ، ومسألة ساب النبي صلى الله عليه وسلم أقوى لا يتصور فيهـا الخلاف على الأصـل المتقدم، لأنه حـق متعلـق للنـبي عليـه السـلام ولأمته بسـببه لا تسـقطه التوبـة كسـائر حقـوق الآدميين.

والزنديق إذا تـاب بعـد القـدرة عليـه: فعنـد مالـك والليث وإسـحاق وأحمـد لا تقبـل توبتـه، وعنـد الشـافعي تقبـل، واختلـف فيـه عن أبي

حنيفة وأبي يوسف، وحكى ابن المنذر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يستتاب، قال محمد بن سحنون: ولم يزل القتل عن المسلم بالتوبة من سبه عليه السلام لأنه لم ينتقل من دين إلى غيره وإنما فعل شيئا حده عندنا القتل لا عفو فيه لأحد كالزنديق، لأنه لم ينتفل من ظاهر إلى ظاهر.

وقال القاضي أبو محمد بن نصر محتجا لسقوط اعتبار توبته: والفرق بينه وبين من سب الله تعالى على مشهور القول باستتابته أن النبي عليه السلام بشر والبشر جنس تلحقه المعرة إلا من أكرمه الله بنبوته، والباري تعالى منزه عن جميع المعايب قطعا وليس من جنس تلحق المعرة بجنسه، وليس سبه عليه السلام كالارتداد المقبول فيه التوبة، لأن الارتداد معني ينفرد به المرتد لا حق فيه لغيره من الآدميين فقبلت توبته، ومن سب النبي عليه السلام تعلق فيه حق الآدمي فكان كالمرتد يقتل حين ارتداده أو يقذف، فإن توبته لا تسقط عنه حد القتل والقذف؛ وأيضا فإن توبة المرتد إذا قبلت لا تسقط ذنوبه من زنى أو سرقة وغيره، ولم يقتل ساب النبي عليه السلام لكفره لكن لمعنى يرجع إلى تعظيم حرمته وزوال المعرة به وذلك لا تسقطه التوبة.

قال ابن عياض: يريد والله أعلم، لأن سبه لم يكن بكلمة تقتضي الكفر ولكن بمعني الإزراء والاستخفاف، أو لأن بتوبته وإظهار إنابته

ارتفع عنه اسم الكفر ظاهرا والله أعلم بسريرته، وبقي حكم السب.

وقال أبو عمران الفاسي: من سب النبي عليه السلام ثم ارتد عن الإسلام قتل ولم يستتب، لأن السب من حقوق الآدميين التي لا تسقط عن المرتد.

وكلام شيوخنا هؤلاء مبني على القول بقتله حدًّا لا كفرا، وهو يحتاج إلى تفصيل، وأما على رواية الوليد بن مسلم عن مالك ومن وافقه على ذلك ممن ذكرناه وقال به من أهل العلم فقد صرحوا أنه ردة، قالوا ويستتاب منها، فإن تاب نكِّل وإن أبي قتل، فحكم له بحكم المرتد مطلقا في هذا الوجه، والوجه الأول أشهر وأظهر لما قدمناه، ونحن نبسط الكلام فيه فنقول:

من لم يره ردة فهو يوجب القتل فيه حدا، وإنما يقول ذلك مع فصلين: إما مع إنكاره ما شهد به عليه، أو إظهاره الإقلاع والتوبة عنه فنقتله حدا لثبات كلمة الكفر عليه في حق النبي عليه السلام وتحقيره ما عظم الله من حقه، وأجرينا حكمه في ميراثه وغير ذلك حكم الزنديق إذا ظهر عليه وأنكر أو تاب.

فإن قيل: فكيف تثبتون عليه الكفر ويشهد عليه بكلمة الكفر ولا تحكمون عليه بحكمه من الاستتابة وتوابعها؟

قلنا: نحن وإن أثبتنا له حكم الكافر في القتل فلا نقطع عليه بذلك لإقراره بالتوحيد

والنبوة، وإنكاره ما شهد به عليه أو زعمه أن ذلك كان منه وهلا ومعصية وأنه مقلع عن ذلك نادم عليه، ولا يمتنع إثبات بعض أحكام الكفر على بعض الأشخاص وإن لم تثبت له خصائصه كقتل تارك الصلاة، وأما من علم أنه سبه معتقدا لاستحلاله فلا شك في كفره بذلك، وكذلك إن كان سبه في نفسه كفرا، كتكذيبه أو تكفيره ونحوه، فهذا ما لا إشكال فيه ويقتل وإن تاب منه، لأنا لا نقبل توبته ونقتله بعد التوبة حدا لقوله ومتقدم كفره، وأمره بعد إلى الله المطلع على صحة إقلاعه العالم بسره. وكذلك من لم يظهر التوبة واعترف بما شهد به عليه وصمم عليه، فهذا كافر بقوله وباستحلاله هتك حرمة الله تعالى وحرمة نبيه عليه السلام يقتل كافرا بلا خلاف.

فعلى هذه التفصيلات خذ كلام العلماء ونزِّل مختلف عباراتهم في الاحتجاج عليها وأجر اختلافهم في الموارثة وغيرها على ترتيبها تتضح لك مقاصدهم إن شاء الله. اهـ. بخ. منه أيضا رحمه الله وجزاه عن الإسلام خيرا.

فصل
في حكم من سب الله تعالى وملائكته وأنبياءه وكتبه وآل

النبي صلى الله عليه وسلم وأزواجه وصحبه.

قال القاضي رحمه الله: لا خلاف أن ساب الله تعالى من المسلمين كافر حلال الدم.

واختلف في استتابته:

فقال ابن القاسم في المبسوط وكتاب ابن سحنون ومحمد ورواه ابن القاسم عن مالك في كتاب إسحاق بن يحيى: من سب الله تعالى من المسلمين قتل ولم يستتب إلا أن يكون افترى على الله بارتداده إلى دين دان به وأظهره فيستتاب وإن لم يظهره لم يستتب.

وقال في المبسوطة مطرف وعبد الملك مثله.

وقال المخزومي ومحمد بن مسلمة وابن أبي حازم: لا يقتل المسلم بالسب حتى يستتاب، وكذلك اليهودي والنصراني، فإن تابوا قُبل منهم، وإن لم يتوبوا قتلوا، ولا بد من الاستتابة، وذلك كله كالردة، وهو الذي حكاه القاضي ابن نصر عن المذهب.

وأفتى ابن أبي زيد فيما حكي عنه في رجل لعن رجلا ولعن الله –تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا- فقال إنما أردت أن العن الشيطان فزل لساني، فقال: يقتل بظاهر كفره ولا يقبل عذره، وأما فيما بينه وبين الله فمعذور.

واختلف فقهاء قرطبة في مسالة هارون بن حبيب أخي عبد الملك الفقيه، وكان ضيق الصدر كثير التبرم، وكان قد شهد عليه بشهادات منها أنه قال عند استقلاله من مرض: لقيت في مرضي هذا ما لو قتلت أبا بكر وعمر لم أستوجب هذا كله، فأفتى إبراهيم بن حسين بن خالد بقتله، وأن مضمن قوله تجوير لله تعالى وتظلم منه، والتعريض فيه كالتصريح؛ وأفتى أخوه عبد الملك بن حبيب وإبراهيم بن حسين بن عاصم وسعيد بن سليمان القاضي بطرح القتل عنه، إلا أن القاضي رأى عليه التثقيل في الحبس والشدة في الأدب لاحتمال كلامه وصرفه إلى التشكي.

فوجه من قال في ساب الله بالاستتابة أنه كفر وردة محضة لم يتعلق بها حق لغير الله فأشبه قصد الكفر بغير سب الله وإظهار الانتقال إلى دين آخر من الأديان المخالفة للإسلام.

ووجه ترك استتابته أنه لما ظهر منه ذلك بعد إظهار الإسلام قبل، اتهمناه وظننا أن لسانه لم ينطق به إلا وهو معتقد له، إذ لا يتساهل في هذا أحد، فحكم له بحكم الزنديق، ولم تقبل توبته وإذا انتقل من دين إلى دين آخر وأظهر السب بمعنى الارتداد فهذا قد أعلم أنه خلع ربقة الإسلام من عنقه، بخلاف الأول المتمسك به، وحكم هذا حكم المرتد (يستتاب) على مشهور مذاهب أكثر أهل العلم، وهو مذهب

مالك وأصحابه على ما بيناه قبل. اهـ. بـه منـه أيضا، وهو كافٍ في بابه، جزى الله مقيده خـيرا وسقى ضريحه وضريح شيخنا شـآبيب رضـوانه، آمين.

فصل

في حكم من أضـاف إلى اللـه تعـالى مـا لا يليـــق به، ليس على طريـــق الســـب ولا على الردة وقصـد الكفر، ولكن على طريـق التأويـل والاجتهاد الخطـأ المفضـي إلى الهـوى والبدعـة من تشبيه أو نعت بجارحة أو نفي صفة كمال.

فهذا مما اختلف السلف والخلف في تكفير قائله ومعتقـده. واختلـف قـول مالـك وأصـحابه في ذلك، ولم يختلفوا في قتالهم إذا تحيزوا فئة وأنهم يسـتتابون فـإن تـابوا وإلا قتلـوا، وإنمـا اختلفـوا في المنفـرد منهم، فـأكثر قـول مالـك وأصـحابه تـرك القـول بتكفـيرهم وتـرك قتلهم والمبالغـة في عقـوبتهم وإطالـة سـجنهم حـتى يظهر إقلاعهم وتستبين توبتهم كمـا فعـل عمـر رضـي اللـه عنـه بصـبيغ، وهـذا قـول محمـد بن المواز في الخوارج وعبد الملك بن الماجشون، وقول سحنون في جميع أهل الأهواء، وبه فسـر قوله مالـك في الموطأ ومـا رواه عن عمـر بن عبد العزيز وجده وعمه من قولهم في القدريـة

يستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا، وقال عيسى عن ابن القاسم في أهل الأهواء من الإباضية والقدرية وشبههم ممن خالف الجماعة من أهل البدع والتحريف لتأويل كتاب الله تعالى يستتابون أظهروا ذلك أو أسروه، فإن تابوا وإلا قتلوا وميراثهم لورثتهم، وقال مثله أيضا ابن القاسم في كتاب محمد في أهل القدر وغيرهم، قال: واستتابتهم أن يقال لهم اتركوا ما أنتم عليه، ومثله له في المبسوط في الإباضية والقدرية وسائر أهل البدع، قال: وهم مسلمون وإنما قتلوا لرأيهم السوء، قال: وبهذا عمل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، قال ابن القاسم: من قال إن الله لم يكلم موسى تكليما استُتيب فإن تاب وإلا قتل.

وابن حبيب وغيره من أصحابنا يرى تكفيرهم وتكفير أمثالهم من الخوارج والقدرية والمرجئة، وقد روي أيضا عن سحنون مثله فيمن قال ليس لله كلام أنه كافر.

واختلفت الروايات عن مالك: فأطلق في رواية الشاميين أبي مسهر ومروان بن محمد الطاطري الكفر عليهم.

وقد شُووِرَ في زواج القدري فقال: لا تزوجه قال الله تعالى: (**وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ**)؛ وروى عنه أيضا: أهل الأهواء كلهم كفار؛ وقال: من وصف شيئا من ذات الله تعالى وأشار إلى شئ من جسده يد أو سمع أو بصر قطع ذلك منه لأنه شبه الله تعالى بنفسه؛

وقال فيمن قال القرآن مخلوق: كافر فـاقتلوه؛ وقـال أيضـا في روايـة ابن نـافع: يجلـد ويوجـع ضربا ويحبس حتى يتـوب؛ وفي روايـة بشـر بن بكر التنيسي عنه: يقتل ولا تقبل توبته.

قـال القاضـي أبـو عبـد اللـه البرنكـاني والقاضـي أبـو عبـد اللـه التسـتري من أئمـة العراقـيين من أصـحابنا: جوابـه مختلـف يقـال يقتل المستبصر الداعية.

وعلى هذا الخلاف اختلـف قولـه في إعـادة الصلاة خلفهم.

وحكى ابن المنذر عن الشافعي: لا يستتاب القدري، وأكثر أقوال السلف تكفيرهم.

وممن قال به الليث وابن عيينة وابن لهيعة، وروي عنهم ذلك فيمن قال بخلق القرآن، وقاله ابن المبـارك والأودي ووكيـع وحفص بن غيـاث وأبو إسحاق الفزاري وهشـيم وعلي بن عاصـم في آخـرين، وقـول أكـثر المحـدثين والفقهـاء والمتكلمين فيهم وفي الخوارج والقدرية وأهـل الأهواء المضلة وأصحاب البدع المتـأولين، وهـو قول أحمد بن حنبل. وكـذلك قـالوا في الواقفـة والشاكة في هذه الأصول.

وممن روي عنه معـنى القـول الآخـر بـترك تكفـــيرهم علي بن أبي طـــالب وابن عمـــر والحسن البصري، وهو رأي جماعة من الفقهـاء النظار والمتكلمين. واحتجـوا بتـوريث الصـحابة والتابعين ورثة أهل حـروراء ومن عُـرف بالقـدر

ممن مات منهم ودفنهم في مقابر المسلمين وجري أحكام الإسلام عليهم.

قال إسماعيل القاضي: وإنما قال مالك في القدرية وسائر أهل البدع يستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا، لأنه من الفساد في الأرض، كما قال في المحارب: إن رأى الإمام قتله وإن لم يقتل قتله، وفساد المحارب إنما هو في الأموال ومصالح الدنيا، وإن كان قد يدخل أيضا في أمر الدين من سبيل الحج والجهاد، وفساد أهل البدع معظمه على الدين، وقد يدخل في أمر الدنيا بما يلقون بين المسلمين من العداوة. اهـ. به منه أيضا، وهو بحول الله شافٍ في هذا المبحث كافٍ.

فصل
في الكلام على تحقيق القول في إكفار المتأولين.

وقد تقدم ذكر مذاهب السلف في إكفار أصحاب البدع والأهواء المتأولين، ممن قال قولا يؤديه مساقه إلى كفر، هو إذا وقف عليه لا يقول بما يؤديه قوله إليه، وعلى اختلافهم اختلف الفقهاء والمتكلمون في ذلك.

فمنهم من صوب التكفير الذي قال به الجمهور من السلف، ومنهم من أباه ولم يرَ

إخراجهم من سواد المؤمنين، وهو قول أكثر الفقهاء والمتكلمين.

وقالوا هم فساق عصاة ضلال، ونورثهم من المسلمين ونحكم لهم بأحكامهم.

ولهذا قال سحنون: لا إعادة على من صلى خلفهم في وقت ولا غيره، قال: وهو قول جميع أصحاب مالك، المغيرة، وابن كنانة وأشهب، قال: لأنه مسلم، وذنبه لم يخرجه من الإسلام.

واضطرب آخرون في ذلك ووقفوا عن القول بالتكفير أو ضده. واختلاف قولي مالك في ذلك وتوقفه عن إعادة الصلاة خلفهم منه.

وإلى نحو من هذا ذهب القاضي أبو بكر إمام أهل التحقيق والحق وقال إنها من المعوصات، إذ القوم لم يصرحوا باسم الكفر، وإنما قالوا قولا يؤدي إليه.

واضطرب قوله في المسألة على نحو اضطراب قول إمامه مالك بن أنس. حتى قال في بعض كلامه: إنهم على رأي من كفرهم بالتأويل لا تحل مناكحتهم ولا أكل ذبائحهم، ولا الصلاة على ميتهم، ويختلف في مواريثهم على الخلاف في ميراث المرتد.

وقال أيضا: نورث منهم ورثتهم من المسلمين ولا نورثهم من المسلمين. وأكثر ميله إلى ترك التكفير بالمآل.

وكذلك اضطرب فيه قول شيخه أبي الحسن الأشعري، وأكثر قوله ترك التكفير، وأن الكفر خصلة واحدة وهو الجهل بوجود الباري.

وقال مرة: من اعتقد أن الله جسم، أو المسيح أو بعض من يلقاه في الطرق فليس بعارف به وهو كافر.

ولمثل هذا ذهب أبو المعالي رحمه الله في أجوبته لأبي محمد عبد الحق، وكان سأله عن المسألة فاعتذر له بأن الغلط فيها يصعب، لأن إدخال كافر في الملة وإخراج مسلم عنها عظيم في الدين.

وقال غيرهما من المحققين: الذي يجب الاحتراز من التكفير في أهل التأويل، فإن استباحة دماء المصلين الموحدين خطر، والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم واحد.

وقد قال عليه السلام: **«فَإِذَا قَالُوهَا** - يعني الشهادة- **عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ»**.

فالعصمة مقطوع بها مع الشهادة، ولا ترتفع ويستباح خلافها إلا بقاطع، ولا قاطع من شرع ولا قياس عليه، وألفاظ الأحاديث الواردة في الباب معرضة للتأويل، فما جاء منها في التصريح بكفر القدرية وغيرهم، وقوله: **«لَا سَهْمَ لَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ»** وتسمية الرافضة بالشرك، وإطلاق اللعنة عليهم، وكذلك في الخوارج وغيرهم من أهل الأهواء، فقد يحتج بها من يقول بالتكفير.

وقد يجيب الآخر عنها بأنه قد ورد مثل هذه الألفاظ في الحديث في غير الكفرة على طريق التغليظ، وكفر دون كفر، وإشراك دون إشراك.

وقد ورد مثله في الزنا وعقوق الوالدين، والزور، وغير معصية. وإذا كان محتملا للأمرين فلا يقطع على أحدهما إلا بدليل قاطع.

وقوله في الخوارج: هم من شر البرية، وهذه صفة الكفار. وقال: هم شر قتيل تحت أديم السماء، طوبى لمن قتلهم أو قتلوه. وقال: فإذا وجدتموهم فاقتلوهم قتل عاد. وظاهر هذا الكفر، لا سيما مع تشبيههم بعاد، فيحتج به من يرى تكفيرهم.

فيقول له الآخر، إنما ذلك من قتلهم لخروجهم على المسلمين، وبغيهم عليهم، بدليله من الحديث نفسه «**يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلاَمِ**». فقتلهم ههنا حد لا كفر، وذكر عاد تشبيه للقتل وحله لا للمقتول، وليس كل من حكم بقتله يحكم بكفره، ويعارضه بقول خالد في الحديث: «دعني أضرب عنقه يا رسول الله»، فقال: «**لَعَلَّهُ يُصَلِّي**»، فإن احتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم: «**يَقْرَءُونَ القُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ**» فأخبر أن الإيمان لم يدخل قلوبهم، وكذلك قوله: «**يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَعُودَ السَّهْمُ إِلَى فوقِهِ**»، وبقوله: «**سَبَقَ**

الفَرْثَ وَالدَّمَ» يدل على أنه لم يتعلق من الإسلام بشيء.

أجابه الآخرون أن معنى **«لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ»** لا يفهمون معانيه بقلوبهم، ولا تنشرح له صدورهم، ولا تعمل به جوارحهم. وعارضوهم بقوله: «**وَيَتَمَارَى فِي الفُوقِ**»، وهذا يقتضي التشكك في حاله، وإن احتجوا بقول أبي سعيد الخدري في هذا الحديث: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**يَخْرُجُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ**» ولم يقل (من هذه)، وتحرير أبي سعيد رضي الله عنه الرواية وإتقانه اللفظ.

أجابهم الآخرون بأن العبارة بـ(في) لا تقتضي صريحا كونهم من غير الأمة، بخلاف لفظه (من) التي هي للتبعيض وكونهم من الأمة، مع أنه قد روي عن أبي ذر وعلي وأبي أمامة وغيرهم في هذا الحديث: «**يَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي**»، و: «**سَيَكُونُ مِنْ أُمَّتِي**»، وحروف المعاني مشتركة فلا تعويل على إخراجهم من الأمة بـ(في) ولا على إدخالهم فيما بـ(من)، لكن أبا سعيد رحمه الله أجاد ما شاء في التنبيه الذي نبه عليه، وهذا مما يدل على سعة فقه الصحابة وتحقيقهم للمعاني واستنباطها من الألفاظ وتحريرهم لها وتوقيهم في الرواية.

هذه المذاهب المعروفة لأهل السنة ولغيرهم من الفرق فيها مقالات كثيرة مضطربة سخيفة، أقربها قول جهم، ومحمد بن

شبيب: إن الكفر بالله الجهل بـه، لا يكفـر أحـد بغير ذلك.

وقال أبو الهذيل: إن كل متأول كـان تأويلـه تشبيها لله بخلقه وتجويرا له في فعلـه، وتكـذيبا لخبره فهو كافر؛ وكـل من أثبت شـيئا قـديما لا يقال له الله، فهو كافر.

وقول بعض المتكلمين إن كان ممن عـرف الأصل وبنى عليه، وكـان فيمـا هـو من أوصـاف اللـه فهـو كـافر، وإن لم يكن من هـذا البـاب ففاسق، إلا أن يكون ممن لم يعرف الأصل فهو مخطىء غير كافر.

وذهب عبيـد اللـه بن الحسـن العنـبري إلى تصويب أقوال المجتهدين في أصول الدين فيما عرضه للتأويل، وفارق في ذلك فـرق الأمـة، إذ أجمعوا سواه على أن الحـق في أصـول الـدين في واحـد والمخطىء فيـه آثم عـاص فاسـق، وإنما الخلاف في تكفيره.

وقد حكى القاضي أبـو بكـر البـاقلاني مثـل قـول عبيـد اللـه عن داوود الأصـبهاني. قـال: وحكى قوم عنهما أنهما قـالا ذلـك في كـل من علم اللـه من حالـه استفراغ الوسع في طلب الحق من أهل ملتنا، أو من غيرهم.

وقال نحو هذا القـول الجاحـظ وثمامـة في أن كثـيرا من العامـة والنسـاء والبلـه ومقلـدة النصارى واليهود وغيرهم لا حجة للـه عليهم، إذ لم تكن لهم طباع يمكن معها الاستدلال.

وقد نحا الغزالي قريبا من هـذا المنحى في كتاب التفرقة، وقائـل هـذا كلـه كـافر بالإجماع على كفـــر من لم يكفـــر أحـــدا من النصـــارى واليهـود، وكـل من فـارق دين المسـلمين، أو وقف في تكفيرهم، أو شك.

قال القاضي أبو بكـر رضـي اللـه عنـه: لأن التوقيف والإجماع على كفرهم، فمن وقـف في ذلك فقد كـذَّب النص والتوقيـف، أو شـك فيـه، والشك والتكذيب لا يقـع إلا من كـافر. اهــ. بـه منه أيضا، وهو مفيد غايـة، نسـأل اللـه التوفيـق والهداية.

فصل
في التعرض لبيان ما هو من المقالات كفر وما يتوقف أو يختلف فيه، وما ليس بكفر

اعلم أن تحقيق هذا الفصل وكشـف اللبس فيـه مـورده الشــرع ولا مجــال للعقــل فيــه، والفصل البين في هـذا أن كـل مقالـة صـرحت بنفي الربوبيـة أو الوحدانيـة أو عبـادة أحـد غيـر الله أو مع الله فهو كفر كمقالة الدهرية وسـائر فرق أصحاب الاثـنين من الديصـانية والمانويـة، وأشـباههم من الصـابئين والنصـارى والمجـوس

والـذين أشـركوا بعبـادة الأوثـان أو الملائكـة أو الشـيطاين أو الشـمس أو النجـوم أو النـار، أو أحد غير الله من مشـركي العـرب وأهـل الهنـد والصين والسودان، وغـيرهم ممن لا يرجـع إلى كتـاب، وكـذلك القرامطـة وأصـحاب الحلـول والتناسخ من الباطنية والطيـارة من الـروافض، وكذلك من اعترف بإلاهية الله ووحدانيته ولكنـه اعتقد أنه غير حي أو غير قديم، وأنه محـدث أو مصور، أو ادعى لـه ولـدا أو صـاحبة أو والـدا أو أنه متولد من شـيء، أو كـائن عنـه، أو أن معـه في الأزل شـيئا قـديما غـيره، أو أن ثم صـانعا للعالم سـواه أو مـدبرا غـيره، فـذلك كلـه كفـر بإجماع المسلمين. كقول الإلهيين من الفلاسفة والمنجمين والطبـــائعيين، وكـــذلك من ادعى مجالسة الله والعروج إليـه ومكالمتـه أو حلولـه في أحـد الأشـخاص، كقـول بعض المتصـوفة والباطنية، والنصارى، والقرامطة.

وكـذلك نقطـع على كفـر من قـال بقـدم العالم أو بقائـه، أو شـك في ذلـك على مـذهب بعض الفلاسـفة والدهريـة، أو قـال بتناسـخ الأرواح وانتقالهـا أبـد الآبـاد في الأشـخاص وتعذيبها أو تنعيمها فيها بحسـب زكائهـا وخبثهـا، وكـذلك من اعـترف بالإلهيـة والوحدانيـة ولكنـه جحد النبوة من أصلها عموما أو نبوة نبينا صـلى اللـه عليـه وسـلم خصوصـا أو أحـد من الأنبيـاء الذين نص الله عليهم بعد علمه بذلك، فهو كافر بلا ريب كالبراهمـة ومعظم اليهـود والأروسـية

من النصاري والغرابية من الـروافض الـزاعمين أن عليا كان المبعـوث إليـه جبريـل وكالمعطلـة والقرامطـــــة والإســــماعيلية والعبيديـــــة من الرافضة، وإن كان بعض هؤلاء قـد أشـركوا في كفر آخر مع من قبلهم.

وكـذلك من دان بالوحدانيـة وصـحة النبـوة ونبوة نبينا محمد عليه السلام، ولكن جـوز على الأنبيـاء الكـذب فيمـا أتـوا بـه، ادعى في ذلـك المصلحة بزعمه أو لم يدعها، فهو كافر بإجمـاع كالمتفلسفين وبعض الباطنية والــروافض وغلاة المتصوفة وأصحاب الإباحة، فـإن هـؤلاء زعمـوا أن ظواهر الشرع وأكـثر مـا جـاءت بـه الرسـل من الأخبار عمـا كـان ويكـون من أمـور الآخـرة والحشر والقيامة والجنة والنار ليس منها شيء على مقتضـى لفظهـا ومفهـوم خطابهـا، وإنمـا خاطبوا بها الخلـق على جهـة المصـلحة لهم، إذ لم يمكنهم التصريح لقصور أفهـامهم، فمضـمن مقــالاتهم إبطــال الشــرائع وتعطيــل الأوامــر والنواهي وتكذيب الرسـل والارتيـاب فيمـا أتـوا به.

وكـذلك من أضـاف إلى نبينـا عليـه السـلام تعمد الكذب فيما بلغه أو أخبر بـه، أو شـك في صدقه، أو سبه، أو قال إنـه لم يبلِّغ، أو اسـتخف به أو بأحد من الأنبيــاء، أو أزرى عليهم أو آذاهم أو قتل نبيا أو حاربه، فهو كافر بإجماع.

وكذلك يكفر من ذهب مذهب بعض القدماء في أن في كـل جنس من الحيـوان نـذيرا ونبيـا

من القردة والخنازير والدواب والدود وغير ذلك، ويحتج بقوله تعالى: **﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾** إذ ذلك يؤدي إلى أن يوصف أنبياء هذه الأجناس بصفاتهم المذمومة، وفيه من الإزراء على هذا المنصب المنيف ما فيه مع إجماع المسلمين على خلافه وتكذيب قائله.

وكذلك يكفر من اعترف من الأصول الصحيحة بما تقدم وبنبوة نبينا عليه السلام، ولكن قال: كان أسود أو مات قبل أن يلتحي، أو ليس الذي كان بمكة والحجاز، أو ليس بقرشي، لأن وصفه عليه السلام بغير صفاته المعلومة نفي له وتكذيب به.

وكذلك من ادَّعى نبوة أحد مع نبينا عليه السلام أو بعده كالعيسوية من اليهود القائلين بتخصيص رسالته إلى العرب، وكالخرمية القائلين بتواتر الرسل، وكأكثر الرافضة القائلين بمشاركة علي في الرسالة للنبي عليه السلام وبعده، وكذلك كل إمام عند هؤلاء يقوم مقامه في النبوة والحجة، وكالبزيغية والبيانية القائلين بنبوة بزيغ وبيان، وأشباه هؤلاء، أو من ادعى النبوة لنفسه أو جوز اكتسابها والبلوغ بصفاء القلب إلى مرتبتها كالفلاسفة وغلاة المتصوفة.

وكذلك من ادعى منهم أنه يوحى إليه، وإن لم يدع النبوة أو أنه يصعد إلى السماء ويدخل الجنة ويأكل من ثمارها ويعانق الحور العين، فهؤلاء كلهم كفار مكذبون للنبي عليه السلام لأنه أخبر أنه خاتم النبيين ولا نبي بعده، وأخبر

عن الله أنه خاتم النبيين، وأنه أرسل كافة للناس، وأجمعت الأمة على حمل هذا الكلام على ظاهره، وأن مفهومه المراد به دون تأويل ولا تخصيص، فلا شك في كفر هؤلاء الطوائف كلها قطعا إجماعا وسمعا.

وكذلك وقع الإجماع على تكفير كل من دافع نص الكتاب أو نص حديث مجمع على نقله مقطوع به، مجمع على حمله على ظاهره، كتكفير الخوارج بإبطال الرجم. ولهذا نكفر من لم يكفر من دان بغير ملة المسلمين من الملل، أو وقف فيهم، أو شك، أو صحح مذهبهم، أو أظهر مع ذلك الإسلام واعتقده واعتقد إبطال كل مذهب سواه فهو كافر بإظهاره ما أظهر من خلاف ذلك.

وكذلك نقطع بتكفير كل قائل قولا يتوصل به إلى تضليل الأمة، أو تكفير الصحابة كقول الكميلية من الرافضة بتكفير جميع الصحابة بعد موت النبي عليه السلام إذ لم تقدم عليا، وكفرت عليا إذ لم يتقدم ويطلب حقه في التقديم.

فهؤلاء قد كفروا من وجوه، لأنهم أبطلوا الشريعة بأسرها، إذ قد انقطع نقلها ونقل القرآن، إذ ناقلوه كفرة على زعمهم، وإلى هذا والله أعلم أشار مالك في أحد قوليه بقتل من كفر الصحابة.

ثم كفروا من وجه آخر بسبهم النبي صلى الله عليه وسلم على مقتضى قولهم، وزعمهم

أنه عهد إلى علي رضي الله عنه وهـو يعلم أنـه يكفر بعده على قولهم لعنة الله عليهم، وصـلى الله على رسوله وآله.

وكذلك نكفر بفعل ما أجمع المسـلمون أنـه لا يصدر إلا من كافر، وإن كان صـاحبه مصـرحا بالإسلام مع فعله ذلك الفعل، كالسجود للصـنم أو الشمس والقمـر والصـليب والنـار، والسـعي إلى الكنائس والبيع مع أهلها، (والـتزيي) بـزيهم من شـد الزنـانير وفحص الـرؤوس، فقـد أجمـع المسـلمون أن هـذا لا يوجـد إلا من كـافر وأن هـذه الأفعـال علامـة على الكفـر، وإن صـرح فاعلها بالإسلام.

وكذلك أجمع المسلمون على تكفير كل من استحل القتل، أو شـرب الخمـر، والـزنى، ممـا حرم الله بعد علمه بتحريمـه كأصـحاب الإباحـة من القرامطة وبعض غلاة المتصوفة.

وكذلك نقطـع بتكفيـر كـل من كـذب وأنكـر قاعـدة من قواعـد الشـرع، ومـا عـرف يقينـا بالنقل المتواتر من فعل الرسول عليـه السـلام ووقع الإجماع المتصل عليه، كمن أنكـر وجـوب الخمس الصـلوات، وعـدد ركعاتهـا وسـجداتها ويقول: إنما أوجب الله علينـا في كتابـه الصـلاة على الجملة وكونها خمسا، وعلى هذه الصفات والشـروط لا أعلمـه إذ لم يـرد بـه في القـرآن نص جلي، والخبر به عن رسول الله خبر واحد.

وكـذلك أجمـع المسـلمون على تكفـير من قـال من الخـوارج إن الصـلاة طـرفي النهـار،

وعلى تكفير الباطنية في قولهم إن الفرائض أسماء رجال أمروا (بولايتهم، والخبائث والمحارم أسماء رجال أمروا) بالبراءة منهم.
وقول بعض المتصوفة إن العبادة وطول المجاهدة إذا صفت نفوسهم أفضت بهم إلى إسقاطها وإباحة كل شيء لهم ورفع عهد الشرائع عنهم.

وكذلك إن أنكر منكر مكة، أو البيت، أو المسجد الحرام أو صفة الحج، أو قال: الحج واجب في القرآن واستقبال القبلة كذلك، ولكن كونه على هذه الهيئة المتعارفة، وأن تلك البقعة هي مكة والبيت والمسجد الحرام لا أدري هل هي تلك أو غيرها، ولعل الناقلين أن النبي عليه السلام فسرها بهذه التفاسير غلطوا أو وهموا.

فهذا ومثله لا مرية في تكفيره إن كان ممن يظن به علم ذلك، وممن خالط المسلمين وامتدت صحبته لهم، إلا أن يكون حديث عهد بالإسلام فيقال له: سبيلك أن تسأل عن هذا الذي لم تعلمه بعد كافة المسلمين، فلا تجد بينهم خلافا، كافة عن كافة إلى معاصري الرسول صلى الله عليه وسلم أن هذه الأمور كما قيل لك، وأن تلك البقعة هي مكة، والبيت الذي فيها هي الكعبة، والقبلة التي صلى لها الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون وحجوا إليها وطافوا بها، وأن تلك الأفعال هي صفات عبادة الحج والمراد به، وهي التي فعلها

النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون، وأن صفات الصلوات المذكورة هي التي فعلها النبي صلى الله عليه وسلم، وشرح مراد الله بذلك، وأبان حدودها، فيقع لك العلم كما وقع لهم ولا ترتب بذلك بعد، والمرتاب في ذلك والمنكر بعد البحث وصحبة المسلمين كافر باتفاق، ولا يعذر بقوله لا أدري ولا يصدق فيه، بل ظاهره التستر عن التكذيب، إذ لا يمكن أنه لا يدري، وأيضا فإنه إذا جوز على جميع الأمة الوهم والغلط فيما نقلوه من ذلك وأجمعوا أنه قول الرسول وفعله وتفسير مراد الله به أدخل الاستراية في جميع الشريعة، إذ هم الناقلون لها وللقرآن، وانحلت عرى الدين كرة، ومن قال هذا كافر.

وكذلك من أنكر القرآن أو حرفا منه، أو غيَّر شيئا منه، أو زاد فيه، كفعل الباطنية والإسماعيلية، أو زعم أنه ليس بحجة للنبي عليه السلام، أو ليس فيه حجة ولا معجزة، كقول هشام الفوطي ومعمر الضمري إنه لا يدل على الله ولا حجة فيه لرسوله، ولا يدل على ثواب ولا عقاب ولا حكم، ولا محالة في كفرهما بهذا القول. وكذلك نكفرهما بإنكارهما أن يكون في سائر معجزات النبي عليه السلام حجة له، أو في خلق السموات والأرض دليل على الله تعالى لمخالفتهم الإجماع والنقل المتواتر عن النبي عليه السلام باحتجاجه بهذا كله، وتصريح القرآن به.

وكذلك من أنكر شيئا مما نص فيه بعد علمه أنه من القرآن الذي في أيدي الناس، ومصاحف المسلمين، ولم يكن جاهلًا ولا قريب عهد بالإسلام، واحتج لإنكاره إما بأنه لم يصح النقل عنده ولا بلغه العلم به، أو لتجويز الوهم على ناقليه، فنكفره بالطريقين المتقدمين لأنه مكذب للقرآن، مكذب للنبي عليه السلام، لكنه يستتر بدعواه.

وكذلك من أنكر الجنة، أو النار، أو البعث، والحساب، أو القيامة، فهو كافر بإجماع للنص عليه وإجماع الأمة على صحة نقله متواترا.

وكذلك أقول فيمن اعترف بذلك ولكنه قال: إن المراد بالجنة والنار، والحشر والنشر، والثواب والعقاب، معنى غير ظاهره، وإنها لذات روحانية، ومعان باطنة كقول النصارى والفلاسفة والباطنية وبعض المتصوفة، وزعمهم أن معنى القيامة الموت وانتقاض هيئة الأفلاك، وتحليل العالم، كقول بعض الفلاسفة.

وكذلك نقطع بتكفير غلاة الرافضة في قولهم: إن الأئمة أفضل من الأنبياء. فأما من أنكر ما عرف بالتواتر من الأخبار والسير والبلاد التي لا ترجع إلى إبطال شريعة ولا يفضي إلى إنكار قاعدة من الدين كإنكار غزوة تبوك أو مؤتة، أو وجود أبي بكر وعمر، أو قتل عثمان وخلافة علي رضي الله عنهم، مما علم بالنقل ضرورة وليس في إنكاره جحد شريعة، فلا سبيل إلى تكفيره بجحد ذلك وإنكار وقوع العلم

له إذ ليس في ذلك أكثر من المباهتة كإنكار هشام وعباد وقعة الجمل ومحاربة علي من خالفه، فأما إن ضعف ذلك من أجل تهمة الناقلين ووهم المسلمين أجمع فنكفره بذلك لسريانه إلى إبطال الشريعة، فأما من أنكر الإجماع المجرد الذي ليس طريقه النقل المتواتر عن الشارع، فأكثر المتكلمين ومن الفقهاء والنظار في هذا الباب قالوا بتكفير كل من خالف الإجماع الصحيح الجامع لشروط الإجماع المتفق عليه عموما وحجتهم قوله تعالى: **(وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى)** الآية، وقوله عليه السلام: «**مَنْ خَالَفَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ**»، وحكوا الإجماع على تكفير من خالف الإجماع.

وذهب آخرون إلى الوقوف عن القطع بتكفير من خالف الإجماع الذي يختص بنقله العلماء.

وذهب آخرون إلى التوقف في تكفير من خالف الإجماع الكائن عن نظر كتكفير النظام بإنكاره الإجماع لأنه بقوله هذا مخالف إجماع السلف باحتجاجهم به، خارق للإجماع.

قال القاضي أبو بكر: القول عندنا أن الكفر بالله هو الجهل بوجوده والإيمان بالله هو العلم بوجوده، ولا يكفر أحد بقول ولا رأي إلا أن يكون هو الجهل بالله، فإن عصى بقول أو فعل نص الله ورسوله أو أجمع المسلمون أنه لا

يوجد إلا من كافر أو يقوم دليل على ذلك فقد كفر ليس لأجل قوله أو فعله لكن لما يقارنه من الكفر، فالكفر بالله لا يكون إلا بأحد ثلاثة أمور:

أحدها: الجهل بالله تعالى.

والثاني: أن يأتي فعلا أو يقول قولا يخبر الله ورسوله أو يجمع المسلمون أن ذلك لا يكون إلا من كافر، كالسجود للصنم والمشي إلى الكنائس بالتزام الزنانير وزي أصحابها في أعيادهم، أو يكون ذلك القول أو الفعل لا يمكن معه العلم بالله. قال: فهذان الضربان وإن لم يكونا جهلا بالله، فهما علم أن فاعلهما كافر منسلخ من الإيمان.

فأما من نفى صفة من صفات الله تعالى الذاتية، أو جحدها مستبصرا في ذلك كقوله: ليس بعالم ولا قادر ولا مريد ولا متكلم وشبه ذلك من صفات الكمال الواجبة له تعالى، فقد نص أئمتنا على الإجماع على كفر من نفى عنه تعالى الوصف بها وأعراه عنها.

وعلى هذا حمل قول سحنون من قال: ليس لله تعالى كلام، فهو كافر ولا يكفر المتأولين كما قدمناه.

فأما من جهل صفة من هذه الصفات، فاختلف العلماء ههنا فكفره بعضهم، وحكي ذلك عن أبي جعفر الطبري وغيره، وقال به أبو الحسن الأشعري مرة، وذهبت طائفة إلى أن هذا لا يخرجه عن اسم الإيمان، وإليه رجع

الأشعري قال: لأنه لم يعتقد ذلك اعتقادا يقطع بصوابه، ويراه دينا وشرعا، وإنما يكفر من اعتقد أن مقاله حق.

واحتج هؤلاء بحديث السوداء وأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما طلب منها التوحيد لا غير، وبحديث القائل: لئن قدر الله علي، وفي رواية فيه: لعلي أضل الله، ثم قال فغفر الله له، قالوا: ولو بوحث أكثر الناس عن الصفات وكوشفوا عنده لما وجد من يعلمها إلا الأقل.

وقد أجاب الآخر عن هذا الحديث بوجوه:

منها: أن "قدَر" بمعنى "قدْر"، ولا يكون شكه في القدرة على إحيائه بل في نفس البعث الذي لا يعلم إلا بشرع، ولعله لم يكن (ورد) عندهم به شرع يقطع عليه فيكون الشك به حينئذ كفرا، فأما إذا لم يرد به شرع فهو من مجوزات العقول. أو يكون "قدَر" بمعنى "ضيق"، ويكون ما فعله بنفسه إزراء عليها، وغضبا لعصيانها.

وقيل: قال ما قاله وهو غير عاقل لكلامه ولا ضابط للفظه لما إستولى عليه من الجزع والخشية التي أذهب لُبَّه فلم يؤاخذ به.

وقيل: كان هذا في زمن الفترة وحيث ينفع مجرد التوحيد.

وقيل: بل هذا من مجاز كلام العرب الذي صورته الشك ومعناه التحقيق، وهو يسمى تجاهل العارف، وله أمثلة في كلامهم كقوله تعالى: **(لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)**، وقوله:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ).

فأما من أثبت الوصف ونفى الصفة فقال أقول عالم ولكن لا علم له، ومتكلم ولكن لا كلام له، وهكذا في سائر الصفات على مذهب المعتزلة. فمن قال بالمآل لما يؤديه إليه قوله، ويسوقه إليه مذهبه، كفره، لأنه إذا نفى العلم انتفى وصف عالم، إذ لا يوصف بعالم إلا من له علم، فكأنهم صرحوا عنده بما أدى إليه قولهم. وهكذا عند هذا سائر فرق أهل التأويل من المشبهة والقدرية وغيرهم، ومن لم يؤاخذهم بمآل قولهم ولا ألزمهم موجب مذهبهم لم ير إكفارهم. قال: لأنهم إذا وقفوا على هذا قالوا: لا نقول ليس بعالم، ونحن ننتفي من القول بالمال الذي ألزمتموه لنا، ونعتقد نحن وأنتم أنه كفر. بل نقول: إن قولنا لا يؤول إليه على ما أصَّلناه.

فعلى هذين المأخذين اختلف الناس في إكفار أهل التأويل.

وإذا فهمته اتضح لك الموجب لاختلاف الناس في ذلك.

والصواب ترك إكفارهم، والإعراض عن الختم عليهم بالخسران، وإجراء حكم الإسلام عليهم في قصاصهم، ووراثاتهم، ومناكحاتهم، ودياتهم، والصلاة عليهم، ودفنهم في مقابر المسلمين، وسائر معاملاتهم. لكنهم يغلظ

عليهم بوجيع الأدب، وشديد الزجر والهجر حتى يرجعوا عن بدعتهم.

وهذه كانت سيرة الصدر الأول فيهم.

فقد كان نشأ على زمن الصحابة وبعدهم في التابعين من قال بهذه الأقوال من القدر ورأي الخوارج والاعتزال، فما أزاحوا لهم قبرا، ولا قطعوا لأحد منهم ميراثا، لكن هجروهم وأدبوهم بالضرب والنفي والقتل على قدر أحوالهم، لأنهم فساق ضلال عصاة أصحاب كبائر عند المحققين وأهل السنة ممن لم يقل بكفرهم منهم خلافا لمن رأى غير ذلك والله الموفق للصواب.

قال القاضي أبو بكر: وأما مسائل الوعد والوعيد والرؤية والمخلوق وخلق الأفعال وبقاء الأعراض والتولد وشبهها من الدقائق، فالمنع في إكفار المتأولين فيها أوضح إذ ليس في الجهل بشئ منها جهل بالله تعالى، ولا أجمع المسلمون على إكفار من جهل شيئا منها. وقد قدمنا في الفصل قبله من الكلام وصورة الخلاف في هذا ما أغنى عن إعادته بحول الله. اهـ. به منه أيضا، وفيه مقنع وشفاء ونفع.

فصل

اعلم أن هذا حكم المسلم الساب لله تعالى، وأما الذمي:

فروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه في ذمي تناول من حرمة الله تعالى غير ما هو عليه من دينه وحاج فيه، فخرج ابن عمر عليه بالسيف فطلبه فهرب.

وقال مالك في كتاب ابن حبيب والمبسوطة، وابن القاسم في المبسوط، وكتاب محمد وابن سحنون: من شتم الله تعالى من اليهود والنصارى بغير الوجه الذي به كفروا، قتل ولم يستتب. قال ابن القاسم: إلا أن يسلم. قال في المبسوط: طوعا. قال أصبغ: لأن الوجه الذي به كفروا هو دينهم وعليه عوهدوا من دعوى الصاحبة والشريك والولد، وأما غير هذا من الفرية والشتم فلم يعاهدوا عليه فهو نقض للعهد.

قال ابن القاسم في كتاب محمد: ومن شتم من غير أهل الأديان الله تعالى بغير الوجه الذي ذكر في كتابه قتل إلا أن يسلم.

وقال المخزومي في المبسوطة، ومحمد بن مسلمة وابن أبي حازم: لا يقتل حتى يستتاب، مسلما كان أو كافرا، فإن تاب وإلا قتل.

وقال مطرف وعبد الملك مثل قول مالك.

وقال أبو محمد بن أبي زيد: من سب الله بغير الوجه الذي به كفر قتل إلا أن يسلم.

وقد ذكرنا قول ابن الجلاب قبل، وقد ذكرنا قول عبيد الله وابن لبابة وشيوخ الأندلسيين

في النصرانية وفتياهم بقتلها لسبها الله والنــبي بالوجه الـذي كفـرت بـه، وإجمـاعهم على ذلـك وهو نحو القـول الآخـر فيمن سـب النـبي منهم بالوجـه الـذي كفـر بـه، ولا فـرق في ذلـك بين سب الله به وسب نبيه، لأنا عاهــدناهم على أن لا يظهروا لنا شيئا من كفرهم، وأن لا يســمعونا شيئا من ذلك، فمتى فعلوا شيئا منه فهــو نقض لعهدهم.

واختلف العلماء في الذمي إذا تزندق:

فقــال مالــك ومطــرف وابن عبــد الحكم وأصـبغ لا يقتـل لأنـه خـرج من كفـر إلى كفـر؛ وقال عبد الملك بن الماجشون يقتل لأنه دين لا يقر عليـه أحـد ولا توخـذ عليـه جزيـة؛ قـال ابن حـبيب: ولا أعلم من قالـه غـيره. اهــ. بـه منـه أيضـا، فتأملـه وتـدبره، جـزى اللـه خـير مقيـده ورضي عنه.

فصل

اعلم أن هذا حكم من صرح بسبه، وإضـافة ما لا يليق بجلاله وإلهيتـه. فأمـا مفـتري الكـذب عليه تبارك وتعالى بادعاء الإلهية أو الرسالة، أو النافي أن يكون الله خالقه أو ربه، أو قال ليس لي رب، أو المتكلم بمـا لا يعقـل من ذلـك في سكره أو غمرة جنونه، فلا خلاف في كفر قائـل ذلك ومدعيه مع سلامة عقله كما قدمناه، لكنــه

تقبل توبته على المشهور، وتنفعه إنابته، وتنجيه من القتل فيأته، لكنه لا يسلم من عظيم النكال، ولا يرفه عن شديد العقاب، ليكون ذلك زجرا لمثله عن قوله ولو عن العودة لكفره أو جهله إلا من تكرر ذلك منه، وعرف استهانته بما أتى به، فهو دليل على سوء طويته، وكذب توبته، وصار كالزنديق الذي لا نأمن من باطنه، ولا يقبل رجوعه.

وحكم السكران في ذلك حكم الصاحي.

وأما المجنون والمعتوه فما علم أنه قاله من ذلك في حال غمرته وذهاب ميزه بالكلية، فلا نظر فيه؛ وما فعله من ذلك في حال ميزه وإن لم يكن معه عقله وسقط تكليفه، أدب على ذلك لينزجر عنه كما يؤدب على قبائح الأفعال، ويوالى أدبه على ذلك حتى ينكف عنه كما تؤدب البهيمة على سوء الخلق حتى تراض. وقد حرَّق علي بن أبي طالب من ادعى له الإلهية، وقد قتل عبد الملك بن مروان الحارث المتنبئ وصلبه، وفعل ذلك غير واحد من الخلفاء والملوك بأشباههم، وأجمع علماء وقتهم على صواب فعلهم. والمخالف في ذلك من كفرهم كافر.

وأجمع فقهاء بغداد أيام المقتدر من المالكية وقاضي قضاتها أبو عمر المالكي على قتل الحلاج، وصلبه لدعواه الإلهية والقول بالحلول وقوله "أنا الحق" مع تمسكه في الظاهر بالشريعة، ولم يقبلوا توبته؛ وكذلك

حكمـوا في ابن أبي العزاقـير وكـان على نحـو مـذهب الحلاج بعـد هـذا أيـام الراضـي وقاضـي قضـاة بغـداد إذ ذاك أبـو الحسـين بن أبي عمـر المالكي.

وقـال ابن عبـد الحكم في المبسـوط: من تنبأ قتل؛ وقال أبو حنيفة وأصحابه: من جحد أن اللـه خالقـه أو ربـه أو قـال ليس لي رب فهـو مرتد؛ وقال ابن القاسـم في كتـاب ابن حـبيب، ومحمد في العتبية فيمن تنبأ: يستتاب أسر ذلك أو أعلنه وهو كالمرتـد، وقالـه سـحنون وغـيره، وقاله أشهب في يهودي تنبأ وادعى أنـه رسـول إلينا، إن كان معلنا بذلك استتيب فـإن تـاب وإلا قتل.

وقال أبو محمد بن أبي زيد فيمن لعن بارئه وادعى أن لسانه زل وإنما أراد لعن الشياطين، يقتل بكفره ولا يقبل عـذره، وهـذا على القـول الآخر في أنه لا تقبل توبته.

وقال أبو الحسن القابسي في سكران قال "أنا الله أنـا اللـه" إن تـاب أدب، فـإن عـاد إلى مثل قوله طولب مطالبة الزنديق، لأن هذا كفر المتلاعبين. اهـ. به منه أيضا.

قلتُ: وما أفتى بـه قاضـي بغـداد أبـو عمـر المالكي من قتل الحلاج، وكذا غـيره ومثـل ابن أبي العزاقـير، هـو مـذهب أهـل الظـاهر عملا بمقتضى اللفظ، ومذهب أهل الحق خلافه فيمـا يصدر من العـارفين من الشـطحات، ومن ذلـك قـول بعضـهم: "خضـنا بحـرا وقفت الأنبيـاء

بساحله"، وتنسب هذه المقالة أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه، لكن لم يصح ذلك، أي نسبتها إليه، قاله ابن حجر في فتاويه، قال: وإن صح أنه قالها وجب صرفها عن ظاهرها وتعين تأويلها بما يليق بجلالة قدره، بأن يقال وقفوا بساحله ليعبروا فيه من رأوا فيه أهلية العبور، أو ليدركوا من أشرف على الغرق، أو نحو ذلك مما فيه نفع للغير، كما يقف الأفضل يشفع في دخول الجنة ويدخل المفضول. قال بعضهم: أو يقال وقوفهم وقوف صدور لا وقوف ورود. وعلى كل حال فلا يظن بأبي يزيد إلا ما يليق بجلالة قدره وعلو مقامه.

قال: وأجاب بعضهم بأنهم وقفوا بساحل السلامة ليتبعهم فيه عموم الناس لكونه ظاهرا مبلغا محل السلامة من غير تعين، وخاض الخواص في غوامضه وأدركوا منه شيئا من المعارف والأحوال لم يدركها من وقف من أولئك العامة بالساحل.

وقال في الطرائف والتلائد: وفسرها أئمة الحق بأن الأولياء يخوضون في بحر من المعارف خاضه الأنبياء ووقفوا بساحله، فالأولياء في البحر يخوضون لجه، والأنبياء خاضوا تلك اللجج وعبروا إلى ساحلها. فنهاية الأولياء الخوض في المعارف، وهو بداية الأنبياء، ونهايتهم العبور إلى الساحل، (**وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى**). هذا ما فسَّره به من

لم يُبقِــه على ظــاهره من العُلمــاء، وبكلامهم قامت الحجة.

وقد كشف شيخنا أبو العباس مولانا أحمـد بن مولانا محمد فتحا التجـاني المضـاوي رحمـه الله تعـالى ورضـي عنـه وعنـا بـه عن المسـألة الغطـا، وأزاح بعواصـف علومـه اللدنيـة عنهـا سحب الجهل والخطا، وأجاب عنها بجـواب يقـع من المنصف موقعا بليغا نافعا، يدل على اتساع عارضته وكونه بين الشـريعة والحقيقـة جامعـا. ونص ما أجاب به كما في الجـواهر رضـي اللـه عنه:

«**اعْلَمْ أَنَّ الأَصْلَ الأَصِيلَ** الَّذِي لَا مَحِيـدَ عَنْهُ ، وَلَا بُدَّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ اعْتِقَادِهِ، وَمَنْ خَرَجَ عَنْهُ خَـرَجَ عَنْ قَاعِـدَةِ الْإِيمَـانِ، هُـوَ أَنَّ الْـحَقَّ سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى تَجَلَّى بِعُلُـوِّ كِبْرِيَائِهِ وَعَظَمَتِـهِ وَجَلَالِــهِ، وَعُمُــوم صِــفَاتِهِ العَلِيَّةِ وَأَسْــمَائِهِ وَخَوَاصـِّهَا، وَأَنَّ ذَلِـكَ التَّجَلِّيَ لَيْسَ هُـوَ فِي كُـلِّ شَخْصٍ كَمَا عِنْدَ الآخَرِ، وَلَا عَلَى قَانُونٍ وَاحِـدٍ وَلَا عَلَى كَيْفِيَةٍ مُطَّرَدَةٍ، بَـلِ الْبَصَـائِرُ فِيـهِ مُتَفَاوِتَـةٌ، وَأَسْـرَارُ الْــخَلْقِ فِي ذَلِـكَ مُتَبَايِنَــةٌ مِنْ كَثِـيرٍ وَقَلِيـلٍ، فَهُـوَ يَتَجَلَّى لِكُـلِّ شَـخْصٍ عَلَى قَـدْرِ طَاقَتِهِ، وَعَلَى قَدْرِ مَا تَسَعُهُ حَوْصَلَتُهُ مِنْ تَجَلِّي الْـجَمَالِ القُدْسِـيِّ، الَّذِي لَا تُـدْرَكُ لَـهُ غَايَـةٌ، وَلَا يُوقَفُ لَهُ عَلَى حَدٍّ وَلَا نِهَايَةٍ.

وَإِذَا عَرَفْتَ هَذَا، فَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي فِي مَرْتَبَتِهِ صَلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ ، مِنْ تَجَلِّيَـاتِ الصِّفَاتِ

وَالأَسْمَاءِ وَالحَقَائِق، لَا مَطْمَعَ (فِي دَرْكِهِ لِأَحَدٍ مِنْ أَكَابِر أُولِي العَزْمِ مِنَ الرُّسُل، فَضْلًا عَمَّنْ دُونَهُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَإِنَّ الَّذِي فِي مَرْتَبَةِ أُولِي العَزْمِ مِنَ الرُّسُل، لَا مَطْمَعَ لِأَحَدٍ فِي دَرْكِهِ مِنْ عُمُوم الْمُرْسَلِينَ، وَالَّذِي فِي مَرْتَبَةِ الرِّسَالَةِ، لَا مَطْمَعَ لَهُ فِي دَرْكِهِ لِأَحَدٍ مِنْ عُمُوم النَّبِيِّينَ، وَالَّذِي فِي مَرْتَبَةِ النُّبُوءَةِ لَا مَطْمَعَ فِي دَرْكِهِ لِأَحَدٍ مِنْ عُمُوم الأَقْطَاب، وَإِنَّ الَّذِي فِي مَرْتَبَةِ القُطْبَانِيَةِ لَا مَطْمَعَ لِأَحَدٍ فِي دَرْكِهِ مِنْ عُمُوم) الصِّدِّيقِينَ.

وَإِذَا كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ، وَعَرَفْتَ هَذَا التَّفْصِيلَ، فَاعْلَمْ أَنَّ الشَّطَحَاتِ الَّتِي صَدَرَتْ مِنْ أَكَابِرِ العَارِفِينَ، مِمَّا يُوهِمُ، أَوْ يَقْتَضِي أَنَّ لَهُمْ شُفُوفًا وَعُلُوًّا عَلَى مَرَاتِبِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، مِثْلَ قَوْلِ أَبِي يَزِيدٍ البِسْطَامِي: "خُضْنَا بَحْراً وَقَفَتِ الأَنْبِيَاءُ بِسَاحِلِهِ"، وَمِثْلَ قَوْلِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلِي: "مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أُوتِيتُمُ اللَّقَبَ وَأُوتِينَا مَا لَمْ تُؤْتَوْهُ"، وَمِثْلَ قَوْلِ ابْنِ الْفَارِضِ:

وَدُونَكَ بَحْرًا خُضْتُهُ وَقَفَ الأُلَى=بِسَاحِلِهِ صَوْنًا لِمَوْضِعِ حُرْمَتِي

وَكَقَوْلِهِ:

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ابْنَ آدَمَ صُورَةً=فَلِي فِيهِ مَعْنَى شَاهِدٌ بِالْأُبُوَّةِ

إِلَى أَنْ قَالَ فِيهِ:

وَفِي الْمَهْدِ حِزْبِي الأَنْبِيَاءُ وَفِي عَنَا=صِرِ لَوْحِيَ الْمَحْفُوظُ وَالفَتْحُ سُورَتِي

وَكَقَوْلِهِ أَيْضًا:
فَحَيَّ عَلَى جَمْعِي القَدِيمِ الَّذِي بِـهِ=وَجَـدْتُ كُهُولَ الحَيِّ أَطْفَالَ صَبْوَتِي
وَمِنْ فَضْـــلِ مَــــا أَسْـــأَرْتُ شُـــرْبُ مُعَاصِرِي=وَمَنْ كَانَ قَبْلِي فَالفَضَائِلُ فُضْلَتِي
وَكَقَوْلِهِ فِي الكَافِيَةِ:
كُلُّ مَنْ فِي حِمَاكَ يَهْـوَاكَ لَكِنْ=أَنَـا وَحْـدِي بِكُلِّ مَنْ فِي حِمَاكَ
وَكَقَوْلِ بَعْضِ العَارِفِينَ: نِهَايَـةُ أَقْـدَامِ النَّبِيِّينَ بِدَايَةُ أَقْدَامِ الأَوْلِيَاءِ.
وَالْجَوَابُ عَنْ هَذِهِ الشَّطَحَاتِ:
أَنَّ لِلْعَـــارِفِ وَقْتَـــا يَطْـــرَأُ عَلَيْـــهِ الْفَنَـــاءُ وَالْاِسْتِغْرَاقُ، حَتَّى يَخْرُجَ بِـذَلِكَ عَنْ دَائِرَةِ حِسِّـهِ وَشُهُودِهِ، (وَيَخْرُجَ عَنْ جَمِيعِ مَدَارِكِـهِ وَوُجُـودِهِ)، لَكِنْ تَـارَةً يَكُـونُ ذَلِـكَ فِي ذَاتِ الْـحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَـالَى، فَيَتَـدَلَّى لَـهُ مِنْ قُـدُّوسِ اللَّاهُـوتِ مِنْ بَعْضِ أَسْرَارِهِ فَيْضًا، يَقْتَضِي مِنْهُ أَنَّهُ يَشْهَدُ ذَاتَـهُ عَيْنَ ذَاتِ الْـحَقِّ لِمَحْقِـهِ فِيهَـا وَاسْـتِهْلَاكِهِ فِيهَـا، وَيُصَرِّحُ فِي هَذَا المَيْدَانِ بِقَوْلِهِ:
"سُبْحَانِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَحْدِي، إِلَى غَيْرِهِ مِنَ التَّسْـبِيحَاتِ، وَكَقَوْلِـهِ: "جَلَّتْ عَظَمَتِي وَتَقَـدَّسَ كِبْرِيَائِي"، وَهُوَ فِي ذَلِكَ مَعْذُورٌ، لِأَنَّ العَقْلَ الَّذِي يُمَيِّزُ بِـهِ الشَّـوَاهِدَ وَالعَوَائِدَ، وَيُعْطِيـهِ تَفْصِـيلَ الْـمَرَاتِبِ، بِمَعْرِفَـةِ كُـلٍّ بِمَـا يَسْـتَحِقُّهُ مِنَ الصِّفَاتِ، غَابَ عَنْهُ وَانْمَحَقَ، وَتَلَاشَى وَاضْمَحَلَّ. وَعِنْدَ فَقْدِ هَذَا العَقْلِ وَذَهَابِهِ، وَفَيْضِ ذَلِكَ السِّـرِّ القُدْسِيِّ عَلَيْهِ، تَكَلَّمَ بِمَا تَكَلَّمَ بِهِ.

فَالْكَلَامُ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ خَلَقَهُ اللهُ فِيهِ نِيَابَةً عَنْهُ، فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِ الْحَقِّ لَا بِلِسَانِهِ وَمُعْرِبًا عَنْ ذَاتِ الْحَقِّ لَا عَنْ ذَاتِهِ. وَمِنْ هَذَا الْمَيْدَانِ قَوْلُ أَبِي يَزِيدِ الْبِسْطَامِي: "سُبْحَانِي مَا أَعْظَمَ شَأْنِي"، وَقَوْلُ الْحَلَّاجِ: "أَنَا الْحَقُّ"، وَ: "مَا فِي الْجُبَّةِ إِلَّا اللهُ"، وَكَقَوْلِ بَعْضِهِمْ: "فَالأَرْضُ أَرْضِي وَالسَّمَاءُ سَمَائِي"، وَكَقَوْلِ التُّسْتَرِيِّ:

أُنْظُرْ أَنَا شَيْءٌ عَجِيبٌ لِمَنْ رَآنِي=أَنَا الْمُحِبُّ وَالحَبِيبُ مَا ثَمَّ ثَانِي

وَكَقَوْلِهِ أَيْضًا:

أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا. البَيْتُ.

وَأَقْوَالُ ابْنِ الفَارِضِ مِثْلُ هَذِهِ كَثِيرَةٌ. وَهَذَا مِمَّا يُعْطِيهِ الفَنَاءُ وَالِاسْتِغْرَاقُ فِي ذَاتِ الْحَقِّ وَهَذَا أَمْرٌ خَارِجٌ عَنِ الْقَالِ يُدْرَكُ بِالذَّوْقِ وَصَفَاءِ الأَحْوَالِ، فَلَا يَعْلَمُ حَقِيقَتَهُ إِلَّا مَنْ ذَاقَهُ.

وَتَارَةً يَكُونُ الِاسْتِغْرَاقُ لِلْعَارِفِ وَالْفَنَاءُ فِي ذَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِغَيْبَتِهِ عَنْ ذَاتِهِ فِي ذَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَتَدَلَّى لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبَعْضِ أَسْرَارِهِ، فَإِذَا كُسِيَ ذَلِكَ السِّرَّ، فَلَا يَشْهَدُ ذَاتَهُ، إِلَّا ذَاتَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُعْلِمُهُ (اللهُ) بِبَعْضِ مَا اخْتَصَّ بِهِ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْخُصُوصِيَاتِ، الَّتِي لَا مَطْمَعَ فِيهَا لِغَيْرِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَتَكَلَّمُ بِلِسَانِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِيَابَةً عَنْهُ، بِبَعْضِ مَا اخْتَصَّ (اللهُ) بِهِ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْخُصُوصِيَاتِ الْعِظَامِ، مِمَّا لَهُ بِهِ عُلُوٌّ وَشَرَفٌ،

(وَشُـــفُوفٌ) عَلَى مَـــرَاتِبِ جَمِيـــعِ الْأَنْبِيَـــاءِ وَالْـــمُرْسَلِينَ، فَهُـوَ يُخْبِـرُ عَمَّا أَعْطَى اللـهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ مُخْبِـراً عَنْ نَفْسِـهِ، فَمَنْ سَمِعَهُ يَظُنُّ أَنَّهُ يُنْسِبُهُ لِنَفْسِهِ، وَهُـوَ إِنَّمَـا نَسَـبَهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ لِغَيْبَتِـهِ فِي ذَاتِـهِ، فَإِذَا انْفَصَلَ عَنْ هَذَا الْفَنَـاءِ وَالْاِسْتِغْرَاقِ، وَرَجَـعَ لِـحِسِّهِ وَشَاهِدِهِ، تَبَرَّأَ مِنْ ذَلِكَ، لِعِلْمِهِ بِمَرْتَبَتِهِ.

وَسُقْ هَذَا الْـمَسَاقِ فِي كُلِّ مَـا تَسْـمَعُهُ مِنَ الشُّـيُوخِ، مِمَّا يَقْتَضِـي أَنَّ لَـــهُمْ شُـفُوفًا عَلَى مَرَاتِبِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْـمُرْسَلِينَ، مِثْلِ قَوْلِ الدُّسُوقِي رَحِمَهُ اللهُ:

أَنَا كُنْتُ مَـعْ نُـوحٍ بِمَـا شَـهِدَ الْـوَرَى=بُحُـورًا وَطُوفَانًا عَلَى كَفِّ قُدْرَتِي

أَنَا كُنْتُ فِي رُؤْيَا الـذَّبِيحِ فِـدَاءَهُ=وَمَـا أُنْـزِلَ بِالكَبْشِ إِلَّا بِفُتُوَّتِي

أَنَـــا كُنْتُ مَـــعْ أَيُّوبَ فِي زَمَنِ البَلَا=وَمَـــا شُفِيَتْ بَلْوَاهُ إِلَّا بِدَعْوَتِي

وَأَكْثَرَ مِنْ هَذَا رَضِـيَ اللـهُ عَنْـهُ، وَذَلِـكَ كُلُّهُ لِفَنَائِهِ فِي ذَاتِ النَّبِيِّ صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ مُتَرْجِمًا عَنْ مَقَامِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَهَذَا يُغْنِي فِي الْجَوَابِ، وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ مَـا لَا يَلْحَقُهُ العَقْلُ، وَلَا يَأْتِي عَلَيْهِ الْقَـوْلُ، وَلَا يَحِـلُّ ذِكْرُهُ لِبُعْدِهِ عَنِ الْأَفْهَامِ، وَالسَّلَامُ.

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ فَنَاءِ الْعَارِفِ فِي ذَاتِ اللـهِ، وَفِي ذَاتِ النَّبِيِّ صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، لَيْسَ هَذَا لِكُـلِّ الْعَـارِفِينَ، وَلَا فِي كُـلِّ وَقْتٍ مِنْ

أَوْقَاتِ مَنْ وَقَعَ لَهُ، بَلْ هُوَ خَاصٌّ بِبَعْضِ الأَوْقَاتِ لِبَعْضِ العَارِفِينَ فَقَطْ، وَالسَّلَامُ.

اسْتِدْرَاكٌ: البَحْرُ الَّذِي خَاضَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَوَقَفَتْ الْأَنْبِيَاءُ بِسَاحِلِهِ، هِيَ بِحَارُ الْحَقَائِقِ الَّتِي تَجَلَّى اللهُ بِهَا عَلَيْهِ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ أَكَابِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ فَمَنْ دُونَهُمْ إِلَى هَلُمَّ جَرًّا. فَإِنَّ تِلْكَ الْحَقَائِقَ لَوْ تَجَلَّى اللهُ بِهَا لِلنَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ (وَلَوْ بِأَقَلِّ قَلِيلٍ مِنْهَا)، لَصَارُوا مَحْضَ العَدَمِ فِي أَسْرَعَ مِنْ طَرْفَةِ الْبَصَرِ، وَإِنَّمَا وَقَفُوا بِسَاحِلِ تِلْكَ التَّجَلِّيَاتِ، (وَهِيَ التَّجَلِّيَاتُ) الَّتِي خَصَّهُمْ اللهُ بِهَا مِنْ طُلُوعِ الْجَلَالِ وَالْجَمَالِ وَالْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ، فَتِلْكَ الْحَقَائِقُ الَّتِي هِيَ لَهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى حَقَائِقِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الْمُنْكَشِفَةِ لَهُ خُصُوصًا كَالسَّاحِلِ لِلْبَحْرِ، فَإِنَّهُمْ تَكَلَّمُوا بِلِسَانِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِغَيْبَتِهِمْ فِيهِ وَفَنَائِهِمْ فِيهِ.

ثُمَّ قَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَأَمَّا مَا وَرَاءَ هَذَا مِنَ الْعِبَارَةِ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَحْرِ فَلَا يَحِلُّ ذِكْرُهُ، فَضْلًا عَنْ كَتْبِهِ فِي الْأَوْرَاقِ، وَالسَّلَامُ».

وعلى التأويل فالمنصف يعلم أن أبا يزيد لم ينطق بنفي الخوض، بل إنما قال: وقفت الأنبياء بساحله، وبقي كلامه محتملا لما فسروه به من العبور. اهـ. بخ. بنقل صاحب الجيش.

قلتُ: وبه تعلم مقام سيدنا رضي الله عنه في الحقائق والعرفان، الذي تقاعس عنه الصديقون وأهل الدائرة والديوان، فضلا عن

غيرهم من الأوتاد والأبـدال، والنجبـاء والأغـوات والأقطاب وأرباب الأحوال، جزاه الله عنـا وعن المسلمين أحسن الجزاء، وجعلنا من أهل حزبه بجاه صاحب الحوض المورود والمقام المحمـود والتاج واللواء.

فصل

في حكم من تكلم من سـقط القـول وسخف اللفـظ ممن لم يضـبط كلامـه، وأهمـل لسـانه، بمـا يقتضـي الاسـتخفاف بعظمـة ربـه وجلالة مولاه، أو يمثـل بعض الأشـياء ببعض مـا عظم اللـه من ملكوتـه، أو نـزع من الكلام لمخلـوق بمـا لا يليـق إلا في حـق خالقـه غـير قاصد للكفر والاستخفاف ولا عامد للإلحاد، فإن تكرر هذا منه وعُرف بـه دل على تلاعبـه بدينـه واسـتخفافه بحرمـة ربـه وجهلـه بعظيم عزتـه وكبريائه، وهذا كفر لا مرية فيه، وكذلك إن كان ما أورده يوجب الاستخفاف والتنقيص لربه.

وقد أفـتى ابن حـبيب وأصـبغ بن خليـل من فقهاء قرطبة بقتل المعـروف بـابن أخي عجب، وكان خرج يومًا وقـد أخـذه المطـر، فقـال: بـدأ الخراز يرش جلوده، وكان بعض الفقهاء بها أبـو زيد صاحب الثمانية وعبد الأعلى بن وهب وأبان بن عيسى قد توقفوا عن سـفك دمـه، وأشـاروا إلى أنـه عبث من القـول يكفي فيـه الأدب،

وأفتى بمثله القاضى حينئذ موسى بن زياد، فقال ابن حبيب: دمه في عنقي، يشتم ربا عبدناه ثم لا ننتصر له؟ إنَّا إذًا لعبيد سوء، ما نحن له بعابدين، وبكى ورفع المجلس إلى الأمير بها عبد الرحمن بن الحكم الأموي، وكانت عجب عمة هذا المطلوب من حظاياه، وأُعلم باختلاف الفقهاء، فخرج الإذن من عنده بقول ابن حبيب وصاحبه وأمر بقتله، فقتل بحضرة الفقيهين، وعزل القاضى لتهمته بالمداهنة في هذه القصة ووبَّخَ بقية الفقهاء وسبهم.

وأما من صدرت عنه من ذلك الهنة الواحدة، والفلتة الشاردة، ما لم يكن تنقصا وإزراء فيُعاقب عليها ويؤدب بمقدار مقتضاها وشنعة معناها، وصورة حال قائلها، وشرح سببها ومقارنها. وقد سئل ابن القاسم رحمه الله عن رجل نادى رجلا باسمه فأجابه: لبيك اللهم لبيك، قال: إن كان جاهلا أو قاله على وجه سفهٍ فلا شيء عليه. قال القاضي رحمه الله: وشرح قوله أنه لا قتل عليه، والجاهل يزجر ويعلم، والسفيه يؤدب، ولو قالها على اعتقاد إنزاله منزلة ربه لكفر، هذا مقتضى قوله. وقد أسرف كثير من سخفاء الشعراء ومتهميهم في هذا الباب، واستخفوا عظيم هذه الحرمة، فأتوا من ذلك بما ننزه كتابنا ولساننا وأقلامنا عن ذكره، ولو أنا قصدنا نص مسائل

حكيناها لما ذكرنا شيئا مما يثقل ذكره علينا مما حكيناه في هذه الفصول.

وأما ما ورد في هذا من أهل الجهالة وأغاليظ اللسان، كقول بعض الأعراب: "رب العباد ما لنا وما لكا، قد كنت تسقينا فما بدا لكا، أنزل علينا الغيث لا أبا لكا"، في أشباه هذا فلا يصدر إلا من جاهل يجب زجره وتعليمه. قال أبو سليمان الخطابي: وهذا تهور من القول والله منزه عن هذه الأمور. اهـ. به منها أيضا، وفيه كفاية لمن سبقت له العناية.

فصل

وحكم من سب سائر أنبياء الله وملائكته واستخف بهم أو كذبهم فيما أتوا به حكم نبينا صلى الله عليه وسلم على ما قدمناه. قال مالك: من شتم الأنبياء أو واحدا أو تنقصه قتل، ومن سبهم من أهل الذمة قتل إلا أن يسلم، وهذا فيمن تكلم فيهم على جملة أو على معين نص عليه في القرآن أو الحديث أو الاجماع، وأما من لم يثبت تعيينه فليس حكمه كذلك، وإنما يزجر ويؤدب بقدر المقول فيه.

وأما إنكار نبوتهم أو كون الآخر من الملائكة فإن كان المتكلم في ذلك من أهل العلم فلا حرج لاختلاف العلماء في ذلك، وإن كان من عوام الناس زُجر عن الخوض في مثل هذا،

فإن عاد أُدِّب إذ ليس لهم الكلام في مثل هـذا، وقد كره السلف الكلام في مثل هذا مما ليس تحته عمل لأهل العلم، فكيف للعامة. اهـ. بـه من الشفاء أيضا، وهو كفيل في هـذا الفصـل بالمراد، موف بما لا مزيد عنه في ردع ذوي الزيغ والفساد.

فصل

اعلم أن من استخف بالقرآن أو المصحف، أو بشيء منه، أو سبهما، أو جحده أو حرفا منه أو آية، أو كذب به، أو بشيء منه مما صرح بـه فيه من حكم، أو خبر، أو أثبت ما نفاه، أو نفى ما أثبته على علم منه بذلك، أو شك في شيء من ذلك، فهو كافر عند أهل العلم بإجماع.

قال الله تعالى: (**وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ**) إلى: (**حَمِيدٍ**).

عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**الْمِرَاءُ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ**» تؤول بمعنى الشك وبمعنى الجدال.

وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ جَحَدَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَقَدْ حَلَّ ضَرْبُ عُنُقِهِ، وَكَذَلِكَ إِنْ جَحَدَ التَّوْرَاةِ، وَالْإِنْجِيلِ، وَكُتُبِ اللهِ الْمُنَزَّلَةِ أَوْ كَفَرَ بِهَا أَوْ لَعَنَهَا أَوْ سَبَّهَا أَوْ اسْتَخَفَّ**

بِهَا فَهُوَ كَـافِرٌ». وقـد أجمـع المسـلمون أن القرآن المتلو في جميع أقطار الأرض المكتـوب في المصـحف بأيـدي المسـلمين ممـا جمعـه الـــدفتان من أول: (**الْـــحَمْدُ للـــهِ رَبِّ الْعَالَـــمِينَ**) إلى آخــر: (**قُـلْ أَعُـوذُ بِـرَبِّ النَّاسِ**) أنه كلام الله ووحيه المـنزل على نبيـه محمد صلى الله عليه وسلم، وأن جميع ما فيـه حق، وأن من نقص منه حرفـا قاصـدا لـذلك، أو بدله بحرف آخر مكانه، أو زاد فيه حرفا مما لم يشتمل عليه المصحف الذي وقع الإجمـاع عليـه وأجمـع على أنـه ليس من القـرآن عامـدا لكـل هذا، أنه كافر.

ولهذا رأى مالك قتل من سب عائشة رضي الله عنها بالفرية لأنه خالف القرآن، ومن خالف القرآن قتل، أي لأنه كذب بما فيه.

وقال ابن القاسم: من قال إن الله لم يكلم موسـى تكليمـا يقتـل، وقالـه عبـد الـرحمن بن مهدي.

وقـــال محمـــد بن ســـحنون فيمن قـــال: المعوذتان ليستا من كتاب الله، تضرب عنقه إلا أن يتوب. وكذلك كل من كذب بحرف منه.

قال: وكذلك إن شهد شـاهد على من قـال: إن اللـه تعـالى لم يكلم موسـى تكليمـا، وشـهد آخر عليـه أنـه قـال: إن اللـه مـا اتخـذ إبـراهيم خليلا، لأنهما اجتمعا على أنه كـذب النـبي صـلى الله عليه وسلم.

وقال أبو عثمان بن الحداد: جميع من ينتحل التوحيد متفقون أن الجحد لحرف من التنزيل كفر.

وكان أبو العالية إذا قرأ عنده رجل لم يقل له: ليس كما قرأت ويقول: أمَّا أنا فأقرأ كذا. فبلغ ذلك إبراهيم فقال: أراه سمع أنه من كفر بحرف منه فقد كفر به كله.

وقال عبد الله بن مسعود: من كفر بآية من القرآن فقد كفر به كله.

وقال أصبغ بن الفرج: من كذب ببعض القرآن فقد كذب به كله، ومن كذب به فقد كفر به، ومن كفر به فقد كفر بالله.

وسئل القابسي عمن خاصم يهوديا فحلف له بالتوراة، فقال الآخر: لعن الله التوراة، فشهد عليه بذلك شاهد، ثم شهد آخر أنه سأله عن القضية فقال إنما لعنت توراة اليهود، فقال أبو الحسن: الشاهد الواحد لا يُوجب القتل، والثاني علّق الأمر بصفة تحتمل التأويل، إذ لعله لا يرى اليهود متمسكين بشئ من عند الله لتبديلهم وتحريفهم، ولو اتفق الشاهدان على لعن التوراة مجردا لضاق التأويل.

وقد اتفق فقهاء بغداد على استتابة ابن شنبوذ المقرئ، أحد أئمة المقرئين المتصدرين بها مع ابن مجاهد لقراءته وإقرائه بشواذ من الحروف مما ليس في المصحف، وعقدوا عليه بالرجوع عنه والتوبة منه سجلا أشهد فيه بذلك على نفسه في مجلس الوزير أبي علي بن

مقلة سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، وكان فيمن أفتى عليه بذلك أبو بكر الأبهري وغيره.

وأفتى أبو محمد بن أبي زيد بالأدب فيمن قال لصبي: لعن الله معلمك وما علمك، وقال: أردت سوء الأدب ولم أرد القرآن. قال أبو محمد: وأما من لعن المصحف فإنه يقتل. اهـ. به منه أيضا، وفيه الغنية والكفاية، لمن سبقت له السعادة.

فصل

لا خفاء أن سب آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وأزواجه وأصحابه وتنقصهم، حرام ملعون فاعله.

عن عبد الله بن مغفل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«اللهَ اللهَ فِي أَصْحَابِي، اللهَ اللهَ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللهَ، وَمَنْ آذَى اللهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ».**

وقال صلى الله عليه وسلم: **«لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَمَنْ سَبَّهُمْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلِ اللهُ**

مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَـدْلًا»، وقـال عليـه السـلام: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَإِنَّهُ يَجِيءُ قَـوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَسُبُّونَ أَصْحَابِي، فَلَا تُصَـلُّوا عَلَيْهِمْ، وَلَا تُصَلُّوا مَعَهُمْ، وَلَا تُنَـاكِحُوهُمْ، ولَا تُجَالِسُـوهُمْ، وَإِنْ مَرِضُـوا فَلَا تَعُـودُوهُمْ**». وعنـه صلى اللـه عليـه وسـلم: «**مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَاضْرِبُوهُ**».

وقد أعلم النبي صلى اللـه عليـه وسـلم أن سبهم وأذاهم يؤذيـه، وأذى النبي عليـه السـلام حـرام، فقـال: «**لَا تُـؤْذُونِي فِي أَصْحَـابِي، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَـدْ آذَانِي**». وقـال: «**لَا تُؤْذُونِي فِي عَائِشَةَ**» رضي الله عنها، وقـال في فاطمة رضي الله عنها: «**هِيَ بَضْعَةٌ مِنِّي يُؤْذِينِي مَا آذَاهَا**».

وقـد اختلـف العلمـاء في هـذا، فمشـهور مذهب مالك الاجتهاد والأدب الموجع، قال مالك رحمـه اللـه: من شـتم النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم قتـل، ومن شـتم أصـحابه أُدِّب؛ وقـال أيضا: من شتم أحـدًا من أصـحاب النـبي صـلى الله عليه وسـلم أبـا بكـر أو عمـر أو عثمـان أو عليا أو معاويـة أو عمـرو بن العـاص، فـإن قـال كانوا على ضلال وكفر قُتِل، وإن شـتمهم بغـير هذا من مشاتمة الناس نكِّل نكالا شديدا.

وقـال ابن حـبيب: من غلا من الشـيعة إلى بغض عثمان رضي الله عنـه والـبراءة منـه أُدِّب أدبا شـديدا، ومن زاد إلى بغض أبي بكـر وعمـر رضي الله عنهما فالعقوبـة عليـه أشـد، ويكـرر

ضربه ويُطال سجنه حتى يموت، ولا يبلغ به القتل إلا في سب النبي عليه السلام.

وقال سحنون: من كفَّر أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عليا أو عثمان أو غيرهما يوجع ضربا.

وقال أبو محمد ابن أبي زيد عن سحنون: من قال في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم إنهم كانوا على ضلالة وكفر قتِل، ومن شتم غيرهم من الصحابة بمثل هذا نكِّل النكال (الشديد).

وروي عن مالك: من سب أبا بكر رضي الله عنه جُلِد، ومن سب عائشة قتل، قيل له: لم؟ فقال: من رماها فقد خالف القرآن. وقال ابن شعبان عنه: لأن الله تعالى يقول: **(يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)** فمن عاد لمثله فقد كفر.

وحكى أبو الحسن الصقلي أن القاضي أبا بكر ابن الطيب رضي الله عنه قال: إن الله تعالى إذا ذكر في القرآن ما نسبه إليه المشركون سبح نفسه لنفسه كقوله تعالى: **(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا، سُبْحَانَهُ)** في آي كثيرة، وذكر تعالى ما نسبه المنافقون إلى عائشة رضي الله عنها فقال: **(وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ)** سبح نفسه في تبرئتها من السوء كما سبح نفسه في تبرئته من السوء،

وهـذا يشـهد لقـول مالـك في قتـل من سـب عائشة رضي الله عنها.
ومعـني هـذا والله أعلم أن الله لما عظم سـبها كمـا عظم سـبه، وكـان سـبها سـبا لنبيـه صلى الله عليه وسلم، وقـرن سـب نبيـه بسـبه وأذاه بـأذاه تعـالى، وكـان حكم مؤذيـه تعـالى القتل كان حكم مؤذي نبيه كـذلك كمـا قـدمناه.
وشتم رجـل عائشـة رضـي اللـه عنهـا بالكوفـة فقدم إلى موسـى بن عيسـى العباسـي فقـال: من خصم هذا؟ فقال ابن أبى ليلى: أنا، فجلـده ثمانين وحلق رأسه وأسلمه في الحجامين.
وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنـه أنه نذر قطع لسان عبيد الله ابن عمـر إذ شـتم المقـداد بن الأسـود، فكلِّم في ذلـك فقـال: دعـوني أقطـع لسـانه حـتى لا يشـتم أحـد بعـد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وروى أبو ذر الهروي أن عمـر بن الخطـاب رضي الله عنه أُتي بأعرابى يهجو الأنصار فقال: لولا أن له صحبة لكفيتموه.
قـال مالـك: من انتقص أحـدا من أصـحاب النبي صلى الله عليه وسـلم فليس لـه في هـذا الفئ حق، قد قسم الله الفئ في ثلاثة أصـناف فقال: (**لِلْفُقَرَاءِ الْـمُهَاجِرِينَ**) الآية، ثم قال: (**وَالَّذِينَ تَبَـوَّءُوا الـدَّارَ وَالْإِيمَـانَ**) الآيـة وهؤلاء الأنصار، ثم قـال: (**وَالَّذِينَ جَـاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِـرْ لَنَـا وَلِإِخْوَانِنَـا**

الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ) الآية، فمن تنقصهم فلا حق له في فيء المسلمين.

وفى كتاب ابن شعبان: من قال في واحد منهم إنه ابن زانية وأمه مسلمة حُد عند بعض أصحابنا حدين، حدًّا له وحدًّا لأمِّه، ولا أجعله كقاذف الجماعة في كلمة، لفضل هذا على غيره، ولقوله عليه السلام: «**وَمَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَاجْلِدُوهُ**».

قال: ومن قذف أم أحدهم وهي كافرة حُدَّ حَدَّ الفرية لأنه سب له، فإن كان أحد من ولد هذا الصحابي حيا قام بما يجب له، وإلا فمن قام من المسلمين كان على الإمام قبول قيامه.

قال: وليس هذا كحقوق غير الصحابة لحرمة هؤلاء بنبيهم صلى الله عليه وسلم، ولو سمعه الامام وأشهد عليه كان ولى القيام به.

قال: ومن سب غير عائشة من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ففيه قولان: أحدهما أنه يقتل لأنه سبّ للنبي صلى الله عليه وسلم بسب حليلته؛ والآخر أنها كسائر الصحابة يجلد حد المفتري. قال: وبالأول أقول.

وروى أبو مصعب عنه: من انتسب إلى آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم يضرب ضربا وجيعا ويشهر ويحبس طويلا حتى تظهر توبته، لأنه استخفاف بحق الرسول صلى الله عليه وسلم.

وروى أبو المطرف الشعبى فقيه مالقة في رجل أنكر تحليف امرأة في الليل وقال: لو كانت بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه ما حلفت إلا بالنهار، وصوَّب قوله بعض المتسمين بالفقه، فقال أبو المطرف: ذكر هذا لابنة أبى بكر في مثل هذا يوجب عليه الضرب الشديد والسجن الطويل، والفقيه الذى صوَّب قوله هو أخص باسم الفسق من اسم الفقه، فيتقدم إليه في ذلك ويزجر ولا تقبل فتواه ولا شهادته، وهى جرحة ثابتة فيه، ويبغض في الله تعالى.

وقال أبو عمران في رجل قال "لو شهد عليَّ أبو بكر الصديق وعمر" أنه إن كان في مثل ما لا يجوز فيه الشاهد الواحد فلا شيء عليه، وإن كان أراد غير هذا فيضرب ضربا يبلغ به حد الموت وذكروها رواية. اهـ. به منه أيضا، فانظره تذكر، وتأمله وتفكر.

فصل

في حكم من نزع بذكر بعض أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم دون قصد نقص ولا ذكر عيب ولا سب، أو يستشهد ببعض أحواله الجائزة عليه في الدنيا على طريق ضرب المثل والحجة لنفسه أو لغيره، أو على التشبه به أو عند هضيمة نالته، أو غضاضة لحقته، ليس على سبيل التأسي وطريق التحقيق، بل على

مقصد الترفيع لنفسه أو لغيره، أو على سبيل التمثيل وعدم التوقير لنبيه، أو قصد الهزل والتندير بقوله عليه السلام كقول القائل: إن قيل فيَّ السوء فقد قيل في النبي عليه السلام، أو إن كذبت فقد كذب الأنبياء، أو إن أذنبت فقد أذنبوا، أو أنا أسلم من ألسنة الناس ولم يسلم منهم أنبياء الله ورسله، أو قد صبرتُ كما صبر أولو العزم من الرسل، أو كصبر أيوب، أو قد صبر نبي الله من عداه وحلم على أكثر مما صبرت، وكقول المتنبي:

أنا في أمة تداركها اللهُ=غريبٌ كصالح في ثمود

ونحوه من أشعار المتعجرفين في القول والمتساهلين في الكلام كقول المعري:

كنت موسى وافتْهُ بنت شعيب=غير أن ليس فيكما من فقير

على أن آخر البيت شديد عند تدبره، وداخل في باب الإزراء والتحقير بالنبي عليه السلام، وتفضيل حال غيره عليه.

وكذلك قوله:

لولا انقطاع الوحي بعد محمد=قلنا محمد عن أبيه بديل

هو مثله في الفضل إلا أنه=لم يأته برسالة جبريل

فصدر البيت الثاني من هذا الفصل شديد لتشبيهه غير النبي في فضله بالنبي صلى الله عليه وسلم، والعجز محتمل لوجهين: أحدهما:

أن هـذه الفضـيلة نقَّصـت الممـدوح، والآخـر استغناؤه عنها، وهذه أشد.

ونحو منه قول الآخر:

وإذا ما رُفعتْ راياتـه=صـفقت بين جنـاحي جبرين

وقول الآخر من أهل العصر:

فر من الخلد واستجار بنا=فصبَّر اللـه قلب رضوان

وكقـول حسـان المصيصـي من شـعراء الأندلس في محمد بن عباد المعروف بالمعتمـد وفي وزيره أبي بكر بن زيدون:

كـأن أبـا بكـر أبـو بكـر الرضـى=وحسـان حسان وأنت محمد

إلى أمثال هذا.

وإنما أكثرنا بشاهدها مع اسـتثقالنا حكايتهـا لتعريف أمثلتها، ولتسـاهل كثـير من النـاس في ولوج هذا الباب الضنك، واستخفافهم فادح هـذا العبء وقلـة علمهم بعظيم مـا فيـه من الـوزر، وكلامهم منه بما ليس لهم به علم (**وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًـا وَهُـوَ عِنْـدَ اللَّهِ عَظِيمٌ**) لا سـيما الشعراء، وأشدهم فيه تصريحا وللسانه تسريحا ابن هانىء الأندلسي، وابن سليمان المعري، بل قد خرج كثير من كلامهمـا إلى حـد الاسـتخفاف والنقص وصريح الكفر.

وقد أجبنا عنه، وغرضنا الآن الكلام في هـذا الفصل الذي سقنا أمثلته، فإن هذه كلها وإن لم تتضمن سـبًّا ولا أضـافت إلى الملائكـة والأنبيـاء

نقصا، ولست أعني عجزي بيتي المعري ولا قصد قائلها إزراء وغضا، فما وقر النبوة ولا عظم الرسالة، ولا عزر حرمة الاصطفاء، ولا عزز حظوة الكرامة، حتى شبه من شبه في كرامة نالها أو معرة قصد الانتفاء منها، أو ضرب مثل لتطييب مجلسه، أو إغلاء في وصف لتحسين كلامه، بمن عظم الله خطره وشرف قدره، وألزم توقيره وبره، ونهى عن جهر القول له، ورفع الصوت عنده، فحق هذا إن درىء عنه القتل الأدب والسجن، وقوة تعزيره بحسب شنعة مقاله، ومقتضى قبح ما نطق به، ومألوف عادته لمثله، أو ندوره، وقرينة كلامه وندمه على ما سبق منه. ولم يزل المتقدمون ينكرون مثل هذا ممن جاء به، وقد أنكر الرشيد على أبي نواس قوله:

فإن يك باقي سحر فرعون فيكم=فإن عصا موسى بكف خصيب

وقال له: يا ابن اللخناء، أنت المستهزىء بعصا موسى!

وأمر بإخراجه من عسكره من ليلته.

وذكر القتيبي أن مما أخذ عليه أيضا وكفر فيه أو قارب قوله في محمد الأمين، وتشبيهه إياه بالنبي صلى الله عليه وسلم:

تنازع الأحمدان الشبه فاشتبها=خلقا وخلقا كما قد الشراكان

كما أنكروا أيضا عليه قوله:

كيف لا يدنيك من أمل=من رسول الله من نفره
لأن حق الرسول صلى الله عليه وسلم وموجب تعظيمه وإنافة منزلته أن يضاف إليه ولا يضاف.
فالحكم في مثل هذا ما بسطناه في طريق الفتيا على هذا المنهج جاءت فتيا إمام مذهبنا مالك بن أنس رحمه الله وأصحابه.
ففي النوادر من رواية ابن أبي مريم عنه في رجل عيَّر رجلا بالفقر فقال: تعيرني بالفقر وقد رعى النبي صلى الله عليه وسلم (الغنم)، فقال مالك قد عرض بذكر النبي صلى الله عليه وسلم في غير موضعه، أرى أن يؤدب. قال: ولا ينبغي لأهل الذنوب إذا عوتبوا أن يقولوا قد أخطأتِ الأنبياء قبلنا.
وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لرجل: أنظر لنا كاتبا يكون أبوه عربيا، فقال كاتب له: قد كان أبو النبي صلى الله عليه وسلم كافرا. فقال: جعلت هذا مثلا، فعزله، وقال: لا تكتب لي أبدا.
وقد كره سحنون أن يصلى على النبي صلى الله عليه وسلم عند التعجب إلا على طريق الثواب والاحتساب توقيرا له وتعظيما كما أمرنا الله.
وسئل القابسي عن رجل قال لرجل قبيح: كأنه وجه نكير، ولرجل عبوس: كأنه وجه مالك الغضبان، فقال: أي شئ أراد بهذا ونكير أحد

فتاني القبر وهما ملكان فما الذي أراد أروع دخل عليه حين رآه من وجهه أم عاف النظر إليه لدمامة خلقه، فإن كان هذا فهو شديد لأنه جرى مجرى التحقير والتهوين فهو أشد عقوبة، وليس فيه تصريح بالسب للملك وأنما السب واقع على المخاطب وفي الأدب بالسوط والسجن نكال للسفهاء.

قال: وأما ذكر مالك خازن النار فقد جفا الذي ذكره عند ما أنكر من عبوس الآخر إلا أن يكون المعبس له يد فيرهب بعبسته فيشبهه القائل على طريق الذم لهذا في فعله ولزومه في ظلمه صفة مالك الملك المطيع لربه في فعله، فيقول كأنه لله يغضب غضب مالك، فيكون أخف. وما كان ينبغي له التعرض لمثل هذا، ولو كان أثنى على العبوس بعبسته واحتج بصفة مالك كان أشد ويعاقب العقوبة الشديدة، وليس في هذا ذم للملك ولو قصد ذمه لقتل.

وقال أبو الحسن أيضا في شاب معروف بالخير قال لرجل شيئا، فقال له الرجل: اسكت فإنك أمي، فقال له الشاب: أليس كان النبي أميا، فشنع عليه مقاله وكفره الناس، وأشفق الشاب مما قال وأظهر الندم عليه، فقال أبو الحسن: أما إطلاق الكفر عليه فخطأ، لكنه مخطئ في استشهاده بصفة النبي صلى الله عليه وسلم، وكون النبي صلى الله عليه وسلم أميا آية له، وكون هذا أميا نقيصة فيه وجهالة، ومن جهالته احتجاجه بصفة النبي صلى الله

عليه وسلم، لكنه إذا استغفر وتاب واعترف ولجأ إلى الله فيترك، لأن قوله لا ينتهي به إلى حد القتل، وما طريقه الأدب فطوع فاعله بالندم عليه يوجب الكف عنه.

ونزلت أيضا مسألة استفتى فيها بعض قضاة الأندلس شيخنا القاضي أبا محمد بن منصور رحمه الله، في رجل تنقصه آخر بشيء فقال له: إنما تريد نقصي بقولك وأنا بشر وجميع البشر يلحقهم النقص حتى النبي صلى الله عليه وسلم، فأفتاه بإطالة سجنه، وإيجاع أدبه، إذ لم يقصد السب. وكان بعض فقهاء الأندلس أفتى بقتله. اهـ. به منه أيضا، فتأمله بإنصاف، وتنكب طريق الاعتساف، وإن أردت استقصاء الوجوه في هذا الباب، واستقراء أقوال السلف والخلف فيه إذ جلبه يفضي بنا إلى الاطناب، فعليك به، وفي هذا الذي أتينا به كفاية، وبالله الهداية.

فصل

بنبغي للمريد أن يعمل بمقتضاه، ويزن أحواله بقسطاسه ويستقراه

قال الشيخ ابن عباد رحمه الله أثناء كلامه على قول التاج رحمه الله: "لَوْلَا مَيَادِينُ

النُّفُوسِ مَا تَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائِرِينَ" ما نص المراد منه:

ولا بد للمريد في هذه الطريقة من صحبة شيخ مرشد محقق فرغ من تأديب نفسه، وتخلص من هواه، فليسلم إليه نفسه، وليلتزم طاعته والانقياد إليه في كل ما يشير به عليه، من غير ارتياب ولا تأويل ولا تردد، فقد قالوا: من لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه.

وقال أبو عبد الله الثقفي: لو أن رجلا جمع العلوم كلها وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام أو مؤدب ناصح، ومن لم يأخذ أدبه من آمر له أو ناهٍ يريه عيوب نفسه ورعوناتها لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المقامات.

وقال سيدي أبو مدين رضي الله عنه: ومن لم يأخذ الأدب من المتأدبين أفسد من تبعه.

قال في لطائف المنن: إنما يكون الاقتداء بولي دلَّك الله عليه، على ما أودعه من الخصوصية لديه، فطوى عنك شهود بشريته، في وجود خصوصيته، فألقيت إليه القياد، فسلك بك سبيل الرشاد، يعرفك برعونات نفسك في كمائنها ودقائقها، ويدلك على الجمع على الله، ويعلمك الفرار عما سوى الله، ويسايرك في طريقك حتى تصل إلى الله، يوقفك على إساءة نفسك، ويعرفك بإحسان الله إليك، ويفيدك معرفة نفسك والهرب منها وعدم الركون إليها، ويفيدك العلم بإحسان الله

إليك، والإقبال عليه، والقيام بالشكر إليه، والدوام على ممر الساعات بين يديه.

قال: فإن قلت فأين من هذا وصفه؟! لقد دللتني على أغرب من عنقاء مغرب.

فاعلم أنه لا يعوزك (وجدان الدالين، وإنما يعوزك وجود الصدق) في طلبهم، جد صدقا تجد مرشدا ، وتجد ذلك في آيتين من كتاب الله تعالى، قال سبحانه: **(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ)**، وقال سبحانه: **(فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ)**. فلو اضطررت إلى ما يوصلك إلى الله اضطرار الظمآن للماء، والخائف إلى الأمن، لوجدت ذلك أقرب إليك من وجود طلبك؛ ولو اضطررت إلى الله اضطرار الأم لولدها إذا فقدته لوجدت الحق منك قريبا ولك مجيبا، ولوجدت الوصول غير متعذر عليك، ولَتَوَجَّهَ الحق بتيسير ذلك عليك. اهـ.

وفي كلامه رضي الله عنه تنبيه على أن الشيخ من منح الله وهداياه للعبد المريد إذا صدق في إرادته، وبذل في مناصحة مولاه جهد استطاعته، لا على ما يتوهمه من لا علم عنده، وعند ذلك يوفقه الله لاستعمال الأدب معه لما أشهده من عالي مرتبته، ورفيع درجته.

قال سيدي أبو مدين رضي الله عنه: الشيخ من شهدت له ذاتك بالتقديم، وسرك بالتعظيم؛ الشيخ من هذَّبك بأخلاقه، وأدبك بإطراقه، وأنار

باطنك بإشراقه؛ الشيخ من جمعك في حضوره، وحفظك في مغيبه.

قال في لطائف المنن: وليس شيخك من سمعت منه، إنما شيخك من أخذت عنه؛ وليس شيخك من واجهتك عبارته، إنما شيخك من سرت فيك إشارته؛ وليس شيخك من دعاك إلى الباب، إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب؛ وليس شيخك من واجهك مقاله، إنما شيخك الذي نهض بك حاله؛ شيخك الذي أخرجك من سجن الهوى، ودخل بك على المولى؛ شيخك هو الذي ما زال يجلو مرآة قلبك، حتى تجلّت فيك أنوار ربك، نهض بك إلى الله فنهضت إليه، وسار بك حتى وصلت إليه، ولا زال محاذيا لك حتى ألقاك بين يديه، فزج بك في نور الحضرة وقال: ها أنت وربك.

وآداب المريد مع الشيخ، والشيخ مع المريد كثيرة مذكورة في كتب أئمة الصوفية رضي الله عنهم. ومن أبلغ ذلك وأوجزه ما ذكره القشيري، قال رضي الله عنه: فشروط المريد أن لا يتنفس نفسا إلا بإذن شيخه، ومن خالف شيخه في نفس سرا أو جهرا فسيرى غيه من غي ما يحبه سريعا، ومخالفة الشيوخ فيما يستشيرونه منهم أشد مما يكابدونه بالجهد وأكثر لأن هذا يلتحق بالخيانة، ومن خالف شيخه لا يشم رائحة الصدق، فإن صدر منه شيء من ذلك فعليه بسرعة الاعتذار والافصاح عما حصل منه من المخالفة والخيانة ليهديه

شيخه إلى ما فيه كفارة جرمه ويلزم في غرامه فيما يحكم به عليه، فإذا رجع المريد إلى شيخه بالصدق وجب على الشيخ جبران تقصيره بهمته، فإن المريدين عيال على شيوخهم فرض عليهم أن ينفقوا من قوة أحوالهم ما يكون جبرا لتقصيرهم. اهـ.

قال أبو عثمان الحيري رحمه الله: لا يكمل الرجل حتى يستوي قلبه في أربعة أشياء: في المنع، والعطاء، والعز، والذل.

قال محمد بن خفيف رضي الله عنه: قدم علينا بعض أصحابنا فاعتل، وكان به علة البطن، فكنت أخدمه وآخذ منه الطست طول الليل، فغفوت مرة فقال لي: نمت لعنك الله، فقيل لي كيف وجدت نفسك عند قوله لعنك الله؟ قال: كقوله رحمك الله.

وحكي عن إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه أنه قال: ما سررت في الإسلام إلا (ثلاث) مرات معدودات: كنت في مركب يوماً وكان به رجل يحكي الحكايات (المضحكة) فيضحك منه الناس، وكان يقول رأيت وقتا في معركة الترك علجا فقلت له هكذا، وكان يأخذ بلحيتي ويمد يده على حلقي والناس يضحكون منه، ولم يكن في ذلك المركب أصغر مني ولا أحقر، فسررت بذلك؛ ويوما آخر كنت جالسا فجاء رجل فصفعني من غير سبب، ويوما آخر كنت جالسا فجاء إنسان وبال عليَّ.

وكان في وقت حاتم الأصم رضي الله عنـه رجل يسيء القول فيه وفي أصحابه ويــواجههم كل يوم بالقبيح، فوقـع عليـه جـذع من السـقف في بعض الأيام في حال مواجهة القوم.

هذا وأشباهه معلـوم من أحـوالهم ضـرورة، وأبلغ من هذا كله محبة الموت وكراهيـة البقـاء في الدنيا شوقا إلى لقاء المولى. قال بعضـهم: حقيقـة زوال الهـوى من القلب حب لقـاء اللـه تعالى في كل نفس من غير اختيار حالـة يكـون المرء عليها، فإذا وجد المريد هذه العلامات في نفسه فقـد خـرج عن عـالم حسـه، ووصـل إلى حضرة قدسه، وكان كما قال القائل:

لك الدهر طوع والأنام عبيد=فعش كل يوم من زمانك عيد

وكما قـال سـيدي أبـو العباس بن العريـف رضي الله عنه في هذا المعنى:

بدا لك سر طال عنك اكتتامـه=ولاح صـباح كنت أنت ظلامه

فأنت حجاب القلب عن سر غيبـه=ولـولاك لم يطبع عليه ختامه

فــإن غبت عنــه حــل فيــه وطنبت=على مركب الكشف المصون خيامه

وجـاء حـديث لا يمـل سـماعُهُ=شـهى إلينـا نثره ونظامه

إذا سمعَتْهُ النفس طـاب نعيمُهـا=وزال عن القلب المعنى غرامه

وأنشدوا في معناه أيضا:

قولي لآمالي ألا فابعدي=قد أنجز الأحباب لي موعدي
قد كنت قبل اليوم مستأنسا=منك بخل مشفق مسعدي
وأن نسيم الوصل من نحوهم=هب فلي عندك ظلٌّ ندي
وحيث لاحت لي أعلامهم=فليس لي فقر إلى مرشدي

وإن لم يجد في نفسه هذه العلامات فليستمر على سلوكه ومجاهدته ولا يغتر بما يتراءى له من سني حالته، فإنه لم يصل بعد ولم يحصل له من هوى نفسه فقر وليس طريق (تزكية) النفس بقطع جميع الإرفاق عنها وردها إلى الاجتزاء بالحشيش والنخالة، والمبالغة في التقشف والتقلل، مع قطع النظر عن أحوال القلب وهممه وقصوده وإرادته، وترك الالتفات إلى ما يحمد منها وما يذم، فذلك كله غلو وبدعة. وقد غلط في هذا طوائف من الناس عملوا عليه فى رياضتهم ومجاهدتهم، ولم يقصدوا بذلك إخلاص العبودية لربهم، فأداهم إلى اختلال عقولهم، وانحلال قوى أبدانهم، ولم يحصلوا من أمرهم على فائدة، وذلك لجهلهم بالسنة وما كان عليه سلف هذه الأمة. اهـ. قاله ابن عباد رضي الله عنه بخ. بنقل الشيخ ميارة في كبيره على المرشد المعين، وفيه تصحيف فاحش، فانظره في أصل صحيح.

فصل

ينبغي للموفق السعيد، وخصوصا الفقير والمريد، أن لا يغفل عن محاسبة نفسه ومشاطرتها في عموم الأوقات، لتخمد نارها وتنزجر عن اركتاب الفواحش واستغراقها في الشهوات.

وقد أجاد وأفاد أبو حامد الغزالي رضي الله عنه في الإحياء في كتاب المراقبة والمحاسبة منها، وكشف عن المسألة الغطاء، ولنقتصر منه على ما نقله مختصرا منها العلامة سيدي محمد ميارة، ونسأل الله تعالى أن تكون فيه كفاية.

ونصه:

قال رحمه الله: قال الله تعالى: (**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا**)، وقال: (**وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ**)، وقال: (**يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ**) الآية، فعرف أهل البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنهم سيناقشون في الحساب، وتحققوا أنهم لا ينجيهم من ذلك إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة، ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات، ومحاسبتها في الخطرات

واللحظات. فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته، وطالت في عرصات القيامة وقفاته، فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله تعالى، وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال: عز من قائل: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا**) فرابطوا أنفسهم بالمشارطة، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاقبة، ثم بالمجاهدة، ثم بالمعاتبة. فكانت لهم في المرابطة ست مقامات، ولا بد من شرحها، وبيان حقيقتها وفضيلتها، وتفصيل الأعمال فيها، وأصلها المحاسبة، ولكن كل حساب فبعد مشارطة ومراقبة، ويتبعها عند الخسران معاتبة ومعاقبة.

ولنذكر شرح هذه المقامات.

اعلم أن مطلب المتعاملين في التجارة بعد المحاسبة سلامة رأس المال ثم الربح، كما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم المال إليه حتى يتجر فيه ثم يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة ورأس ماله العمر، وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس إذ به فلاحها، فعلاجها بالأعمال الصالحات، والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذ يستعملها ويسخرها فيما يزكيها، كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله وكما أن الشريك يصير خصما منازعا يجادله في الربح فيحتاج إلى أن

يشارطه أولًا ويراقبه ثانيًا ويحاسبه ثالثًا ويعاتبه أو يعاقبه رابعًا، وكذلك العقل فيحتاج إلى مشارطة النفس أولًا فيوظف عليها الوظائف ويشترط عليها الشروط ويرشدها إلى طريق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة، فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال، كالعبد الخائن إذا جلا له الحد وانفرد بالمال. ثم بعد الفراغ فينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها، فإن هذه تجارة ربحت الفردوس الأعلى. فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم بكثير من تدقيقه في أرباح الدنيا الحقيرة الفانية، فيحتم على كل مؤمن أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها، فإذا أصبح وفرغ من فريضة الصبح فينبغي له أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة نفسه ويقول لها: ما لي بضاعة إلا العمر فإن فنى فقد فنى رأس المال ووقع الإياس من التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه فإياك إياك أن تضيعيه.

ثم يستأنف لها وصية أخرى في أعضائه السبعة: العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل. فإذا أوصى نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوض في الأعمال فإنها إن تركت طغت وفسدت

وكما أن العبد يكون له وقت أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق، فكذلك ينبغي أن تكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التاجر في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصا على الدنيا.

ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان فإن كان ثم فضل حاصل استوفاه وشكره، وإن كان ثم خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل، فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض وربحه النوافل والفضائل وخسرانه المعاصي.

وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء، فيحاسبها على الفرائض فإذا أداها على وجهها شكر الله تعالى عليها ورغبها في مثلها، وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء، وإن أداها ناقصة كلفها الجبران أي بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقابها وتعقيبها ومعاتبتها ولا يهملها لئلا تستأنس بفعل المعاصي ويعسر عليه فطامها، فإذا أكل لقمة لشهوة نفس فينبغي أن يعاقب البطن بالجوع، وإن نظر إلى محرم فينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر، وكذلك ينبغي أن يعاقب كل طرف من الأطراف بمنعه من شهواته هكذا كانت عادة سالكي الآخرة، وإن رآها تتوانى بحكم

الكسل بشيء من الفضائل وورد من الأوراد فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ويلزمها فنونا من الفضائل جبرا لما فات وتداركا لما فرط، ويقبل على نفسه فيقرر عندها جهلها وحماقتها ويقول لها: ما أعظم جهلك! تدعي الحكمة والفطنة والذكاء وأنت أشد الناس غباوة وحمقا، أما تعلمين ما بين يديك من الجنة والنار، وأنك صائرة إلى إحداهما لا محالة على القرب؟ فما بالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة بهذا الخطب الجسيم؟ فإياك ترى الموت بعيدا ويراه الله قريبا، أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب، ويحك جراءتك على معصية الله إن كانت لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك، وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وما أقل حياءك. ويحك لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له؟ فبأي جسارة تتعرضين لمقت الله تعالى وغضبه؟ اهـ. انظر تمامه في أصله، وفي الأصل المنقول منه تصحيف، فما أعظم موقعه من قلوب الموفقين، وما أبلغ توبيخه للغافلين المتساهلين، جزى الله مقيده خيرا، وجعله يوم القيامة له ذخرا.

فصل أذكر فيه خاتمة

ينبغي لكل مؤلف أن يختم بها تأليفه، كما أشار إلى ذلك علامة عصره العارف بالله أبو العباس سيدي أحمد السوسي البوسعيدي عليه رحمه الله ورضوانه تشتمل على طرف من أحوال يوم القيامة، ختم الله لنا ولجميع المسلمين بالحسنى، ورزقنا بمنه وكرمه عفوا وعافية وأمنا.

فأقول متأسيا بقوله، ملتمسا من الله الكريم التوفيق والعمل بما أمر به:

قال رحمه الله في بعض مقيداته الدالة على طول باعه:

اعلم أن كل من قيد شيئا ولم يذكر من أحوال المعاد طرفا، فقد أخل وأضاع ما يحقه في حق المصطفى صلى الله عليه وسلم والقرآن المشحون بذكر أهواله ولا تكاد تجد فيه سورة إلا وقد أفصحت بذلك وأومأت إلى بعض ما يخصه وأصغر السور الكوثر والإخلاص والعصر، فالكوثر الخير الذي أعطاه الله لنبينا والإخلاص تمحض التوحيد الذي من لم يأت به حرم عليه الحضور وملزوماته بحافات الكوثر، وما بعث الله الرسل إلا للإنذار بمواقفه وإعلام الخلق بزلازله وعواصفه يوم لابيع فيه ولاخلة ولاشفاعة يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه يوم يقوم الحساب يوم لاينفع الظالمين معذرتهم يوم يقوم الأشهاد يوم يعض الظالم على يديه يوم لا تملك نفس لنفس شيئا

والأمر يومئذ لله يوم هم بارزون لايخفى على الله منهم شيء فإذا جاء وعْدُ الآخرة جئنا بكم لفيفاً مختلطين مُلْتفين وملتحمين لا يملك أحد إلا تحت قدميْه ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما.

إلى أن قال: وما شُرعت التكاليف إلا للتزود إليه ولما ينتفع فيه حتى تفصل عرصاته. وأما من دخل الجنة وخلص إليها فلا يرى فيها إلا الملك الكبير ويخلق الله فيها لكلهم الرضا وفوق الرضا ولم يذكر المؤمن بأفضل من كتابه الذي أنزل له لاريب فيه ولا مراء وإني لأرى هذا الأمر بقي على كثير من المصنفين لأن كل ما صنفوا إنما هو لأجله وأجل ما أعد له واستعد للزاد إليه التقلل من الدنيا والزهد في متاعها لقول المصطفى صلى الله عليه وسلم المكثرون هم المقلون يوم القيامة، والزهد خُلو القلب عن التعلق بها وليس بالزاهد العديم المفتتن بها، واختلافهم في الفقير الصابر والغني الشاكر فقيل المراد بالغني هو الغني بالله ولا علينا في تعمير يده أم لا وكذلك هذا الفقير ليس هو العديم أيضا، وإنما ذلك في مقام القلب ونظره لسيده وبيانه أن الغني في هذا الباب قلبه فارغ من عمومها في الوجود والعدم، ففي الوجود أن لا يضعف عن التصرف بالإذن، وفي العدم أن لا يتمنى التصرف في ملك الغير، والفقير يخشى الافتتان بوجدانها

ويضيق صدره بما يتعلق بها من التكاليف في التصرف ويود السلامة منها، وإلى هذا أشار الشيخ زروق بقوله: لا تجد فقيرا صابرا إلا غنيا شاكرا، ولا غنيا شاكرا إلا فقيرا صابرا، والله أعلم.

وأما من تعلق قلبه بالدنيا في الوجود والعدم، ويبكي على فقدان ما ضاع له منها وما يريد إلا الازدياد منها على أي وجه كان من حرام أو حلال أو متشابه، فأولائك الذين تنصب عليهم الأهوال صبا، يوم يجيء ربك والملك صفا صفا، والأولون في وارفات ظل العرش نفعنا الله بذكرهم آمينز ومن أجل ما يستعد به أيضا الصلاة وإقامتها والمحافظة عليها بشروطها، وما زال صلى الله عليه وسلم عند احتضاره يوصي بالصلاة. عن إياس بن رباب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لَا بُدَّ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وَلَوْ حَلْبَ نَاقَةٍ**».

وقد رئي الجنيد في المنام فقيل له: كيف تجدك عند الله؟ قال: وجدت بركة ركيعات كنا نقوم بها في الليل، فسئل عن الإشارات والإلهامات التي كانت تتلقى منه في مقامات التصوف، فقال: هيهات ذهب كل ذلك. ووقع مثل هذا لعبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك، سئل أيضا إذ رئي في المنام عن الاجتهادات في المسائل، فقال: لم يبق لنا إلا صلوات الليل.

فـإذا كـان هـؤلاء هكـذا مـع أن مـا هم فيـه مطلوب، فأين ما فيه غيرهم من الفضول ممن يرى لنفسه مزية أو ترى له.

ويروى أن إنسانا عامل نبينا صلى الله عليه وسـلم بشـيء فـأراد صـلى اللـه عليـه وسـلم مكافأته فقال: **«سَلْ حَاجَتَكَ»**، فقـال: الجنـة يا رسول الله، فقـال: «ولعلـك تطلب بعض مـا جرت بـه العـادة» أو كيـف مـا قـال صـلى اللـه عليه وسلم، قـال: لا، لا أطلب إلا الجنـة، فقـال لـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: **«أَعِنِّي عَلَى نَفْسِـكَ بِقِيَـامِ اللَّيْـلِ»**، أو كيـف مـا كـانت ألفاظ هذا الحديث.

ومن ذلك بغض أهل الفساد ومباينتهم، قال الله تعـالى: **(لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَـوْ كَـانُوا آبَـاءَهُمْ أَوْ أَبْنَـاءَهُمْ أَوْ إِخْـوَانَهُمْ أَوْ عَشِـيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُـوبِهِمُ الْإِيمَـانَ وَأَيَّدَهُمْ بِـرُوحٍ مِنْـهُ وَيُـدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِـزْبُ اللـهِ أَلَا إِنَّ حِـزْبَ اللـهِ هُمُ الْـمُفْلِحُونَ)**. فتأمل ألفاظ هذه الآية الكريمة، وما احتوت عليـه من الفضـائل والثنـاء الجميـل على من اتصف بما ذكر، وظاهرها غير شرطية كبـير صـلاة ولا صـوم سـوى وظـائف التكـاليف التي لا ينجح عمل دونها، والله أعلم بما ينزل.

وجدت في طرة من تفسير الواحدي قال: لما نزلت قال صلى الله عليه وسلم: «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ عِنْدِي يَداً فَيُحِبُّهُ قَلْبِي**». اهـ. لكن المحب والمبغض في هذا الباب يحتاجان إلى تصرف علمي خالٍ من الهوى وجنوده حتى لا يبغض محقا أو يحب مفسدا، وإلا هلك. وهذا الباب كثير الاشتباه عسير التخلص إلا من سلمه الله، وهذا فيما لابسه أهل الديانات، وأما غيرهم فلا ذمة ولا ذمام. وفي شرح الرسالة للزناتي عنه عليه الصلاة والسلام: «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ عَلَيْنَا مِنَّةً فَتَرْزُقُهُ بِهَا مِنِّي مَحَبَّةً**».

وقال عيسى ابن مريم: «تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، وتقربوا الى الله بالتباعد عنهم، والتمسوا رضا الله بسخطهم».

نعم وإن كل من تعلم العلم لله أو حفظ القرآن لوجه الله ولم يصيره آلة لما يأكل به فأولئك جلساء الرحمن. فعن معمر الانصاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يَنْفَعُ اللهُ بِهِ الْآخِرَةَ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِلدُّنْيَا أَوْ قَالَ يَتَعَلَّمُهُ لِلدُّنْيَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ أَنْ يَجِدَ عَرْفَ الْجَنَّةِ**».

وعن الغافقي في فضائل القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَلْيَسْأَلْ اللهَ بِهِ فَإِنَّهُ سَيَجِيءُ قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَسْأَلُونَ بِهِ النَّاسَ**».

وعن الحسن: قرَّاء القرآن ثلاثة أصناف: صنف اتخذوه بضاعة يأكلون به؛ وصنف أقاموا حروفه، وضيعوا حدوده، واستطالوا به على بلادهم، واشتروا به الولاة، وأكثر هذا الضرب من حملة القرآن لا كثرهم الله؛ وصنف عمدوا على دواء القرآن فوضعوه على داء قلوبهم فذكروا الله به في محاريبهم، وجثوا به في برانيسهم، واستشعروا الخوف وارتدوا الحزن، فأولئك الذين يسقى بهم الغيث، وينصر بهم على الأعداء، والله لهذا الضرب من حملة القرآن أعز من الكبريت الأحمر.

وعن زاذان: من قرأ القرآن ليأكل به الناس لقي الله ليس في وجهه مضغة لحم.

وعن عبادة بن الصامت قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم عليه مهاجر دفعه إلى أحد منا يعلمه القرآن، فدفع إلي رجلًا، فكنت أقرئه القرآن فأهدى إليَّ قوسًا، فأخبرت بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «**جَمْرَةٌ بَيْنَ كَتِفَيْكَ تَقَلَّدْتَهَا**».

وعن أبيّ كان يقرىء رجلا من أهل اليمن سورة، فرأى قوسا عنده فقال: بعنيها، فقال له: بل هي لك هدية، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «**إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تُقَلَّدَ قَوْسًا مِنْ نَارٍ فَخُذْهَا**».

وعن أبيّ أيضًا: كنت أختلف إلى رجل مكفوف أقرئه القرآن فكان يدعو لي بطعام فآكله، فوجدت منه في نفسي فسألت النبي

صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم: «**إِنْ كَانَ ذَلِكَ الطَّعَامُ طَعَامَهُ وَطَعَامَ أَهْلِهِ الَّذِي يَأْكُلُونَ مِنْهُ فَكُلْ، وَإِنْ كَانَ طَعَامًا يَتَحَفُكَ بِهِ فَلَا تَأْكُلْ مِنْهُ**».
فأتيته نحو ما أتيته فلما فرغ قال: يا جارية سلمي طعام أخي، فقلت له: أهذا طعام أهلك وطعامك الذي تأكلون؟ قال: لا ولكن أتحفك به، فقلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهاني عنه. اهـ.

وفي الصحيح: «**إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللهِ**»، في قضية الرقى .

وفيها: «**وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ**».

وهذا والله أعلم يختلف باختلاف الأحوال والأزمان والنسخ على تسليم صحة ما في الغافقي.

وفيه أيضا عن أبي أيوب الأنصاري أنه أمر رجلا يمسك عليه المصحف فقال: لا تردن علي باء ولا تاء ولا حرفا ولا حرفين إلا أن يكون آية تامة، فإنه سيكون قوم يقرءون القرآن ولا يسقطون منه حرفا، اللهم لا تجعلني منهم.

وعن فضالة بن عبيد الانصاري مثله، قال لرجل: خذ هذا المصحف وأمسك علي ولا تردن علي ألفًا ولا واوًا، فإنه سيكون قوم يقرءون القرآن ولا يسقطون منه حرفا ولا واوا. ثم رفع فضالة يديه فقال: اللهم لا تجعلني منهم. وفي رواية: لا تأخذن علي حرفا إلا آية كاملة. اهـ. الغافقي.

انظر ما معنى هذين الحديثين الأخيرين، فإن الكمال عند الناس اليوم خلاف ما اقتضاهما. نعم قوله: لا تردن علي حرفا ولا حرفين، فإن القرآن في عصر الصحابة يقرأ على حروف كثيرة والكل قرآن وكلها في الصحيح في سورة الفرقان من قوله صلى الله عليه وسلم: «**اقْرَأْ يَا هِشَامُ**» «**اقْرَأْ يَا عُمَرُ**» وقال في كل من ذلك: «**كَذَلِكَ أُنْزِلَ**». وكل ما حواه الصحابي لا يكون حجة على صحابي آخر، لأن كل واحد منهم ثبت عنده ما لم يثبت عند الآخر، وذلك سبب جمع عثمان القرآن على حرف واحد وعمل الناس عليه؛ وأما الآية الكاملة فلا تتفق المصاحف على إسقاطها لذلك قال له: لا تردن علي حرفا إلا آية كاملة. وبقي قولهما: اللهم لا تجعلني منهم، على إشكال فيه، والله أعلم.

وفي الصحاح للجوهري وفي حديث حذيفة أن من أقرأ الناس للقرآن منافقا لا يدع منه واوا ولا ألفا يلفته بلسانه كما تلفت البقرة الخلا بلسانها، وأظن إلى هذا الفريق أشار الشيخ سيدي عبد الله الهبطي في ألفيته السنية حيث قال:

أما الذين يقرءون القرآن=فإنهم على سبيل الشيطان

ترك الصلاة عندهم مشهور=وإن تكن يفوتها الحضور

ما عندهم في الاحتفال معروف=إلا الذي أتى بعلم المحذوف
قد ضيعوا أصول علم الدين=كضيعة المفروض والمسنون

فكل متصد لطلب مرتبة أيا كانت مما ينبني عليها أساسات الدين ليأكل بها ويرتزق فقد خيف عليه التلف، ولكن يبقى حتى يسأل ويستخير الله ويشاور بشرط أهليته لها، وكل طالب علم أو قراءة لا يهتبل بإقامة الفرائض فذلك دليل على عدم القصد به وجه الله تعالى، فإن خدمة العلم هي خدمة الله جل وعلا، فإن لم يحافظ على أوامره فإنما يخدم هواه، وذلك إذا رأيته يتأخر عن أول الصلاة اكتفاء بآخرها، فإن من ترك أول صلاة الجماعة اختيارا لا يحصل له أجر صلاة الجماعة، وما روي من قول مالك لابن وهب: ما الذي قمت عنه بأولى مما قمت إليه مشكل إذا كان قيامه لصلاة الجماعة، وأما إن كان الوقت والحالة أن الاتساع حاصل وكانت الجماعة الأخرى فلا إشكال، ولا بد من ملاحظة صورة القضية كيف كانت، وكذلك الذي يبادر اللوح أو الكتاب بأثر السلام ولا مراد له في فضل المعقبات.

وفي تنبيه الغافل: روي عن عمر رضي الله عنه أنه رأى رجلا بادر للتنفل بعد السلام، فقام إليه وضرب به الأرض وقال: ما أهلك من كان قبلكم إلا أنهم لا يفصلون بين فرضهم ونفلهم،

فرآه صلى الله عليه وسلم وقال له: «اللهُ أَصَابَ بِكَ الصَّوَابَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ».

تأمل هذه القضية فهي في النافلة المجانسة للصلاة فأين غيرها من نحو اللوح والكتاب، بل قل لي أين منها من سلّم وابتدر شقاشق الكلام الذي نحن فيه سائر الدهر، على أنهم نصوا على أن أقل ما يكفي من ذلك آية للكرسي والتسبيح والتحميد والتكبير عشرا عشرا، ثم كل طالب منصف يحق أن يكون له ورد من الذكر كل يوم ولو مائة صلاة على سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ليستعين بذلك على تصحيح نيته، وطلب العلم أفضل الأعمال لكن بنية صالحة، وكذلك رغائب المفروضات لا سيما ركعتي المغرب فإنه روي أنها ترفع مع عمل النهار.

ومما يجب التنبيه عليه ما سميت به الأهواء من قراءة القرآن بالألحان العجمية، وتحسين قراءته بنغماتهم، ويحسبون أنهم على شيء، وإنما تزين قراءته بألحان العرب الذي أنزل بلسانهم. وذلك أن طبعهم الموسيقي العجمي لا يتم إلا بمدِّ ما لا يمد وقصر ما لا يقصر، وعلى خلافه اللحن العربي، ولذلك ورد الإذن به، فقيل فيما روي: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ بِأَلْحَانِ الْعَرَبِ**»، وهذا المبذول قد يمتنع لعارض. قال الشيخ أبو العباس القباب في شرح قواعد عياض رحمه الله عند قول القاضي "حسن الصوت" ما نصه: سئل مالك

في العتبيــة عن النفــر يكونــون في المســجد فيقولــون لرجــل حســن الصــوت اقــرأ علينــا، يريدون حسن صوته، فكره ذلك وقـال: إن هـذا أشبه الغناء، فقيل له: أفـرأيت قـول عمـر لأبي موسى الأشعري رضـي اللـه عنـه: ذكرنـا ربنـا، فقال: إن من الأحاديث أحاديث قد سمعتها وأنـا أتقيهـا وواللـه مـا سـمعتُ هـذا قـط قبـل هـذا المجلس، وكـره القـراءة بالألحـان وقـال: هـذا أشبه الغناء ولا أحب أن يعمل بذلك، وقال: إنما اتخذوها يأكلون بها ويكسبون عليها.

شرح: قال القاضي أبو الوليد بن رشد: إنما كره مالك للنفر يقولون للحسـن الصـوت إقـرأ علينا، إذا أرادوا بذلك حسن صوته، كمـا قـال لا مـا إذا قـالوا ذلـك اسـتدعاءً لرقـة قلـوبهم لسماعهم قراءته الحسنة. فقد روي أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَـا أَذِنَ لِنَبِيٍّ يَتَغَنَّى بِـالْقُرْآنِ»** أي مـا اسـتمع (لشـيء مـا اسـتمع) لنـبي يحسـن الصوت بالقرآن طلبا لرقة قلبه بذلك.

وقد كان عمر بن الخطاب رضـي اللـه عنـه إذا رأى أبا موسى الأشـعري قـال: ذكرنـا ربنـا، فيقرأ عنده، وكان حسن الصوت فلم يكن عمـر يقصـده للالتـذاذ بحسـن صـوته وإنمـا اسـتدعى رقة قلبـه لسـماع قرائتـه، وهـذا لا بـأس بـه إذا صح من فاعله على هذا الوجه.

وقوله: إن من الأحاديث أحاديث قد سمعتها وأنا أتقيها، إنما اتقى أن يكون التحدث بما روي

عن عمر ذريعة لاستجازه القرآن بالألحان ابتغاء استماع الصوت والالتذاذ بذلك، حتى يقصد أن يقدَّم الرجل للإمامة لحسن صوته لا لما سوى ذلك مما يُرغب في إمامته من أجله.

فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**بَادِرُوا بِالْمَوْتِ**» فذكر أشياء أحدها: «**يَتَّخِذُونَ الْقُرْآنَ مَزَامِيرَ يُقَدِّمُونَ أَحَدَهُمْ لِيُغَنِّيَهُمْ وَإِنْ كَانَ أَقَلَّهُمْ فِقْهًا**»، فالتحذير إنما وقع لإيثارهم تقديم حسن الصوت على الكثير الفقه، فلو كانا رجلين متساويين في الفضل والفقه أحدهما أحسن صوتا بالقراءة لما كان مكروها ويُقدَّم الأحسن صوتا بالقراءة، لأنها مرتبة زائدة محمودة خصه الله تعالى بها، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي موسى الأشعري تغبيطا لما وهبه الله تعالى: «**لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**».

فحاصل ما جلبت إليه هذه الرواية وما قاله القاضي إنما يُستحب تقديم الحسن الصوت مع استوائه مع غيره في جميع موجبات الإمامة فتكون له فضيلة زائدة، ومن قدَّم الحسن الصوت لصوته فهو من باب الغناء الذي ينزه كتاب الله عز وجل أن يتخذ لذلك، وإنما يجوز ذلك إذا طلب به رقة القلب والخشوع، وأما من قصد الالتذاذ بصوته الحسن فلا يجوز ذلك، وهذا الذي يفعل في بلادنا في تراويح رمضان يقدمون ذوي الأصوات الحسان لحسن

أصـــواتهم على من هـــو أولى بالإمامـــة منهم لا شيء غير الصـوت الحسـن، وهـذا الـذي (جـاء) في الحديث التحذير منه، وربما قدموا لذلك من لا يحسن وضوءا ولا غيره، بل ربما قدموا صـــبيا قبل بلوغه وعقدوا له جموعـا يسـتمعون صـوته فإذا فـرغ خرجـوا من المسـجد لا أرب لهم في الصلاة وإنمـا غرضـهم سـماع صـوته، وأكـثرهم جلـوس لا يصـلون، ولا تـرى ناهيا عن ذلـك ولا منكرا له بل تزخرف لهم المساجد ويكثرون بها النـيران، وربمـا جلب بعضـهم للمسـجد بعض المأكول يأكله في المسجد لتتم له لذاته بسماع الصـوت الحسـن وأكـل الطيبـات، وقـد ينتهي الحال ببعضهم أن يتواعد لمجلس هذا القـاريء من له غرض (فاسد) في مجالسته على وجه لا يجوز شرعا. وشرح جميع مـا يقـع في ذلـك من أهل المجون مما يُنزه كتابنـا عنـه، فيـأتي شـهر رمضان الذي عظمه اللـه سـبحانه وقـال النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم: «**يُنَـادِي مُنَـادٍ: يَـا طَـالِبَ الْـخَيْرِ هَلُمَّ، وَيَـا طَـالِبَ الشَّـرِّ أَمْسِـكْ**»، فينصـب لأهـل الشـر في المسـاجد التي أذن الله أن ترفـع ويـذكر فيهـا اسـمه ولـد يغنِّيهم بـالقرآن فيجتمـع عليـه الرعاع لسـماع صوته خاصة لا لرقـةٍ ولا غيرهـا. ثم يكـون ذلـك داعيـة لقبـائح يعرفهـا من عرفهـا، وذلـك كلـه اسـتخفاف بحرمـة الشـهر، وحرمـة المسـجد، وحرمـة الصـلاة، وتعظيم حرمـة القـرآن كلام الرب سبحانه، فكـل من أعـان على شـيء من

ذلك بفعل أو قول فهو شريك لهم، بل من قدر على تغييره ولم يفعل فهو آثم عاص. اهـ. كلام القباب رحمه الله.

وأشار إلى ما يقع في القرويين وغيره في ليالي رمضان خصوصا في ليلة سبع وعشرين.

واستفدنا بكلامه قدم هذه الداهية ولا نكير لها على مرور الاعصار والدهور، لأن وفاته سنة سبع وسبعين وسبعمائة ولم يكبر عليه إذ ذاك سوى تولي إمامة التراويح من لا يصلح للإمامة، واجتماع الشباب، ومن يصبو ويميل للهوى والأغاني لاستماع القراءة، فيميل بهم الطبع إلى ما فطموا عليه من الفساد لعدم الرياضة لطريق الرشاد. وقد تفاقم الخطب بعده في وقتنا هذا، لو رآه أو سمع به لضاق عليه التعبير، وذلك أنه لا تبقى كهلة ولا شابة إلا وأخذت أهبتها مما في وسعها من حُلاها وحِليها وحضرت المسجد بعد العصر من ليلة سبع وعشرين، وأهل العلم يرون ذلك، وربما اعتذر بعضهم وقال لا قدرة له ولا يبقى في البلاد فتى ولا شابة إلا وحضر ذلك المجمع، ويبيتون ليلتهم كذلك، وفريق من الناس يصلون، وفريق فيما شاء من الصياح، وفريق في التمتع بالنظر، ويرون ذلك كله تبركا بالليلة المباركة، وما هي إلا كما قال الحريري عام عياط ومياط، فهي ليلة هياط ومياط، فسبحان ربنا ما أوسع حلمه. وكنت أظن أن هذا قريب العهد لعدم الحكم ولانقضاء العلماء حتى رأيت هذا السيد تبرأ مما

وقع له من ذلك في وقته، وأنا والمستضعفون من المؤمنين متبرئون مما تبرأوا منه وزيادة ما زيد من ذلك في وقتنا، وحسبنا الله ونعم الوكيل. فمن يستحسن شيئا مما نهى الكتاب والسنة عنه فلم يرد بقراءته وجه الله وهو ممن قال فيه صلى الله عليه وسلم: **«أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بِعِلْمِهِ»**.

فإن قيل: الاستماع لطلب الرقة ممدوح، وكل واحد من المستمعين وجد رقة وحالة انتقل بها في باطنه لحالة أخرى وجد بها وجدا.

فالجواب: أن الوجد إلهي وشيطاني:

-فالإلهي يؤثِّر الأحوال الحسنة الشرعية، فيسرع الى التوبة، ويندم على ما سلف له من سوء الفعل، ويتبدل من حال المعصية للتوبة، ويظهر عليه في حبه للآخرة والاقبال على أسبابها، لأنه تُلي عليه كتاب سيده فلا يسعه إلا العمل بمقتضاه، هذا في العاصي المقارب للخير، وأما من سبق له الصلاح فإنه تنخرق له الأستار لسماعه وتتلقى سره هبة أسرار التوحيد على فسيح الامتنان ومعالم العرفان.

-وأما الوجد الشيطاني فحرقة الهوى تتقد في أحشائه ينصرف بها إلى محبة الصور المحرمة ومعانقتها.

فمن وجد في نفسه الحالة الأولى يندب في حقه الاستماع بشروطه؛ ومن وجد الحالة الثانية حرم عليه الاستماع وإن كان بشروطه؛ ومن كان بينهما بحيث لا يتضرر ولا يشغل وقتا

مطلوبا يجوز له الاستماع بشروطه، وهي أن لا يكون السماع بمحل يحضره الأحداث وسماع النساء والمساجد وأوقات الصلاة، لأنه لهو مباح في حق من لم يتضرر به والمساجد تنزه عن اللهو، ولا يداوم عليه. فمطلق سماع الصوت الحسن لا نكير عليه إلا أن يعرض لذلك مانع على ما تقدم، وبالله التوفيق.

وذكرنا هذا ليجتنب الموفق منه ما حقه أن يجتنب، فإن اللهو إسراف في العمر، وكان الشيخ يحيى بن عمر العالم العامل ينكر جميعه، وكان الفقهاء في زمانه بإفريقية يحضرون السماع وكان يعيب عليهم ذلك ويسمى القوالين المعبرين، فكان يقول: سبحان الله ما للقرآن إذا تلاه المعبر يخشع وإذا تلاه غيره لا يخشع؟ فقال لهم زعيمهم: أنا أسيبه لكم، أو كيف ما قال، فجاء إلى محل يستمع الشيخ فقرأ فدعا عليه الشيخ فبحَّ وفسد صوته، وكان يرى ذلك من كراماته.

واعلم أن أضر الأسباب الخارقة للمروءة الانهماك في طلب الرزق والإفراط فيه حتى لا يشعر بنفسه في أي باب هو، وما يأتيك من ذلك قد فرغ منه قبل بروزك إلى هذا الوجود. وإن أبشع وأفظع ما يؤتى في طلبه من تلك الأبواب اكتسابه بالدِّين وأكله بذات التقى وليس من المتقين، وسيبلى يوم تبلى السرائر ولا ناصر له من المنتصرين، ونسأل الله ستره يوم إسبال ستره على المذنبين.

قال الغزالي: واحذر أن تعطى بالدين، وذلك أن يعطيك لظنه بأنك ورع تقي فتأكل بالدِّين، ولكن شرط حلِّه أن لا يكون في باطنك ما لو اطلع عليه المعطي لامتنع من العطاء. فلا فرق بين ما يأخذه بالتصوف والتقوى وهو ليس متصفا به باطنا، وبين من يزعم أنه علوي ليعطى وهو كاذب، وكل ذلك حرام عند أولي البصائر، وإن أفتى الفقيه بالحل بناءً على الظاهر. اهـ.

وكذلك على هذا من تصدر في الامامة والشهادة وهو يعلم الجرحة في نفسه، وتصدى للفتيا والقضاء وهو لم يتقنها بشرائطها على هذا القياس فالله أعلم. ولم يكتب الكاتب هذا على تبرئته بل لتقوم حجة الله، وما منا إلا له مقام معلوم عنده في التستر به عن الناس، اللهم يسر علينا أحسن المخارج.

واعلم أن الناس يجوعون يوم القيامة جوعا شديدا، فمنهم آكل وغير آكل، وربما استغرب ذلك من سمعه، فنورد من ذلك أدلة صريحة على وقوعه لمن كان أهلًا لذلك:

فمن العلوم الفاخرة لسيدي عبد الرحمن الثعالبي رحمه الله: أخرج أبو بكر بن الخطيب عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَجْوَعَ مَا كَانُوا قَطُّ، وَأَظْمَأَ مَا كَانُوا قطُّ، وَأَعْرَى مَا كَانُوا قطُّ، فَمَنْ أَطْعَمَ للهِ أَطْعَمَهُ اللهُ، وَمَنْ**

سَقَى للهِ سَقَاهُ اللهُ، وَمَنْ كَسَى للهِ كَساهُ، وَمَنْ عَمِلَ للهِ كَفَاهُ».

وذكر القرطبي أنه يحشر (الناس) عراة غرلًا أعطش ما كانوا قط وأجوع ما كانوا قط، فلا يسقى في ذلك اليوم إلا من سقى لله، ولا يطعم إلا من أطعم لله، ولا يكسى إلا من كسى لله، ولا يكفى إلا من اتكل على الله. ومصداق هذا من كتاب الله: **(يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا، وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ)** إلى قوله: **(فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ)**، أي من إزالة الجوع والعطش والعري إلى غير ذلك من أهوال القيامة وأفزاعها.

ثم قال أي سيدي عبد الرحمن في قوله: **(يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ)**: فعن ابن مسعود تبدل الأرض نارا والجنة من ورائها ترى أكوابها وكواعبها، وعن علي تبدل الأرض فضة والسماء ذهبا، وعن جعفر بن محمد تبدل الأرض خبزة يأكل منها الخلق يوم القيامة ثم قرأ: **(وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ)**، وعن سعيد بن جبير ومحمد بن كعب: تبدل الأرض خبزة بيضاء فيأكل المؤمن من تحت قدميه.

وما ذكراه من هذا المعنى مروي في الصحيح، قال ابن عطية روي في تبديل الأرض أخبار منها في الصحيح: «**يُبَدِّلُ اللهُ هَذِهِ الْأَرْضَ بِأَرْضٍ عَفْرَاءَ بَيْضَاءَ كَأَنَّهَا قُرْصَةِ**

نَقِيٍّ»، وفي الصحيح: أن الله يبدلها خبزة يأكل المؤمن منها من تحت قدميه. ثم روى ابن عطية عن أبيه أن التبديل في الأرض لكل فريق بما يقتضيه حاله، فالمؤمن يكون على خبز يأكل منه بحسب حاجته، وفريق يكون على فضة إن صح السند، وفريق الكفرة يكونون على نار ونحو هذا مما كله واقع تحت قدرة الله عز وجل.

قال الغزالي في الدرة الفاخرة: والناس على أنواع في المحشر: فالملوك كالذر كما جاء عن المتكبرين، وليس المراد كهيئة الذر في الخلقة وإنما المعنى أنهم تحت الأقدام حتى صاروا كالذر في مذلتهم وانحطاطهم؛ وقوم يشربون ماءً باردًا عذبًا زلالًا، لأن الصبيان يطوفون على آبائهم بكؤوس من أنهار الجنة؛ وقوم مد على رؤوسهم ظل يمنعهم من الحر وهي الصدقة الطيبة.

وذكر القرطبي عن أبي بكر برجان في إرشاده: ولا يبعد عنك رحمك الله أن يكون الناس كلهم في صعيد واحد وموقف (واحد) سواء، وأحدهم يشرب وآخر لا يشرب، وأحدهم يسعى نوره بين يديه والآخر في الظلمة، وأحدهم في حر الشمس وآخر مستظل بظل العرش مع قرب المكان والمجاورة، لأنهم كانوا كذلك في الدنيا يمشي المؤمن بنور إيمانه بين الناس والكافر في ظلام كفره، والمؤمن في وقاية الله وفي كفايته، والكافر والعاصي في

خذلانه وغوايته، والمؤمن السني يكرع في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ويروى ببرد اليقين ويمشي في سبيل الهداية بحسن الاقتداء، والمبتدع عطشان سالك في مسالك الضلالة والبدع وهو لا يدري، كذلك في الوجود الأعمى لا يجد نور بصر البصير ولا ينفعه.

قال الشيخ الثعالبي رحمه الله: فاعمل في أيام قصار لأيام طوال تربح ربحا لا منتهى لسروره، واستحقر عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة مثلا لتتخلص من يوم مقداره (خمسون) ألف سنة. فلو لم تعمل إلا للخلاص من ذلك اليوم دون رجاء الجنة وخوف النار لكان ربحك كثيرا.

ثم قال صاحب النقاية: واعلم أنه كلما طال قيامك في طاعة الله عز وجل وإقبالك وإدبارك في حاجة مسلم يقل مشيك في ذلك اليوم ويقل نصبك، وبقدر ما تبذل تعطى، وكما تدين تدان.

وقال الغزالي: من طال انتظاره في الدنيا للموت لشدة مقاساته الصبر عن الشهوات فإنه يقصر انتظاره في ذلك اليوم.

وقال في الاحياء: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**ثَلَاثَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى كَثِيبٍ مِنْ مِسْكٍ لَا يَهُمُّهُمْ حِسَابٌ وَلَا يَنَالُهُمْ فَزَعٌ حَتَّى يُفْرَغَ مِمَّا بَيْنَ النَّاسِ: رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَأَمَّ النَّاسَ وَهُمْ بِهِ رَاضُونَ، وَرَجُلٌ أَذَّنَ فِي مَسْجِدٍ وَدَعَا**

إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ، وَرَجُلٌ ابْتُلِيَ بِالرِّزْقِ فِي الدُّنْيَا فَلَمْ يَشْغَلْهُ ذَلِكَ عَنْ الْآخِرَةِ».

قال القشيري رحمه الله في التحبير: قيل لو أن رجلا له ثواب سبعين نبيا وله خصم بنصف دانق لا يدخل الجنة حتى يرضى خصمه، وقيل: يؤخذ بدانق فضة سبعمائة صلاة مقبولة فتعطى للخصم وقد لا يكون شيء أشد على أهل القيامة (من) أن يرى الانسان من يعرفه مخافة أن يدعي عليه شيئا، والدانق سدس درهم.

وروى رزين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا نسمع أن الرجل يلتقي بالرجل يوم القيامة وهو لا يعرفه فيقول له: ما لك إلي وما بيني وبينك معرفة، فيقول: كنت تراني على الخطايا وعلى المنكر ولا تنهاني.

وقال في الحديث الواحد الذي رحل جابر بن عبد الله من أجله إلى عبد الله بن أنيس مسيرة شهر، هو قول عبد الله: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**يَحْشُرُ اللهُ الْعِبَادَ أَوْ قَالَ: النَّاسَ** -شَكَّ هَمَّامٌ وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الشَّامِ- **عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا**»، قَالَ: مَا بُهْمًا؟ قَالَ: «**لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ فَيُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يُسْمَعُ مَنْ بَعُدَ وَمَنْ قَرُبَ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ، لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَوَاحِدٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَطْلُبُهُ بِمَظْلَمَةٍ، (وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**

أَنْ يَـدْخُلَ النَّارَ وَأَحَـدٌ مِنْ أَهْـلِ الْــجَنَّةِ) يَطْلُبُهُ بِمَظْلَمَةٍ حَتَّى اللَّطْمَةُ»، قَـالَ: قُلْنَـا وَكَيْـفَ؟ وَإِنَّمَـا نَـأْتِي اللـهَ حُفَـاةً عُـرَاةً، قَـالَ: **«بِالْــحَسَنَاتِ وَالسَّــيِّئَاتِ»**. اهــ. بعض مـا يحصل بـه التـذكير لمن يتـذكر من كلام الشـيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي رحمه الله.

والمقصود به أن بعض الناس ربما استغرب احتياج الناس إلى الأكل والشـرب في عرصـات القيامـة، وأنـه لا وجـود هنالـك لمـا يؤكـل أو يشرب. أما من استغربه لأجل ما يرى من رمـة العظـام وكـون الحيـاة الثانيـة لا على طبعهـا البشـري إلى هـذا الاحتيـاج فإنـه يخشـى على نفسـه مـا هـو أشـد من ذلـك الشـك في تمـام الإعادة. ومـا ذكـره الغـزالي في ذخيرتـه أنـه لا أكل هنالك ولا شـرب ولا نـوم، فـالنوم مسـلم، وأما عـدم الأكـل والشـرب عنـده فيجب حملـه على أن ذلك غير مبـذول للخلائـق بأسـرها كمـا هـو المعتـاد في الـدنيا، وإلا فمثـل الغـزالي لا يخفى عليـه مـا تقـدَّم من النصـوص. ومـا يـأتي أيضا لابن حجر في شـرح حـديث الصـحيح، بـل تقدم عنه خلاف ذلك كما نقـل عن سـيدي عبـد الرحمن إذ قال آنفا: وقوم يشربون مـاءً بـاردا، الخ.

وينبغي أن ينبه العـوام لـذلك ليتخـذوا أهبـة زادهم (الآن من) المـأكول (والمشــروب وهم) لم يشكوا فيه، وعليـه صـاروا أسـارى في هـذه الحياة الأولى، فلعـل ذلـك أن يكـون داعيـة لهم

إلى الاستعداد للحياة الأخروية مع أن الله تعالى تكفل به في الدنيا ولم يتكفل به في الآخرة.

يروى أن الحجاج خطب يوما فقال: إن الله تكفل لنا بالدنيا ووكلنا إلى طلب الآخرة، وليتنا تكفل لنا بالآخرة (ووكلنا إلى طلب الدنيا)، فقال الحسن: سبحان الله كلمة حكمة صدرت من فاسق، أو قال: كلمة حق ومصداقه قوله صلى الله عليه وسلم: «**الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، فَأَيْنَمَا وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا**».

ابن حجر:

«**تَكُونُ الأَرْضُ يَوْمَ القِيَامَةِ**»، يعني أرض الدنيا «**خُبْزَةً يَتَكَفَّؤُهَا الجَبَّارُ**»، أي يميلها مِنْ كَفَأْتُ الْإِنَاءَ إِذَا قَلَّبْتُهُ؛ قَوْلُهُ: «**كَمَا يَتَكَفَّأُ أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ**»، قَالَ الْخَطَّابِيُّ: يَعْنِي خُبْزَةَ الْمَلَّةِ الَّتِي يَصْنَعُهَا المسَافِرُ فَإِنَّهَا لَا تُدْحَى كَمَا تُدْحَى الرُّقَاقَةُ وَإِنَّمَا تُقَلَّبُ عَلَى الْأَيْدِي حَتَّى تَسْتَوِيَ، «**نُزُلًا لِأَهْلِ الْجَنَّةِ**» بضم الزاي وقد تسكن ما يقدم للضيف ويطلق على الرزق وعلى الفضل وما يعجل للضيف قبل الطعام وهو اللائق هنا. قال الداودي: المراد أنه يأكل منها من سيصير إلى الجنة من أهل المحشر لا أنهم لا يأكلونها حتى يدخلوا الجنة، وظاهر الخبر يخالفه، وكأنه بنى على ما أخرج الطبراني عن سعيد بن جبير قال: **تَكُونُ الْأَرْضُ خُبْزَةً بَيْضَاءَ يَأْكُلُ الْمُؤْمِنُ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ**، وعن محمد بن كعب أو محمد بن سيرين نحوه، وللبيهقي عن

عكرمة بسند ضعيف: **تُبَدَّلُ الْأَرْضُ مِثْلَ الْخُبْزَةِ يَأْكُلُ مِنْهَا أَهْلُ الْإِسْلَامِ حَتَّى يَفْرَغُوا مِنَ الْحِسَابِ**، وعن أبي جعفر الباقر نحوه.

ثم ذكر ابن حجر استشكال بعضهم انقلاب جرم الأرض إلى طبع المأكول والمشروب، وأجاب عن ذلك فانظره.

ومرادنا من هذا (إثبات) افتقار الخلق إلى المأكول والمشروب، وإثبات وجود ما يؤكل ويشرب لمن كان أهلا لذلك، وأن ذلك لا من باب المجاز بل على الحقيقة. وإلى ذلك أشار ابن حجر بقوله: والأولى الحمل عن الحقيقة ما أمكن، وقدرة الله تعالى صالحة لذلك، بل اعتقاد كونه حقيقة أبلغ.

قال: ويستفاد منه أن المؤمنين لا يعاقبون بالجوع في طول زمن الموقف بل يقلب الله لهم بقدرته طبع الأرض حتى يأكلون منها من تحت أقدامهم ما شاء الله بغير علاج ولا كلفة، ويكون معنى قوله: «**نُزُلًا لِأَهْلِ الْجَنَّةِ**» الذين يصيرون إلى الجنة أعم من كون ذلك يقع قبل الدخول أو بعده، والله أعلم.

وقال في أحاديث باب الحشر:

أخرج أحمد والنسائي والبيهقي من حديث أبي ذر: حدثني الصادق الصدوق: «(**أَنَّ النَّاسَ يُحْشَرُونَ**) **عَلَى ثَلَاثَةِ أَفْوَاجٍ: فَوْجٍ طَاعِمِينَ كَاسِينَ** (**رَاكِبِينَ**)، **وَفَوْجٍ يَمْشُونَ، وَفَوْجٍ تَسْحَبُهُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى**

وُجُوهِهِمْ» الحديث. اهـ. ما قُصد نقله ملتقطا من فتح الباري لابن حجر رحمه الله.

ولفظ صدر الحديث المشروح من صحيح البخاري: عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**تَكُونُ الأَرْضُ يَوْمَ القِيَامَةِ خُبْزَةً (وَاحِدَةً)، يَتَكَفَّؤُهَا الْجَبَّارُ بِيَدِهِ كَمَا يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ، نُزُلًا لِأَهْلِ الجَنَّةِ**» الحديث.

واعلم أن ألفاظ التبديل في الروايات تكررت باختلاف فيها، ففي بعضها **(خبزة)** وفي بعضها **(كالخبزة)**، وفي بعضها **(فضة)** وفي بعضها **(كالفضة)**، وفي بعضها **(أرضا عفراء)** وفي بعضها **(نارا)**، واختلافها مع صحتها يقتضي أن كل واحد من المكلفين يرى منها ما ناسب دينه واستقامته بما جاءت به الرسل أيام حياته عليها في دار الدنيا من الكمال في دينه والتقصير فيه، وعوائد الله في الآخرة هي خرق عوائده في الدنيا فلا يطمع أحد أن يحشر هنالك إلا على ما ناسب حاله في الطاعة والعصيان.

قال ابن حجر: فيمكن الجمع بأن ذلك كله يقع لأرض الدنيا لكن أرض الموقف غيرها، ويؤيده ما وقع في الحديث قبله أن أرض الدنيا تصير خبزة. والحكمة في ذلك ما تقدم أنها تعد لأكل المؤمنين منها في زمن الموقف، ثم تصير نزلا لأهل الجنة. اهـ.

ثم التبديل المذكور لا يلزم كونه نفس جرم الأرض بل يحتمل جرم الخبزة المبدلة منها على شكلها وهيئتها في القدر والاتساع، فإذا شوهد من اقتدار الله تعالى عظم هذه الأرض واستدارتها فلا يستبعد أيضا في قدرته خلق قدرها وعلى صورتها شكلا من طعام أو فضة أو نار لأن الكل بالنسبة إلى اختراعه تعالى شيء واحد، فالقادر على ما يشاء لا يستحيل في حقه فعل، والذي يظهر أن أرض المحشر غير هذه الأرض التي نحن الآن عليها، بل هي أرض الله هذه.

قال الغزالي: هي التي يستقر الخلائق عليها يساقون من هذه إلى تلك. وهنا ذكر في ذخيرته أن الطعام والشراب في الموقف لا يمكن، ولكن تقدم من الجواب عنه ما رأيت، وذكر أن تلك الأرض خارجة عن فلك القمر وهي الأرض البيضاء التي من وراء جبل قاف، ونقل عنه في العلوم الفاخرة قوله: يبقى الناس على قبورهم بعد انبعاثهم منها مطرقين ألف سنة حتى تقوم نار من المغرب أو المشرق لها دوي فيدهش منها الخلق ويأتي كل واحد عمله ويقول له: قم إلى المحشر، فمن كان له عمل صالح شخِّص له محمله ويجعل لكل واحد منهم نور شعاعي بقدر إيمانه، ومن لا إيمان له لا نور له، وسرعة وصولهم على قدر أعمالهم. ويؤيد أيضا أن أرض المحشر غير هذه ولا مبتدلة بنفس

جوهرها ما ورد في الصحيح من شهود الأمكنة كما في الآذان ما يبلغ مد صوت المؤذن، وكذلك شهودها أيضا بما صنع فيها، ولا يأتي المكان إلا على هيئته لقيام الحجة البالغة والله أعلم، فلا بقعة من بقاع الأرض التي نحن عليها إلا وذُكِرَ اللهُ عليها أو عصي، ولذلك ينتقل الأمر عنها إلى الأرض التي لم يعص الله عليها قط.

وفي الصحيح: «**مَنْ غَصَبَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ طَوَّقَهُ اللهُ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ**» يحمله حتى يقضي بين الناس في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وقد عمت وتكررت على البقاع فلا يكتفى بحمل الأول على الأخير بل كل واحد يقطع له ما عرف ذاته الغصوبات.

فعلى هذا هذه الأرض من جملة ما يحشر ويحضر الموقف، فالله تعالى أعلم.

وفي التنزيل: (**وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً**). ابن حجر: غبارا في وجوه الكفار، ولم يذكروا مناسبتها لمن يحشر على الفضة إذا بدلت الأرض فضة والسماء ذهبا، ولعل هذا للمشغوف بها الذي قطع على تعظيمها وجمعها عمره فيحشر على حالته تلك على الفضة، ويومئذ لا يمكن الانتفاع بها ولا أخذ شيء منهما، إذ لو كانت الجنة كلها فضة لما كان لها فضل بل فيها غيرها، ترابها المسك وحصباؤها الدر والياقوت، وحشيشها الزعفران، وفواكه مما يشتهون، وأبنيتها من الذهب والفضة، إلى غير ذلك مما يتنعم به في دار

الخلـود، لا حرمنا اللـه والوالـدين والأحبـة من الوصول إلى دار القرار، رب اسـتجب إنـك أنت العزيز الغفار، نسأل الله السـلامة والعافيـة لنـا ولكم من محن الدنيا والآخرة.

وسـبب هـذه الخاتمـة مـا رأيت من بعض الناس من قلة اكتراثهم بجوع يوم الموقف، وما ترى منهم إلا من يشـتكي بِهَمِّ الـرزق في هـذه الحياة العاجلة، فإذا قيل لـه: وهـل فـرغت ممـا يُحتاج إليه من هذا في مواقف القيامة؟ يقـول: وهل الناس يأكلون هنالك إنا لا نحتاج إلى الأكل إذ ذاك، ومنهم من يجعل اتكاله على الله هنالك أقوى منه مما في هذه، وإني لأرى أن يذكر كل مؤلف فصلا من هذا الباب يجعله ذخيرة له فيما ألـف ينـبىء عن حالـه أنـه لم يكن غـافلا عن أمـره، بـل وعلى أهـل كـل مجلس اجتمعـوا أن يتذكروا به ويجعله كل واحد من مهمات أحوالـه فلعـل اللـه يـرحمهم بـذلك ويقيـل عـثراتهم، إذ بذلك يتأكـد الإيمـان بـالغيب الـذي جـاءت أنبـاء الرسل عليهم الصلاة والسـلام به، فقـد ورد أن الله تعـالى قـدر مقـادير الخلـق قبـل أن يخلـق السموات والأرض بخمسـين ألـف سـنة، ونـزل القرآن وأخبرت السـنة أن مقـدار مقـامهم بعـد إخراجهم من قبـورهم إلى أن يصـير كـل واحـد منهم إلى دار بقائـه من الجنـة أو النـار وذلـك المقدار خمسون ألـف سـنة، وكـان أول ابتـداء دوائر خلقهم النور المحمـدي، فـدار بهم شـكله الكـريم المقـدس في دوائـر التكليـف دهـورا

وقرونا متنقلين أحوالا فأحوالا، فمنهم من آمن به، ومنهم من صدَّ عنه، وكان آخر منزلة انتقالاتهم من حكم إلى حكم ومن مستقر إلى آخر (**وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**) حين ينادون ليلزم كل واحد مكانه لا انتقال ولا حالة تُسيئك فيها أيها العلوي ولا لمحة تسر بها أيها السفلي، (**لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ**).

والله المستعان وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله. اهـ. بلفظه بنقل شارح المرشد في كبيره، ونقلته برمته وفيه تصحيف كثير ليصلحه من وقف عليه، ويعترف بأنه لا عهدة علي والكمال لله العليم السميع البصير.

ولا بد لي من أن أذيله بخاتمة أخرى يحتاج إليها الناظر فيه، تناسب المقام ويحسن إلحاقها بما قبلها، وتسر المنصف بل كل مؤمن يصدق بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقتفيه، فأقول:

فصل

في ذكر ما ورد في تجلي الحق سبحانه وتعالى للخلق في الموقف، والعرض والحساب، والقصاص، ورد المظالم، وأخذ الصحف.

أما تجليه سبحانه وتعالى لأهل الإسلام وامتحانهم، وهو المراد من قوله تعالى: (**يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ**). قال بعض المحققين: كشف الساق كناية عن رفع الحجاب لعباده المؤمنين في الموقف ويرون ربهم وخالقهم من غير كيف ولا انحصار كما هو التحقيق عند أهل السنة، وينكشف لهم انكشافا تاما. قال الأمير: أي انكشافا لا على سبيل الظن والتخييل، وليس المراد رؤيته من كل وجه وإنما هي بحسب طاقة الرائي كما يشير إليه تقييد الكشف بالساق. وقال: وقرر لنا شيخنا أنهم يغيبون من شدة النعيم، فإذا أفاقوا لا يعون شيئا يخبرون به. اهـ.

وقال البيضاوي: كشف الساق كناية عن اشتداد الأمر وصعوبته، ولفظه: يوم يشتد الأمر ويصعب الخطب وكشف الساق مثل في ذلك، قال: وأصله تشمير المخدرات عن ساقهن في الحرب كما قال حاتم: وَإِنْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْب شَمِّر، أي يوم يكشف عن أصل الأمر وحقيقته بحيث يصير عيانا، وهذا تباعد منه عن ثبوت الرؤية والتجلي، فهو يميل لما ينكره

الزمخشري من الرؤية. ودليل أهل السنة في رؤيته تعالى في الموقف وتجليه ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ**» قَالُوا: لاَ، قَالَ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ**» قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كَذَلِكَ، يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ القَمَرَ القَمَرَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فِي غَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي كَانُوا يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ، هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا أَتَانَا رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ فِي الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا فَيَتْبَعُونَهُ، وَيُضْرَبُ جِسْرُ جَهَنَّمَ»، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ، وَدُعَاءُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ. وَفِيهِ كَلاَلِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهَا لاَ يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلَّا اللهُ، فَتَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمُ المُوبَقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمُ المُخَرْدَلُ، ثُمَّ يَنْجُو حَتَّى إِذَا فَرَغَ**

اللــهُ مِنَ القَضَــاءِ بَيْنَ عِبَــادِهِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ مِنَ النَّارِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخْرِجَهُ، مِمَّنْ كَــانَ يَشْــهَدُ أَنْ لاَ إِلَــهَ إِلَّا اللَــهُ، أَمَــرَ الْـــمَلائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُــوهُمْ، فَيَعْرِفُــونَهُمْ بِعَلامَــةِ آثَارِ السُّــجُودِ، وَحَــرَّمَ اللَــهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مِنَ ابْنِ آدَمَ أَثَــرَ السُّــجُودِ، فَيُخْرِجُونَهُمْ قَدْ امْتُحِشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءٌ يُقَالُ لَهُ مَاءُ الحَيَــاةِ، فَيَنْبُتُــونَ نَبَــاتَ الحِبَّةِ فِي حَمِيــلِ السَّــيْلِ، وَيَبْقَى رَجُــلٌ مِنْهُمْ مُقْبِلٌ بِوَجْهِــهِ عَلَى النَّارِ، فَيَقُــولُ: يَا رَبِّ، قَــدْ قَشَــبَنِي رِيحُهَــا، وَأَحْــرَقَنِي ذَكَاؤُهَــا، فَاصْــرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، فَلَا يَزَالُ يَدْعُو اللهَ كَذَلِكَ، فَيَقُــولُ: لَعَلِّي إِنْ أَعْطَيْتُكَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لاَ وَعِزَّتِــكَ وَجَلالِــكَ لَا أَسْــأَلُكَ غَيْــرَهُ، فَيَصْرِفُ وَجْهَــهُ عَنِ النَّارِ، ثُمَّ يَقُــولُ بَعْــدَ ذَلِــكَ: يَا رَبِّ قَــرِّبْنِي إِلَى بَــابِ الجَنَّةِ، فَيَقُولُ: أَلَيْسَ قَــدْ زَعَمْتَ أَنْ لاَ تَسْــأَلَنِي غَيْــرَهُ، وَيْلَــكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْــدَرَكَ، فَلَا يَزَالُ يَــدْعُو، فَيَقُــولُ: لَعَلِّي إِنْ أَعْطَيْتُــكَ ذَلِكَ تَسْأَلُنِي غَيْرَهُ، فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ لاَ أَسْــأَلُكَ غَيْــرَهُ، فَيُعْطِي اللــهَ مِنْ عُهُــودٍ وَمَوَاثِيقَ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهُ، فَيُقَرِّبُــهُ إِلَى بَابِ الْــجَنَّةِ، فَــإِذَا رَأَى مَا فِيهَا سَكَتَ مَا شَــاءَ اللــهُ أَنْ يَسْــكُتَ، ثُمَّ يَقُــولُ: رَبِّ أَدْخِلْنِي الْـــجَنَّةَ، فَيَقُـــولُ: أَوَلَيْسَ قَـــدْ زَعَمْتَ أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ، وَيْلَــكَ يَا ابْنَ

آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لاَ تَجْعَلْنِي أَشْقَى خَلْقِكَ، فَلاَ يَزَالُ يَدْعُو حَتَّى يَضْحَكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا ضَحِكَ مِنْهُ أَذِنَ لَهُ بِالدُّخُولِ فِيهَا، فَإِذَا دَخَلَ فِيهَا قِيلَ لَهُ: تَمَنَّ مِنْ كَذَا، فَيَتَمَنَّى، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: تَمَنَّ مِنْ كَذَا، فَيَتَمَنَّى، حَتَّى تَنْقَطِعَ بِهِ الأَمَانِيُّ، فَيَقُولُ لَهُ: هَذَا لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَذَلِكَ الرَّجُلُ آخِرُ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُولًا. قال: وأبو سعيد الخدري جالس مع أبي هريرة لا يغير عليه شيئا من حديثه حتى انتهى إلى قوله: «**هَذَا لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ**»، قال أبو سعيد: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**هَذَا لَكَ وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ**»، فقال أبو هريرة: حفظت: «**وَمِثْلُهُ مَعَهُ**».

ولا يخفاك أن ما تقدم في الحديث من نزول الحق وما يفيد الانتقال مما هو من صفات الحوادث فهو إما على تقدير مضاف كقوله: **(وَجَاءَ رَبُّكَ)**، و**(يَنْزِلُ رَبُّنَا)** أي ملك ربنا ورسوله، وإما باعتبار لازمه كالضحك، فالمراد به الرضا، والمكر المراد به لازمه وهو الانتقام والغضب كذلك. والقاعدة أن كل شيء استحال على الله باعتبار المبدأ فالمراد منه الغاية والنهاية. اهـ.

وأما العرض على الله، فقد قال الغزالي إنه بعد أن يتجلى الرب سبحانه وتعالى على عباده لفصل القضاء ينادي مناد من قبل

اللـه تعـالى: وَعِـزَّتِي وَجَلَالِي لَا يُجَـاوِزْنِي الْيَـوْمَ ظُلْمُ ظَالِمٍ وَلَا جُورُ جَائِرٍ، وَلَأَقْتَصَّـنَّ مِنَ الشَّـاةِ الْقَرْنَاءِ إِذَا نَطَحَتْ الشَّاةَ الْجَمَّاءَ، وَلَأَسْأَلَنَّ الْعُودَ إِذَا خَدَشَ الْعُودَ.

فأول ما يبدأ به العـرض على اللـه، ثم أخـذ الصـحف، ثم السـؤال، ثم الحسـاب، ثم الـوزن والميزان.

فالأول وهو العـرض على اللـه، فهـو النظـر في أحـوال الخلـق للتخويـف بإفشـاء الحـال، وإظهار تفاوت أصحاب الكمال، وفضيحة أربـاب الضـلال، وعظـائم العـرض على اللـه لا تخفى على ذي لب، فإنـه اليـوم الـذي يـذيب الأكبـاد، ويفرق الأحباب، ويفر الولـد من أبيـه، والأخ من أخيه، ويشتد فيه القلق، ويكثر فيه العـرق حـتى يغـوص في الأرض سـبعين ذراعـا، وتشـهد فيه الألسن والأيـدي والأرجل والجلـود والسـمع والبصر والأرض والمكـان والليل والنهـار والحفظة الكـرام، وتتغـير فيه الألـوان، فتـبيض وجوه وتسود وجوه، فشـدائد العـرض على الله معلومة لا ينكرها إلا ملحـد، قـال اللـه تعـالى: **(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَـةٌ)**. فعلى العاقل أن يحافظ على فعل المـأمورات واجتناب المنهيات لعل أن ينجو من المهلكات.

ووقع التوقف حينئذ في العرض هل هو عام في الكـافر وغـيره ممن لا يحاسـب كالسـبعين ألفـا أو لا يعـرض إلا من يحاسـب؟ قـال الفاكهاني: لم أر في ذلك نصـا. والعـرض أخص

من الحشر فلا ينافي ما قيل إن البهائم تحشر ولكن لا تعرض.

ووقع الخلاف فيما يدعى به الشخص يوم القيامة، والصحيح أنه يدعى بأبيه ولو من زنا، وقيل بأمه سترا لولد الزنا. اهـ. بنقل النفراوي بواسطة.

وكما يقع السؤال أيضا لأهل الموقف يقع للملائكة، فأول من يدعى إسرافيل عليه السلام فيسأل عن تبليغ الرسالة فيقول بلّغتها لجبريل، فيصدقه جبريل عليه السلام ويقول بلغتها الرسل، فيدعى أول المرسلين وهو نوح عليه السلام فيسأل فيقول بلغت قومي، فيدعى قومه فيسألون فمن صدقه منهم فهو من المؤمنين ومن كذب وأنكر شهدت عليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ويُصدقهم محمد صلى الله عليه وسلم أي يزكيهم كما قال تعالى: (**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**) أي لكم، ثم يسأل بقية الرسل عن التبليغ كما قال تعالى: (**فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ**)، وأما قوله تعالى: (**يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا**) فقيل معناه لا علم لنا بمن صدقنا وبمن كذبنا إذ لا اطلاع لنا على أسرارهم ولذلك قالوا: (**لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**).

وسؤال الملائكة والرسل إظهارا للعدل وإقامة للحجة. ويسأل الله العبد عن كل شيء حتى إنه يسأله عن نظره بعينه وعما سمعته أذناه، قال تعالى: **(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)**، **(قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ)**.

وأخرج أبو نعيم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**أَوَّلُ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ يُقَالُ لَهُ أَلَمْ أُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ، وَنُرْوِيكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ؟**».

وعنه صلى الله عليه وسلم: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَعَا اللهُ الْعَبْدَ مِنْ عِبَادِهِ لِمَوْقِفِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَيَسْأَلُهُ عَنْ جَاهِهِ كَمَا يَسْأَلُهُ عَنْ مَالِهِ**».

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ بِهِ**».

وورد: «**كُلُّ رَاعٍ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»، فإن عدل فيهم نجا وإلا كان من الهالكين، والأمير مسؤول عمن تولى أمرهم فإن أقسط بينهم فازوا وإلا كان من الخاسرين، والقاضي مسؤول عن حكمه بينهم فإن عدل خلص وإلا كان من النادمين، وناظر الوقف مسؤول عن

المستحقين فإن وفى سلم وإلا كان من الظالمين، والزوج مسؤول عن زوجته، والراعي مسؤول عن ماشيته، وذو المال مسؤول عن ماله.

وعن أبي هريرة: وكل من تولى أمرا من أمور المسلمين فهو مسؤول عنه، فإما عافية وسلامة، وإما حسرة وندامة. اهـ.

وأما الحساب فهو لغة العد، واصطلاحا توقيف الله عباده قبل الانصراف من المحشر على أعمالهم خيرا كانت أو شرا تفصيلا لا بالوزن، إلا من استثنى منهم وهم السبعون ألفا الذين لا يأخذون كتابا ويدخلون الجنة بغير حساب.

واختلف العلماء في معنى حساب الله عباده على أقوال: أحدها أنه تعالى يخلق فيهم علما ضروريا بمقادير أعمالهم، ثانيها أن يوقفهم بين يديه وتأتيهم كتب أعمالهم، ثالثها أن يكلم الله عباده في شأن أعمالهم بأن يسمعهم صوتا يخلقه الله تعالى يسمعه كل واحد يفهم منه ما له وما عليه.

وكيفية الحساب مختلفة: فمنه اليسير، ومنه العسير، ومنه الجهر، ومنه السر. ويكون للمؤمن والكافر والإنس والجن إلا من ورد الحديث باستثنائه، ففي حديث حذيفة: **«أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، لَيْسَ عَلَيْهِمْ**

حِسَابٌ». وإذا كان من المؤمنين من يكون أدنى إلى رحمة الله فلا يبعد أن يكون من الكافرين من هو أدنى إلى غضب الله فيدخل النار ولا يحاسب أيضا. اهـ. من النفراوي بواسطة.

وفي حاشية العدوي على شرح الرسالة: والحساب أن يعدد الله على العبد كل ما فعل فيكلم المولى عباده في شأن أعمالهم وكيفية ما لها من الثواب والعقاب.

قال فخر الدين: إما بأن يسمعوا كلامه القديم أو يسمعوا صوتا يدل عليه، يخلقه في كل أذن من المكلفين أو في محل يقرب من أذنه بحيث تبلغ قوة ذلك الصوت منع الغير من سماع ما كلف به. اهـ.

فعلى هذا المحاسب هو الله تعالى. قال اللقاني: وعندي أن الحق، أي من أقوال ذكرها، أن الخلق في المحاسبة مختلفة الأحوال: فمنهم من يحاسبه الله والملائكة، ومنهم من تحاسبه الملائكة، ومنهم من لا يحاسب أصلا. اهـ.

وفي كتاب التحفة: واختلفوا فيمن يحاسب الخلق: فقيل إن الله تعالى يحاسب جميع الخلق بنفسه ويخاطبهم جميعا، وقيل إنه لا يحاسبهم واحدا بعد واحد بل جملة. وفي الحديث: «**مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حَاجِبٌ وَلَا تُرْجُمَانٌ**».

وفي بعض الأحـــاديث أنـــه يوقـــف شـــيخ للحساب فيقول الله: يا شيخ ما أنصفت بالنعيم صغيرا فلما كبرت عصيتني، أما إني لا أكون لك كما تكـون لنفسـك، اذهب فقـد غفـرت لـك مـا كان منك. وإنه ليـؤتى بالشـاب كثـير المعاصـي فإذا وقف بين يـدي اللـه تضعضعت واصـطكت ركبتاه، فيقول الرب جل جلاله: أما استحييتني؟ أما راقبتني؟ أما خشيت نقمتي؟ أما علمت أني مُطلـع عليك؟ فمـدوه إلى أمـه الهاوية؛ وآخـر يقـول له: لقـد سـترتها عليـك في الـدنيا وأنـا أغفرها لـك اليـوم؛ ومنهم من يعدِّد عليـه ذنوبـه فلا يفضحه بين الخلائق ثم يعفو عنـه، فهـذا هـو الحساب اليسير.

وأمـا من نـوقش الحسـاب عـذب، قيـل إن الله تعالى يحاسـب المؤمـنين، ويـأمر الملائكـة فتحاسـب الكـافرين ولا يكلمهم اللـه تعـالى ولا يخـاطبهم. ورجح الأول، ويكـون خطابـه تعـالى للمؤمنين خطاب رحمة ولطف ومسرة، ويكون خطابه للكافرين خطاب تعذيب وتغليـظ وتـوبيخ وتحزين.

قـــال العـــدوي رحمـــه الله: والكـــافرون يحاسـبون على رؤوس الأشـهاد، ويُنـادى بهم: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنـة اللـه على الظالمين، فيحاسب المؤمن بالفضل ويحاسـب الكافر بالعدل، فلما كان حسـاب المـؤمن سـتر وغفـر ناسـب الفضـل، ولمـا كـان في حسـاب الكافر الهتك ناسب العدل.

ونقل الشيخ اللقاني عن بعضهم أن الفاسق يحاسب بين معارفه ليكون ذلك أقطع، ومع هذا فتسع قدرته تعالى لمحاسبة الخلق كلهم معا، فلا يشغله شأن عن شأن، كما تسع قدرته تعالى إحياء الخلق الكثير معا، قال الله تعالى: (**مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ**).

وفي البخاري عن صفوان قال: بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي مَعَ ابْنِ عُمَرَ آخِذٌ بِيَدِهِ إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: (هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)**».

قال القسطلاني الشارح: وإلجاء الله العبد على الإقرار بذنوبه ليعرف منة الله عليه في سترها عليه في الدنيا، وفي عفوه عنها في الآخرة. اهـ.

قال الشيخ حسن العدوي: وهذا لمن كان شأنه الستر على إخوانه المؤمنين في الدنيا. ويدل عليه ما رواه الإمام البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ** -بضم أوله وكسر ثالثه، أي لا يتركه مع من يؤذيه بل يحميه- **وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

وفي المواهب في حديث ابن عباس لأبي داود مرفوعا: « **إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَقْضِيَ بَيْنَ خَلْقِهِ، نَادَى مُنَادٍ: أَيْنَ مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ؟ فَأَقُومُ وَتَتْبَعُنِي أُمَّتِي غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الطُّهُورِ**»، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فَنَحْنُ الْآخِرُونَ وَالْأَوَّلُونَ وَأَوَّلُ مَنْ يُحَاسَبُ وَتُفْرِجُ لَنَا الْأُمَمُ عَنْ طَرِيقِنَا، تَقُولُ الْأُمَمُ: كَادَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ أَنْ تَكُونَ أَنْبِيَاءَ كُلَّهَا**». قال: وللنسائي مرفوعا: «**أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ الصَّلَاةُ، وَأَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ**».

قال: وروي البزار عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**يُخْرَجُ لِابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةُ دَوَاوِينَ: دِيوَانٌ فِيهِ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَدِيوَانٌ فِيهِ ذُنُوبُهُ،**

وَدِيوَانٌ فِيهِ النِّعَمُ مِنَ اللهِ عَلَيْهِ. فَيَقُولُ اللهُ لِأَصْغَرِ نِعْمَةٍ -أَحْسَبُهُ قَالَ:- فِي دِيوَانِ النِّعَمِ: خُذِي ثَمَنَكِ مِنْ عَمَلِهِ الصَّالِحِ، فَتَسْتَوْعِبُ عَمَلَهُ الصَّالِحَ، (ثُمَّ تَنَحَّى) وَتَقُولُ: وَعَزَّتِكَ مَا اسْتَوْفَيْتُ، وَتَبْقَى الذُّنُوبُ وَالنِّعَمُ، وَقَدْ ذَهَبَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ (كُلُّهُ)، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَرْحَمَ عَبْدًا قَالَ: يَا عَبْدِي، قَدْ ضَاعَفْتُ لَكَ حَسَنَاتِكَ، وَتَجَاوَزْتُ عَنْ سَيِّئَاتِكَ -أَحْسَبُهُ قَالَ:- وَوَهَبْتُ لَكَ نِعَمِي».

وسئل علي بن أبي طالب عن محاسبة الخلق فقال: كما يرزقهم في غداة واحدة كذلك يحاسبهم في ساعة واحدة.

وَرُوِيَ **أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُوقِفُ الْعَبْدَ بَيْنَ يَدَيْهِ يَقُولُ له: يَا عَبْدِي أَمَا فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ ويعدّد له ذنوبه، فَيَقُولُ: بَلَى يَا رَبِّ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا عَبْدِي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ».** اهـ.

فقيل: هي ذنوب تاب منها، فان الله تعالى يغفرها بالتوبة لكن لا يمحوها من الصحيفة حتى يوقفه عليها، كذلك نقل الأوزعي. ولا يُعارض هذا بما ورد أن السيئات تبدل بالتّوبة حسنات، لاحتمال كون التبديل بعد وقوفه عليها يوم القيامة.

وقيل: هي ذنوب بين العبد وبين ربه. وأما مظالم العباد فلا بد فيها من القصاص، وأيضا

الحقوق لأربابها، لأنه تعالى حكم عدل فيرد مظالم العباد لأصحابها ولو ذرة كما قال تعالى: **(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا)**، وهو الخيط الرقيق الذي يكون في بطن النواة، والقطمير القشرة التي تكون على ظهر النواة.

وعن علي كرم الله وجهه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَعَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ فَيُوقِفُهُ عَلَى ذُنُوبِهِ ذَنْبًا ذَنْبًا ثُمَّ يَغْفِرُ لَهُ، وَلَا يَطَّلِعُ عَلَى ذَلِكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَيَسْتُرُ مِنْ ذُنُوبِهِ عَلَيْهِ مَا يَكْرَهُ أَنْ يَقِفَ عَلَيْهَا أَحَدٌ، ثُمَّ يَقُولُ لِسَيِّئَاتِهِ كُونِي حَسَنَاتٍ».**

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **يُدْنِي اللهُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيَسْتُرُهُ مِنَ الْخَلَائِقِ كُلِّهَا، وَيَدْفَعُ إِلَيْهِ كِتَابَهُ فِي ذَلِكَ السَّتْرِ، فَيَقُولُ: اقْرَأْ يَا ابْنَ آدَمَ كِتَابَكَ، قَالَ: فَيَمُرُّ بِالْحَسَنَةِ فَيُضِيءُ وَجْهُهُ، وَيَمُرُّ بِالسَّيِّئَةِ، فَيَسْوَدُّ وَجْهُهُ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَتَعْرِفُ يَا عَبْدِي؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَعْرِفُهُ، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَعْرَفُ بِهَا مِنْكَ غَفَرْتُهَا لَكَ، فَلَا يَزَالُ بَالْحَسَنَةِ تُقْبَلُ فَيَسْجُدُ لَهَا، فَلَا يَرَى الْخَلَائِقُ مِنْهُ إِلَّا ذَلِكَ، فَيُنَادِي الْخَلَائِقُ بَعْضُهَا بَعْضًا: طُوبَى لِهَذَا الْعَبْدِ الَّذِي لَمْ يَعْصِ قَطُّ، وَلَمْ يَدْرُوا مَا قَدْ لَقِيَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَى»**، وكل

ذلك تفضل منه سـبحانه وتعـالى، ومع ذلك فيكفي المـؤمن خجلته من المنعم أذا قـرره بذنوبه وعدد عليه نعمه.

قـال الفضـيل رحمه الله تعـالى: واسـوأتاه وان عفا.

وقال ابن عباس رضي الله عنه في تفسـير قوله تعالى: (**يَـوْمَ تَـأْتِي كُـلُّ نَفْسٍ تُجَـادِلُ عَنْ نَفْسِهَا**) الآيـة، أي لاتـزال الخصـومة بين النـاس يـوم القيامة حـتى يتخاصم الـروح والجسد، فتقـول الـروح للجسد: أنت فعلتَ، فيقول الجسد للروح: أنتِ أمـرتِ أنتِ سـولتِ، فيبعث الله لهمـا ملكا يقضي بينهما، فيقـول لهما: إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصـير وآخر ضـرير دخلا بسـتانا فقـال المقعد للضـرير: إني أرى ها هنا ثمـرة ولكن لا أصل إليهان فقـال الضـرير: اركبـني فركبه فتناولها، فأيهما المتعدي؟ فيقـولان: كلاهما، فيقـول لهما الملك إنكما قد حكمتما على أنفسـكما. ومعـنى الحـديث أن الجسد للـروح كالمطية وهي راكبة فهي تـدل وتسـول لكن لا تصل إلى ما تريد إلا بالجسد.

وأما ما جـاء في القصـاص يـوم القيامة، وكيفية رد الحقـوق الخاصة والعامة إلى أهلها، فآيات كثيرة، وأخبار شهيرة.

قـال الله تعـالى: (**فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَـيْئًا**)، (**وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَـهُمْ وَأَثْقَـالًا مَـعَ**

أَثْقَالِهِمْ)، وقال تعـالى: (**لِيَحْمِلُـوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَــةً يَــوْمَ الْقِيَامَــةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ**)، وهذا يـبين معـنى قوله تعــالى: (**وَلَا تَــزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْــرَى**)، أي لاتحمل حاملة حمل أخـــرى إذا لم تتعد، فـــإذا تعـدت واسـتطالت بغـير ما أمـرت فأنه يحمل عليها ويؤخذ منها بغـــــــــير اختيارها، فيؤخذ للمظلـــوم من حســـنات الظـــالم، ويؤخذ من سيئات المظلوم فيطرح على الظالم، ثم يطرح في النـــار كما دلت عليه الســـنة ردا على من أنكر ذلك من أهل البدع.

وأما الأخبار فكثيرة جدا:

فمنها ما روي عن عمرو بن العـــاص رضي الله عنه: إذا كان يوم القيامة مــدت الأرض من الأديم وحشر الجن والإنس والدواب والوحوش، فــإذا كــان كــذالك يقتص للشــاة الجمــاء من القرنــاء بنطحها، فــإذا كــان الله قد فــرغ من القصاص من الدواب قال لها كوني ترابا فيراها الكافر فيقول: يا ليتني كنت ترابا.

وفي المواهب عن الأمام أحمد بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: «**لَيَخْتَصِمَنَّ كُـلُّ شَـيْءٍ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ حَتَّى الشَّـاتَانِ فِيمَا انْتَطَحَتَا**». قال الشـارح الزرقـاني: وفي رواية لأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قــال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: «**يُحْشَـرُ الْــخَلْقُ كُلُّهُمْ يَــوْمَ الْقِيَامَــةِ الْبَهَـائِمُ،**

وَالدَّوَابُّ، وَالطَّيْرُ، (وَكُلُّ شَيْءٍ)، فَيَبْلُغُ مِنْ عَدْلِ اللهِ أَنْ يَأْخُذَ لِلْجَمَّاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ، ثُمَّ يَقُولُ: كُونِي تُرَابًا.

وروى القشيري في الخبر أن الوحوش والبهائم تحشر فتسجد لله سجدة، فتقول الملائكة: ليس هذا يوم سجود هذا يوم الثواب والعقاب، فتقول البهائم: هذا سجود شكر حيث لم يجعلنا من بني آدم.

وفي خبر البخاري رحمه الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلِمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ**».

قال شارحه القسطلاني:

«**مَظْلِمَةٌ**» بكسر اللام، وحكي فتحها.

وقوله: «**مِنْ عِرْضِهِ**» بكسر العين والضاد والهاء، موضع الذم والمدح من الإنسان سواء كان في نفسه أو أصله أو فرعه.

وقوله: «**أَوْ شَيْءٍ**» أي من الأموال والجراحات حتى اللطمة، فهو من عطف العام على الخاص.

وقوله: «**فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ**» نصب على الظرفية ومجرور من الضمير، والمراد من اليوم أيام الدنيا، لمقابلته لقوله: «**قَبْلَ أَنْ لَا**

يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ». والمراد بالتحلل، أن يجعله في حل وليطلبه ببراءة ذمته.

وقال الخطابي: يستوهبه ويقطع دعواه عنه لأن ما حرم الله من الغيبة لايمكن حله، ولـذلك جاء رجل إلى ابن سرين فقال: اجعلني في حل فقد اغتبتك، فقــال: لا أحل ما حرَّم الله، ولكن ما كان من قبلِنا فأنت في حل.

ثم اعلم أن ذلك الـذي يؤخذ من المظـالم كما في البـدور والقرطـبي يكـون بعد الصـراط قبل دخـول الجنة، وأن الصـحيح عند الحـاكم وغيره تقدم الصـراط على الحـوض، قـال: وهو الـذي ينبغي اعتمـاده. وممن صـرح به صـاحب الإفصـاح، قـال: ويؤيـده من جهة المعـنى أن الصـــراط يســـقط عنه من يسقط عنه من المؤمنين، ويخدش فيه من يخدش، ووقوع ذلك للمـؤمن بعد شـربه من الحـوض بعيـد، فناسب تقـديم الصـراط إذا خلص الشـرب، وذلك مبـدأ إيقاع النعيم.

قال: فـان قيل: فـإذا خلصـوا قـرب دخـول الجنة فإذًا لم يحتج إلى الشرب.

قلت: كلا بل هم محبوســـون هنـــاك لأجل التظـالم، فكـان الشـرب في موقف القصـاص. ويحتمل الجمع بـأن يقع الشــرب من الحــوض قبل الصراط لقوم، وتأخيره بعد لآخرين بحسب ما عليهم من الــذنوب حــتى يــذهبوا منها على الصراط. قال: ولعل هذا أقوى، والله أعلم. اهـ. لفظه.

وفي حاشـــية العلامة الجمل في تفســـير قوله تعــالى: **(سَـلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ)**، قـــال: وفي القرطـــبي: أي طبتم في الـــدنيا، قـــال مجاهد: بطاعة الله، وقيل بالعمل الصالح، حكاه النقـــاش، والمعـــنى واحد. وقـــال مقاتل: أذا قطعـــوا جسر جهنم حبســـوا على قنطـــرة بين الجنة والنار، فيقضى لبعضهم من بعض مظـالم كـانت بينهم في الـدنيا حـتى أذا هـذبوا وطيبـوا قـال لهم رضـوان وأصـحابه: **(سَـلَامٌ عَلَيْكُمْ** بمعـنى التحية، **طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِـدِينَ)**. اهـ.

قال: قلتُ خـرَّجَ البخـاري حـديث القنطـرة هذا، في جامعه من حـديث أبي سـعيد الخـدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: « **يَخْلُصُ الْـــمُؤْمِنُونَ مِنْ النَّارِ فَيُحْبَسُـــونَ عَلَى قَنْطَـــرَةٍ بَيْنَ الْـــجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِـمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَـالِمُ كَـانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الـــدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُـــذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَـــهُمْ فِي دُخُـولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَـدِهِ لَأَحَـدُهُمْ أَهْـدَى** -أي أعـرف- **بِمَنْزِلِهِ فِي الْـجَنَّةِ مِنْـهُ بِمَنْزِلِـهِ كَـانَ فِي الدُّنْيَا».**

وحكى النقـاش أن على بـاب الجنة شـجرة ينبع من سـاقها عينـان يشـرب المؤمنـون من إحـداهما فتطهر أجـوافهم، فـذلك قوله تعـالى: **(وَسَـــقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَـــرَابًا طَهُـــورًا)**، ثم يغتسلون من الأخرى فتطيب أجسادهم فعنـدها

يقول لهم خزنتها: (**سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**)، وهذا يروى معناه عن علي رضي الله عنه. اهـ.

وفي رواية البخاري أيضا عنه صلى الله عليه وسلم قال: «**إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا، أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا**».

قال القسطلاني شارحه:

«**خَلَصَ**» بفتح اللام أي نجا.

وقوله: «**مِنَ النَّارِ**» أي من الصراط المضروب على النار.

وقوله: «**حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ**» أي كأنه بين الجنة والصراط الذي على متن النار.

وقوله: «**فَيَتَقَاصُّونَ**» بضم الصّاد مشددة من القصاص، والمراد تتبع ما بينهم من المظالم.

وقوله: «**مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا**»، أي أنواع المظالم المتعلقة بالأبدان والأموال، فيتقاصون بالحسنات والسيئات، فمن كانت مظلمته أكثر من مظلمة أخيه أخذ من حسناته، ولا يدخل أحد الجنة ولأحد عليه تباعة.

وقوله: «**حَتَّى إِذَا نُقُّوا**» بضم النـــــــون والقاف المشددة، مبني للمفعول من التنقية.
وقوله: «**وَهُــذِّبُوا**» بضم الهــاء وتشـــديد الــدال، خلصــوا من الآثــام بمقاصصة بعضــها ببعض أذن لهم بدخول الجنة.
وقوله: «**لَأَحَــدُهُمْ**» بــالرفع مبتــدأ، وفتح اللام للتوكيد، وخبر المبتدأ «**أَدَلُّ**». قــال: وإنما كــان «**أَدَلُّ**» لأنهم عرفــوا مســاكنهم بعرضــها عليهم بالغادة والعشي. اهـ.
وفي المــــواهب: قد صح أن أول ما يقضى بين النــاس في الــدماء كما في البخــاري، وفي رواية للنســـائي مرفوعا: «**أَوَّلَ مَا يُحَاسَـــبُ عَلَيْهِ الْعَبْـدُ الصَّلَاةُ، وَأَوَّلُ مَا يُقْضَـى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ**».
قال: وفي البخاري عن علي بن أبي طـالب رضي الله تعالى عنه قــال: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ (يَجْثُو) يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيْ الرَّحْمَنِ لِلْخُصُــومَةِ»، يريد قصته في مبارزته هو وصــاحبه الثلاثة من كفــار قــريش. قــال أبو ذر: وفيهم نــزلت، (**هَــذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ**). اهـ.
قال الزرقــاني شــارحه عن قيس بن عبــاد: نــزلت في المتبــارزين يــوم بــدر: حمــزة وعلي وعبيدة بن الحارث، برزوا لعتبة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة.
وفي الشيخ عبد الباقي على خليل: ورد في الخــبر: «**نَفْسُ الْـمُؤْمِنِ مَرْهُونَـةٌ بِدَيْنِـهِ**»، قــــال: أي محبوسة عن مقامها الكــــريم في

البرزخ فلا تكون منبسطة فيه مع الأرواح المنبسطة. قال: ومحبوسة بمعنى معوقة عن دخول الجنة بمطالبة رب الدين له حتى يرضيه الله من عنده أو يعوضه بقدر دينه من حسناته إن وُجدت ولو في الصوم. قال: ولقد سها من استثناه زاعما أنه معنى: «**الصَّوْمُ لِي**»، ويرده حديث مسلم حيث قال: «**(إِنَّ) الْمُفْلِسَ (مِنْ أُمَّتِي) يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ**» إلخ. قال العلامة الأمير في حواشي عبد الباقي: ومعنى قوله في الحديث: «**الصَّوْمُ لِي**»، أي أنه أبعد من أغراض النفس بمخالفة الشهوات كما ورد: «**يَتْرُكُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِي**». قال: نعم قال بعض العارفين: لا يؤخذ في التبعات الإيمان، ولا ما كان من شروط صحته كمحبة الله ورسوله لأن بذالك الخلوص من الخلود، كما يُترك للمفلس ضرورياته في الدنيا.

وفي الإمام البخاري عنه صلى الله عليه وسلم قال: «**مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللهُ**».

قال الشيخ ابن ناجي في شرحه على الإمام مسلم عند شرحه للحديث المتقدم عند قول مسلم: «**طُرِحَ عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَاتِ الْمَظْلُومِ**»، محل الطرح المذكور إذا مات الظالم وهو قادر على الوفاء، إما أن مات على توبة مع الإعسار أو عدم معرفته لأرباب

الحقوق فليرجع إلى مولاه بالتوبة والاستغفار له ولأرباب الحقوق عليه فالله يرضي عنه خصماءه يوم القيامة. اهـ.

ويدل له ما ذكره الإمام القسطلاني في شرحه على البخاري عن أبي إمامة مرفوعا: **«مَنْ تَدَايَنَ بِدَيْنٍ وَفِي نَفْسِهِ وَفَاؤُهُ ثُمَّ مَاتَ، تَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُ، وَأَرْضَى غَرِيمَهُ بِمَا شَاءَ؛ وَمَنْ تَدَايَنَ بِدَيْنٍ وَلَيْسَ فِي نَفْسِهِ وَفَاؤُهُ ثُمَّ مَاتَ، اقْتَصَّ اللهُ لِغَرِيمِهِ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**، قال رواه الحاكم. ورواه أيضا الطبراني في الكبير بأطول من هذا، ولفظه: **«مَنِ ادَّانَ دَيْنًا وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يُؤَدِّيَهُ أَدَّى اللهُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنِ اسْتَدَانَ دَيْنًا وَهُوَ لَا يَنْوِي أَنْ يُؤَدِّيَهُ فَمَاتَ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ظَنَنْتُ أَنِّي لَا آخُذُ لِعَبْدِي حَقَّهُ، فَيُؤْخَذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَيُجْعَلُ فِي حَسَنَاتِ الْآخَرِ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ الْآخَرِ فَجُعِلَتْ عَلَيْهِ»**. اهـ.

قال العارف الشعراني في كتابه الأنوار القدسية:

تنبيه: ينبغي لمن يعلم من نفسه أن عليه للناس حقوقا في المال والعرض، وتعذر رضاهم أن يقرأ مع حضور قلب سورة الإخلاص اثنتي عشرة مرة والمعوذتين كل ليلة، ويهدي ثوابهن في صحائف أرباب الحقوق عليه، ويقول بعد القراءة: اللهم صل وسلم على نبيك

وحبيبك سيدنا محمد وعلى آله، وأثبـني على ما قرأته، واجعله في صـــحائف من له علي تبعة من عبادك من مال وعرض. اهـ.

وعلى هـــذا يحمل ما رواه أنس كما في المواهب، ولفظه: «**بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ إِذْ رَأَيْنَاهُ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ ثَنَايَاهُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي؟ قَالَ: رَجُلَانِ مِنْ أُمَّتِي جَثَيَا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ الْعِزَّةِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: يَا رَبِّ خُذْ لِي مَظْلِمَتِي مِنْ أَخِي، فَقَالَ اللهُ (تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلطَّالِبِ): فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِأَخِيكَ وَلَمْ يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ؟ قَالَ: يَا رَبِّ فَلْيَحْمِلْ مِنْ أَوْزَارِي، قَالَ: وَفَاضَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْبُكَاءِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ ذَاكَ الْيَوْمَ عَظِيمٌ يَحْتَاجُ النَّاسُ أَنْ يُحْمَلَ عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ، فَقَالَ اللهُ لِلطَّالِبِ: ارْفَعْ بَصَرَكَ فَانْظُرْ (فِي الْجِنَّانِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ)، فَقَالَ: يَا رَبِّ أَرَى مَدَائِنَ مِنْ ذَهَبٍ وَقُصُورًا مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةً بِاللُّؤْلُؤِ لِأَيِّ نَبِيٍّ هَذَا؟ أَوْ لِأَيِّ صِدِّيقٍ هَذَا؟ أَوْ لِأَيِّ شَهِيدٍ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا لِمَنْ أَعْطَى الثَّمَنَ، قَالَ: يَا رَبِّ وَمَنْ يَمْلِكُ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَنْتَ تَمْلِكُهُ، قَالَ: بِمَاذَا؟ قَالَ: بِعَفْوِكَ عَنْ أَخِيكَ، قَالَ: يَا رَبِّ فَإِنِّي قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: فَخُذْ بِيَدِ**

أَخِيكَ فَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ: اتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ فَإِنَّ اللهَ يُصْلِحُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ». رواه الحاكم، والبيهقي في البعث، وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

قال شارحه الزرقاني: وعن أم هانئ رفعته: «**إِنَّ اللهَ يَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ: يَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ عَفَا عَنْكُمْ، فَيَقُومُ النَّاسُ فَيَتَعَلَّقُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فِي ظُلَامَاتِ (الدُّنْيَا)، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ التَّوْحِيدِ، لِيَعْفُ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ وَعَلَيَّ الثَّوَابُ**».

قال: قال الغزالي رحمه الله: هذا محمول على من تاب من المظالم ولم يعد إليها، وهم الأوابون في قوله تعالى: (**فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا**).

قال: قال القرطبي: وهذا تأويل حسن.

قال: أو يكون فيمن له خبيئة من عمل صالح فيغفر الله له به ويرضي خصماءه.

قال: ولو كان عاما في جميع الناس، ما دخل أحد النار.

تنبيه: في ترتيب أحوال يوم القيامة.

قال في البدور: قال ابن برجان في الإرشاد: إذا ألهم رؤوس المحشر طلبوا من يشفع لهم ويريحهم مما هم فيه، وهم رؤوس أتباع الرسل، ترددوا إلى الأنبياء ووقعت الشفاعة، وأمر آدم صلى الله عليه وسلم أن يخرج بعث النار من أمته وهم سبعة أصناف، البعثان الأولان يلتقطهم عنق النار من بين الخلائق لقط الحمام حب السمسم، وهم أهل الكفر بالله جحدًا وعتوا وأهل الكفر أعراضا وجهلا، ثم يقال لأهل الجمع السبع كله: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فمن كان يعبد من دون الله شيئا اتبعه حتى يقذف في جهنم، قال تعالى: (**هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ**)، قال: (**فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ، وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ**)؛ ثم يبعث البعث الرابع وهم قوم وحدوا الله وكذبوا الرسل جهلوا صفات الله جل جلاله وردوا عليه كتبه ورسله؛ ثم يبعث الخامس والسادس وهم أهل الكتابين التوراة والإنجيل يأتون إلى ربهم عطاشا فيقول لهم: ما تبغون؟ فيقولون: عطشنا فاسقنا، فيقال لهم: ألا ترون؟، فيشار لهم إلى جهنم كأنها شراب يحطم بعضها بعضا، فيردونها فيسقطون فيها؛ ثم تقع المحنة بالمنافقين والمؤمنين في معرفة ربهم وغيره من المعبودات، فيذهب الله المنافقين ويثبت المومنين؛ ثم ينصب الصراط

مجازا على جهنم فيسقط أهل البدع ومن عجز عمله من المؤمنين في النار، ويخلص الباقون على تفاوت درجاتهم ويحبسون على قنطرة بين الجنة والنار يقضون مظالم كانت منهم في الدنيا، فإذا صفوا وهذبوا دخلوا الجنة، ومن ذلك المقام موقف أصحاب الأعراف. اهـ.

قال القرطبي: هكذا ذكر هذا الترتيب وهو ترتيب حسن، لكن ربما يقال إنه غير جيد لعدم تعرضه للميزان، مع أن التحقيق فيه أنه عند إرادة المرور على الصراط.

قال النسفي في بحر الكلام: فإن قيل أين الحساب وأين الميزان؟ قلنا: الميزان على الصراط، فتوزن حسنات كل واحد وسيئاته، فمن ثقلت موازينه يمضي إلى الجنة، ومن كان من أهل الشقاوة يسقط في النار، فلعله لما كان الميزان على الصراط اكتفى بانتقالهم من الحساب إلى الصراط.

وقوله في الحديث: «**أَخْرِجْ بَعْثَ جَهَنَّمَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ**» قال ابن حجر: هذا أوّل شيء يقع يوم القيامة.

وأخرج الترمذي وصححه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**يَخْرُجُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ لَهُ عَيْنَانِ تَنْظُرَانِ، وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ يَقُولُ: إِنِّي وُكِّلْتُ بِثَلَاثَةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنْ ادَّعَى مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ،**

وَبِالْـمُصَوِّرِينَ»، (...) بضم العين والنـون، أي طائفة وجانب من النار.

وأخــرج أحمد عن عائشة قــالت: قُلْتُ: يَا رَسُـولَ اللـهِ، هَـلْ يَـذْكُرُ الْـحَبِيبُ حَبِيبَـهُ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «**أَمَّا عِنْـدَ ثَلَاثٍ فَلَا: أَمَّا عِنْـدَ الْـــمِيزَانِ حَتَّى يَعْلَمَ الثِّقْـلَ أَوْ الْــخِفَّةَ فَلَا؛ وَأَمَّا عِنْـــدَ تَطَـــايُرِ الْكُتُبِ، فَإِمَّا أَنْ يُعْطَى بِيَمِينِــهِ أَوْ يُعْطَى بِشِـــمَالِهِ فَلَا؛ وَحِينَ تَخْـــرُجُ عُنُـــقٌ مِنَ النَّارِ فَتُطْــوَى عَلَيْهِمْ وَتَتَغَيَّظُ عَلَيْهِمْ، وَيَقُـــولُ ذَلِـــكَ الْعُنُـــقُ: وُكِّلْتُ بِثَلَاثَــةٍ: وُكِّلْتُ بِمَنْ ادَّعَى مَعَ اللهِ إِلَـهًا آخَـرَ، وَوُكِّلْتُ بِمَنْ لَا يُـؤْمِنُ بِالْــحِسَابِ، وَوُكِّلْتُ بِكُـــلِّ جَبَّارٍ عَنِيـــدٍ، فَتُطْوَى عَلَيْهِمْ وَتَطْرَحُهُمْ فِي غَمَرَاتٍ**».

وأخرج أبو يعلى بسـند رجاله ثقـاة عن أبي سعيد: **سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ**: «**إِذَا جَمَـعَ اللـهُ النَّاسَ فِي صَـعِيدٍ وَاحِـدٍ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ، أَقْبَلَتِ النَّارُ يَرْكَبُ بَعْضُـهَا بَعْضًـا، وَخَزَنَتُهَا يَكُفُّونَهَـا، (وَهِيَ) تَقُـولُ: وَعِـزَّةِ رَبِّي لَتُخَلِّيَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَ أَزْوَاجِي أَوْ لَأَغْشَـــيَنَّ النَّاسَ عُنُقًا وَاحِـدًا** - لَتُخَلِّيَنَّ بضـم التـاء مبـني للمفعـول- **فَيَقُولُـونَ: وَمَنْ أَزْوَاجُـكِ؟ فَتَقُـولُ: كُـلُّ جُبَارٍ كَفُورٍ، (فَتُخْرُجُ لِسَانَهَا) فَتَلْتَقِطُهُمْ بِـهِ مِنْ بَيْنِ ظَهْـرَانَيِ النَّاسِ، فَتَقْـذِفُهُمْ فِي جَوْفِهَا، ثُمَّ تَسْتَأْخِرُ، ثُمَّ تُقْبِلُ يَـرْكَبُ بَعْضُـــهَا بَعْضًـــا، وَخَزَنَتُهَا يَكُفُّونَهَا وَهِيَ**

تَقُـــولُ: وَعِـــزَّةِ رَبِّي لَتُخَلَّيَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَ أَزْوَاجِي أَوْ لَأَغْشَيَـنَّ النَّاسَ عُنُقًا وَاحِـدًا، فَيَقُولُـونَ: وَمَنْ أَزْوَاجُـكِ؟ فَتَقُـولُ: كُـلُّ جُبَار كَفُور، فَتَلْقُطُهُمْ بِلِسَانِهَا (مِنْ بَيْنِ ظَهْرَانَي النَّاسِ) فَتَقْذِفُهُمْ فِي جَوْفِهَـا، (ثُمَّ تَسْـتَأْخِرُ ثُمَّ تُقْبِـلُ فَيَـرْكَبُ بَعْضُـهَا بَعْضًـــا وَخَزَنَتُهَا يَكُفُّونَهَا وَهِيَ تَقُــولُ: وَعِزَّةِ رَبِّي لَيُخَلِّيَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَ أَزْوَاجِي أَوْ لَأَغْشَيَنَّ النَّاسَ عُنُقًا وَاحِـدًا، فَيَقُولُـونَ: مَنْ أَزْوَاجُكِ؟ فَتَقُولُ: كُلُّ مُخْتَالٍ فَخُـور، فَتَلْقُطُهُمْ بِلِسَـــانِهَا مِنْ بَيْن ظَهْـــرَانَي النَّاسِ، فَتَقْــــــــذِفُهُمْ فِي جَوْفِهَا ثُمَّ تَسْتَأْخِرُ)، وَيَقْضِي اللهُ بَيْنَ الْعِبَادِ».

وفي رواية البزار زيـادة: «مَنْ قتلَ بِغَيْـر نفسٍ فتنطلقُ بِهِمْ قَبْـلَ سـَائِرِ الْــخَلْق بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ».

وأخرج البخـاري عن أبي هريـرة أن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قــال: «أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى يَوْمَ القِيَامَةِ آدَمُ، فَيَتَرَاءَى ذُرِّيَّتُـهُ، فَيُقَالُ: هَـذَا أَبُـوكُمْ آدَمُ، فَيَقُـولُ: لَبَّيْـكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْـرِجْ بَعْثَ جَهَنَّمَ مِنْ ذُرِّيَّتِـــكَ، فَيَقُـــولُ: يَا رَبِّ كَمْ أُخْـــرِجُ، فَيَقُـولُ: (أَخْــرِجْ) مِنْ كُـلِّ مِائَةٍ تِسْـعَةً وَتِسْعِينَ. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِذَا أُخِذَ مِنَّا مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْـعُونَ، فَمَـاذَا يَبْقَى مِنَّا؟ قَــــالَ: «إِنَّ أُمَّتِي فِي الأُمَمِ

كَالشَّعَرَةِ البَيْضَاءِ فِي الثَّوْرِ الأَسْوَدِ»، والله أعلم.

فصل

في أخذ العباد صحفهم، وكونه قبل الصراط والميزان، وبيان أول من يأخذ كتابه بيمينه وبالعكس، ومن لا يحتاج إلى أخذه.

أما أخذ الصحف:

فاعلم أنها هي الكتب المشحونة بأعمالهم التي كتبها عليهم الحفظة الكرام، وهي المراد بقوله تعالى: (**وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ**) الآية، قيل إن الريح تطير تلك الكتب من خزانة تحت العرش فلا تخطئ صحيفة عنق صاحبها، قال تعالى: (**وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ**)، ثم يجيء الملك فيأخذها من عنقه ويعطيها له في يمينه إن كان سعيدا، فإن كان شقيا فيثقب الملك صدره ويدخل يده الشمال فيه ويستخرجها من وراء ظهره ويعطيها له في شماله من وراء ظهره.

ووقع التوقف في المؤمن العاصي، والمشهور أنه يأخذه بيمينه ويكون ذلك علامة على عدم خلوده في النار.

ثم إن أخذ الصـــحف إنما هو لمن أراد الله حسـابه، فيخــرج الــذين يــدخلون الجنة بغــير حساب، لما أخرجه الـبيهقي عن أبي هريـرة أن رســول الله صــلى الله عليه وســلم قــال: **«سَــأَلْتُ رَبِّي فَوَعَــدَنِي أَنْ يُــدْخِلَ مِنْ أُمَّتِيَ الْــجَنَّةَ سَــبْعُونَ أَلْفًا عَلَى صُــورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَاسْتَزَدْتُ فَزَادَنِي مَـعَ كُـلِّ أَلْـفٍ سَـبْعِينَ أَلْفًا»**، فـإنهم لا يأخـذون صحفا، وكذالك الأنبياء والملائكة.

وظـاهر الآيـات والأحـاديث عـدم اختصـاص أخذ الصـحف بهـذه الأمة بل هو عـام، بل الجن كذالك المؤمن والكافر.

وَأَوَّلُ مَنْ يُعْطَى كِتَابَـهُ (بِيَمِينِـهِ) مُطْلَقًا وَلَهُ شُعَاعٌ كَشُـعَاعِ الشَّـمْسِ عُمَـرُ بْنُ الخَطَّابِ، قِيلَ عِنْدَ ذَلِكَ: يَا رَسُولَ اللهِ فَـأَبُو بَكْـرٍ؟ فَقَـالَ: **«هَيْهَاتَ زَفَّتْ بِهِ الْـمَلَائِكَةُ إِلَى الْــجَنَّةِ»**. اهـ. عبد السلام.

قـال الأمـير: وظـاهره أنه لا يلـزم من ذلك دخول الجنة قبل النبي صـلى الله عليه وسـلم، ثم إن هذا يفيد أن عمر لَيْسَ مِنْ السَّبْعِينَ أَلْفًا.

قال العدوي: جبرًا للجماعة الـذين يأخـذون كتابهم، فيقال: جعلنا مقدامكم عمر أميرًا.

وَبَعْدَهُ أَبُو سَلَمَةَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الْأَسَـدِ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ هَاجَرَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى المدِينَةِ.

وَأَوَّلُ مَنْ يَأْخُذُ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَخُوهُ الْأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ. قال الأمير: لأنَّهُ أوَّل من بادر النبي صلى الله عليه وسلم بالحرب يوم بدر.
وَظَوَاهِرُ النُّصُوصِ أَنَّ الْقِرَاءَةَ حَقِيقِيَّةٌ، وَقِيلَ مَجَازِيَّةٌ عَبَّرَ بِهَا عَنْ عِلْمِ كُلِّ أَحَدٍ بِمَا لَهُ وَمَا عَلَيْهِ. وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ يَقْرَأُ كُلُّ إنْسَانٍ كِتَابَهُ أُمِّيًّا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ. اهـ. قاله النفراوي.
وقال في تحفة الإخوان: فأما من أوتي كتابه بيمينه فيعلم أنه من أهل الجنة، فيقول: (**هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ**)، وذالك حين يأذن الله تعالى فيقرأ كتابه. فإذا كان الرجل رأسًا في الخير يدعو إليه، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، أخرج له كتاب أبيض بخط أبيض، في باطنه السيئات وظاهره الحسنات، فيبدأ بالسيئات فيقرؤها فيشفق ويصفر وجهه ويتغير لونه، فإذا بلغ آخر كتابه وجد فيه: هذه سيئاتك قد غفرتها لك، فيفرح عند ذلك فرحا شديدا، ثم يقلب كتابه فيقرأ حسناته فلا يزداد إلا فرحا، حتى إذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه: هذه حسناتك قد ضوعفت لك.
وأما الكافر فيأخذ كتابه بشماله فإذا قرأه أسود وجهه وازرقت عيناه، وفي آخر: هذه سيئاتك قد ضوعفت عليك، أي يضاعف عليه العذاب، فحينئذٍ يكسى سرابيل بالقطران ويُقال له: انطلق إلى أصحابك فأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا. فينطلق ويقول: (**يَا**

لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَـــــــــهْ، وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَـــابِيَهْ، يَا لَيْتَهَا كَـــانَتِ الْقَاضِيَـــةَ، مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ، هَلَـكَ عَنِّي سُـلْطَانِيَهْ)، أي هلكت عـني حجـتي. ثم يقـول الله تعـالى: (**خُـذُوهُ فَغُلُّوهُ، ثُمَّ الْـــجَحِيمَ صَـلُّوهُ، ثُمَّ فِي سِلْسِـــلَةٍ ذَرْعُهَا سَـــبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْــلُكُوهُ**)، ولو أن حلقة منها وضـعت على جبل لـــذاب، فينـــادي أصـــحابه فيقـــول: هل تعرفـــوني؟ فيقولـــون: فمن أنت؟ فيقـــول: أنا فلان بن فلان، فأبشروا فلكل إنسان منكم مثل هذا.

فيا لها من حســرة ما أعظمهـا، ويا لها من بشـارة ما أقبحهـا، ويالها من ندامة ما أضـرها. اهـ. تحفة.

والصــحيح أن أخذ الصـحف قبل الصــراط والميزان وقبل الحساب. قـال النسـفي: لقوله تعـــالى: (**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَــهُ بِيَمِينِـــهِ، فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا**).

فصل
فيما يتعلق بالصراط والميزان

اعلم أن في حكمة الـــوزن كما قـــال بعض المحققين، امتحان العبـاد بالإيمـان بـالغيب في

الدنيا، وجعل ذلك علامة لأهل السعادة والشقاوة، وتعريف العباد ما لهم من الجزاء على الخير والشر، وإقامة الحجة عليهم. وهو قبل الصراط على الصحيح.

قال النفراوي: وبلغت أحاديثه مبلغ التواتر، وانعقد عليه إجماع أهل الحق، وأنه ميزان واحد له كفتان ولسان، وتوضع فيه صحائف الأعمال أو أعيانها بعد تجسيمها ليظهر الرابح والخاسر.

وقال العدوي في حواشيه: واقتصرت الشراح على الصحف لأنه ورد في الحديث أن كتب الأعمال هي التي توزن، وقيل توزن الذوات لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**لَيُؤْتَى بِالْعَظِيمِ الثَّقِيلِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**»، وفي بعض الروايات: «**لَرِجْلُ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ**». اهـ.

فهذه أقوال ثلاثة أرجحها القولان الأولان كما قال اللقاني، فتوزن الكتب أو الأعيان، أي أعيان الأعمال. فـ **(أو)** لتنويع الخلاف، وأرجحها القول الأول. وعلى القول الثاني وهو أن الذي يوزن هو الأعيان مع أنها أعراض، يقلب الله الأعراض أجساما حسية ثم توزن، والله تعالى قادر.

وقيل يخلق الله تعالى صورا نورانية بقدر الحسنات، وصورا ظلمانية بقدر السيئات فتوزن.

قال في المواهب اللدنية: ثم بعد انقضاء الحساب يكون وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها.

قال: والذي عليه الأكثر وهو المعتمد، أن الميزان واحد يوزن به للجميع، وإنما ورد في الآية بصيغة الجمع للتفخيم.

قال: واختلف في كيفية وضع الميزان. والذي جاء في الأكثر الأخبار أن الجنة توضع عن يمين العرش والنار عن يسار العرش، ثمّ يؤتى بالميزان فينصب بين يدي الله تعالى، فتوضع كفة الحسنات مقابل الجنة وكفة السيئات مقابل النار. ذكره في نوادر الأصول.

واختلف أيضا في الموزون:

فقال بعضهم توزن الأعمال نفسها، وهي وإن كانت أعراضا إلا أنها تجسَّم يوم القيامة فتوزن. وقيل الموزون صحائف الأعمال.

قال: ويدل له حديث البطاقة المشهور، ولفظه كما رواه الترمذي: «**إِنَّ اللهَ يَسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِنْهَا مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً،**

وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَيُخْرِجُ بِطَاقَةً فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضِرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: (يَا رَبِّ)، مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ (فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ) فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، وَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ».

قال: وذكر الغزالي: يؤتى برجل يوم القيامة فما يجد حسنة يرجح بها ميزانه، وقد اعتدلت بالسوية، فيقول الله له رحمة منه: اذهب في الناس فالتمس من يعطيك حسنة لأدخلك بها الجنة، فما يجد أحدا يكلمه في ذلك الأمر إلا قال له: أنا أحوج لذالك منك. فييأس، فيقول له رجل: لقد لقيت الله فما وجدت في صحيفتي إلا حسنة واحدة وما أظنها تغني عني شيئا خُذها هبة. فينطلق بها فرحًا مسرورًا فيقول الله له: ما بالك؟ وهو أعلم، فيقول: يا رب اتفق من أمري كيت وكيت. فينادي الله بصاحبه الذي وهبه الحسنة فيقول الله تعالى: كرمي أوسع من كرمك، خذ بيد أخيك وانطلقا إلى الجنة. والله أعلم.

وأما الصراط فهو ثابت بالكتاب والسنة والإجماع.

قال الله تعالى: (**فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ**).

وقال صلى الله عليه وسلم: «**يُنْصَبُ الصِّرَاطُ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُهُ أَنَا وَأُمَّتِي**».

فيجب الإيمان به. والحق تفويض معرفة حقيقته إلى الله تعالى، يَرِدُهُ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ حَتَّى مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ. قال الأمير: وكلهم سكوت إلا الأنبياء، وقولهم إذ ذاك: «**اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ**»، كذا في الصحيح. اهـ.

وهو لغة: الطريق الواسع، وشرعا: قال الدردير في شرح خريدته: جِسْرٌ مَمْدُودٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ بَيْنَ الموْقِف والجنَّة أَرَقُّ مِنْ الشَّعْرَةِ وَأَحَدُّ مِنْ السَّيْفِ. قال: وأنكر الغزالي تبعا لشيخه العز عبد السلام كونه أرق من الشعرة وأحد من السيف لما ورد مما يدل على ذلك. قالوا: وعلى فرض صحته يؤول بأنه كناية عن شدة المشقة. اهـ. قاله الأمير.

قال الدردير: والأظهر أنه مختلف في الضيق والاتساع باختلاف الأعمال.

وقيل إن الكفار لا يمرون عليه، بل يؤمر بهم إلى النار من أول الأمر. وقيل بعضهم يمر وبعضهم لا يمر.

قال: والمارون عليه مختلفون: فمنهم سالم بعمله ناج من نار جهنم، وهم على أقسام:

فمنهم من يجوزه كلمحة البصر، ومنهم من يجوزه كالبرق الخاطف، ومنهم كالريح العاصف، ومنهم كالطير، ومنهم كالجواد

السابق، ومنهم من يسعى سعيا، ومنهم من يمشي، ومنهم من يمر عليه حبوا، على قدر تفاوتهم في الأعمال الصالحة والإعراض عن المعاصي، فكل من كان أسرع إعراضا عن المعاصي إذا مرت على خاطره كان أسرع مرورا، ومنهم من تخدشه كلاليب فيسقط ولكن يتعلق بها فيعتدل ويمر ويجاوزه بعد أعوام، فمنهم من يجوزه على مائة عام، ومنهم من يجوزه على ألف عام وبقدرها يعطون الأنوار.

ومنهم غير السالم، وهم متفاوتون أيضا بقدر الجرائم. ثم منهم من يخلد في النار كالكفار، ومنهم من يخرج منها بعد مدة على حسب ما شاء الله تعالى وهم عصاة المومنين بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره من الأخيار.

قال الفاكهاني: وهو موجود الآن، والأخبار عنه صحيحة، وأهل السنة أبقوها على ظاهرها مع تفويض علم حقيقته إلى الله تعالى. وقال بعضهم: يوجد عند الحاجة إليه.

قال في البدور: يختلفون عليه في الأنوار.

قال: أخرج الطبراني عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّ اللهَ يُعْطِي كُلَّ مُؤْمِنٍ نُورًا، وَكُلَّ مُنَافِقٍ نُورًا، فَإِذَا اسْتَوَوْا عَلَى الصِّرَاطِ سَلَبَ اللهُ نُورَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: (انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ**

نُورِكُمْ)، وَقَالَ الْـمُؤْمِنُونَ: (رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا). فَلَا يَذْكُرُ عِنْدَ ذَلِكَ أَحَدٌ أَحَدًا».

وأخرج ابن مردويه في تفسيره بسند لا بأس به عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ سَطَعَ لَهُ نُورٌ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ يُضِيءُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَغُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ»**.

وأخرج الديلمي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«الصَّلَاةُ عَلَيَّ نُورٌ عَلَى الصِّرَاطِ»**.

قال الشيخ عبد السلام: وطوله ثلاثة آلاف سنة: ألف صعود، وألف هبوط، وألف استواء؛ وجبريل في أوله، وميكائيل في وسطه يسألان الناس عن عمرهم فيما أفنوه، وعن شبابهم فيما أبلوه، وعن عملهم فيما عملوا به.

قال الأمير: واستشكل التوصل إلى الجنة، فإنها عالية جدا وهو على متن جهنم، قال: وأفاد الشعراني أنه لا يوصل للجنة حقيقة بل لمرجها الذي فيه الدرج الموصل لها حيث الحوض.

قال: ويوضع لهم هناك مأدبة أي وليمة.

قال: ويقوم أحدهم فيتناول مما تدلى هناك من ثمار الجنة.

قال: ومن كلام الشيخ الأكبر ما يفيد عدم التعويل على ظاهر هذه الآلاف وإنما هي كناية

عن كــثرة الاختلاف فيه، مع أنه ما له امتــداد للعلو حتى يوصل، وإنما العلم عند الله.

وفي المــواهب اللدنية: وقــال بعض أهل العلم فيما حكـاه القرطـبي في التـذكرة: ولن يجوز الصراط حتى يسأل في سبع قناطر:

-فأما القنطـرة الأولى فيسـأل عن الإيمـان بالله، وهي شـهادة أن لا إله إلا الله، فـإن جـاز بها مخلصا جاز.

-ثم يسأل في القنطـرة الثانية عن الصـلاة، فإن جاء بها تامة جاز.

-ثم يسـأل في القنطـرة الثالثة عن صـوم شهر رمضان، فإن جاء به تاما جاز.

-ثم يسأل في القنطرة الرابعة عن الزكـاة، فإن جاء بها تاما جاز.

-ثم يسأل في الخامسة عن الحج والعمرة، فإن جاء بهما تامين جاز.

-ثم يســــــأل في السادسة عن الغسل والوضوء فإن جاء بهما تامين جاز.

-ثم يسأل في السابعة، وليس في القنـاطر أصعب منها، فيسأل عن ظلمات الناس.

قـال: وقد ذهب بعضـهم إلى أن المراد من قوله تعـالى: (**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا**) الجـواز على الصــراط، لأنه ممـدود على النــار، وهــذا مــروي عن ابن عبــاس وابن مســعود وكعب الأحبــار. وقيل: الــورود الــدخول، دليله حــديث جــابر بن عبد الله قــال: سَــمِعْتُ رَسُــولَ اللــهِ صَــلَّى اللــهُ عَلَيْــهِ وَسَــلَّمَ يَقُــولُ: «**الْــوُرُودُ**

الدُّخُولُ، لَا يَبْقَى بَرٌّ وَلَا فَـاجِرٌ إِلَّا دَخَلَهَا، فَتَكُونُ عَلَى الْـمُؤْمِنِ بَـرْدًا وَسَـلَامًا كَمَا كَـــانَتْ عَلَى إِبْــرَاهِيمَ، حَتَّى إِنَّ لِلنَّارِ ضَجِيجًا مِنْ بَـرْدِهِمْ، ثُمَّ يُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَـوْا)» الآيـة. رواه أحمد والـبيهقي بإسـناد حسن.

قـال: واعلم أن في الآخــرة صــراطين، أحـدهما مجـاز لأهل المحشر ألا من دخل الجنة بغير حسـاب أو يلتقطه عنـق النـار، فـإذا خلص من خلص من الصـراط الأكـبر حبسـوا على صـراط آخر لهم، ولا يرجع إلى النـار أحد من هؤلاء إن شاء الله، لأنهم عـبروا الصـراط الأول المضروب على متن جهنم.

قال الزرقاني شارحه: ولا يخلص من الأكبر إلا المؤمنون الذين علم الله منهم أن القصـاص لا يسـتنفذ حسـناتهم. اهـ. بخ. وتصـرف ما من المشارق للعلامة الشـيخ سـيدي حسن العـدوي رحمه الله تعالى ورضي عنه.

قال مقيده المـذنب الفقـير إلى مـولاه الغـني السـميع البصـير، **محمد العربي بن إدريس العلمي اللحيـــاني** نجــــارا، الزرهوني المساوي منشأ وقرارا ودارا، قد نجز بفضل الله وكرمه ما قصد جمعه، وكمل بحـول الله وقوته ما سـبق في علمه للوجـود بـروزه، وذالك من منن الله ونعمه السابغة علينا، الـتي

لا يفي اللسان بشكرها مـدة حياتنـا، وما أنا في تدوينه خلا نزر النزر منه إلا ناقل، ولست بعـالم ولا ممن لطــرف من العلم حامــل، بل ولا من خيل ذلك المضـمار ودويه النقــاد، والجهابــذة الحفــــاظ الأمجــــاد، بل لست والله ممن يشق غبـــارهم، ولا ممن يصـــلح للأخذ عنهم، بل ولا للجلـــــوس وراءهم، بل ولا ممن ســــلك تلك المسـالك، ولا أدرك تلك المـدارك، وأرغب لمن طالعه أن يغض عن العـــــثرات، ويلحق ما زاغ عنه النظر وطغى به القلم من الترتيب، ويصلح مااختل من العبــــــارات، على أن للعلم حرمة وللعلمــاء حرمــة والمــؤمن يلتمس الأعــذار، والمنــافق يتبع العــورات بل يحــدثها بغـير حق توصلا للإنكار، ولا أجهل من متعصب بالباطل أو منكر لما هو به جاهل، ولا شك أن الكلام صــفة للمتكلم، وما فيك يظهر علي فيــك، والمبــادرة للإنكار كالمبادرة للاغترار، وأولى الناس بــالحق من وفق إلى بيان التحقيق، وتوقف عن مواقف الضــرر والضــيق، كما قــال زروق في شــرحه لحـــــزب البحر رضي الله عنه: وربك يخلق ما يشـــاء وهو الفتــــاح العليم، يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وهب أن من صنف، فقد استهدف، هـذا في العلمــاء المتبحـــرين، فضلا عن الأغمــار الجهلة مثلي والمتطفلين، مع أنه لم يبق اليــــوم رأي لـذي رأي في الـدين ، ولا اجتهـاد مسـتنبط من أصوله سـوى التبـيين، والصـناعة في تـدوين ما

رسموا، والتقريب على البليد فيما سطروا، والعمل بما قالوا، والاهتداء بهم فيما أولوا، ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها، كفى المرء نبلا أن تعد معايبه.

وأقول لمن لامني في قلة أدبي وتجاسري، قوة الغيرة الإيمانية عذري، ومن كان من ذوي الإنصاف يرى أن الغيور أولى بالعذر من الخطاف، وحملني على ذلك الدفاع عن أولياء الله وحمى شيخنا الخاتم المحبوب، وفي المثل السائد «الضرب بالطوب أولى من الهروب».

وأقول أيضا لمن لج في جهالته وإنكاره، إن الله ينتقم لأوليائه ما لا ينتقم لنفسه، وأيضا فإن ما يوجد في بعض الفصول من التّكرار، إنما أوجبه المبالغة في التفهيم والتذكار، وإذا كان كذالك فلا عهدة على المتطفل، ولا تأنيب عليه من معكِّر متورك متحامل.

وأيضا فإن لي فيما سلكه الشيخ ابن أبي زيد رحمه الله في باب جمل من الفرائض والسنن الواجبة والرغائب، من ذلك أي تكرار بعض المسائل من رسالته أسوة، فالإيراد كالإيراد، والجواب كالجواب، أنظر الأصل والشرح. هذا مع مقلة البضاعة، وخلو اليدين من كتب القوم الأعلام، وخصوصا الرماح لخليفتنا الوارث الإمام، أبي حفص سيدنا عمر الفوتي الشريف، أظله الله وشيخنا وحزبه وآباءنا وأولادنا وأهلينا والمسلمين بظله الو ريف.

وأسأله جل جلاله، وتقدست أسماؤه، وعز كبريائه، أن يجعل هذه الرسالة خالصة لوجهه، ومن الأعمال المقبولة التي لا ترد بمنه وجوده وكرمه، وأن ينفع به من المسلمين من سبقت له السعادة، وختم لنا بالحسنى والزيادة، وستر عيبنا، وغفر حوبنا، وأكرمنا بما أكرم به خاصته المحبوبين وأصفياءه بجاه عين الرحمة الربانية، سيدنا ومولانا محمد أكرم الخلق على الله الملك العلام، عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام، وعلى آله البررة، وأصحابه الخيرة.

ووافق الفراغ من تبييضه، بعد فترات بين تلفيقه، ضحى رابع عشر في ربيع الثاني من عام 1299.

وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا عدد خلقه ورضى نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته، **سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.**